الكشوف الأثرية وأثرها فى كتابة التاريخ القديم

١ - مقـدمة :

ظل الشرق القديم غارقاً فى ظلام دامس مليئاً بالأسرار قروناً عـدة لا يعرف الناس عنه إلا ما وصل إليهم من بعض الكتاب الاغريق والرومان وما ورد عنه من قصص دينى فى كتاب « العهد القديم » .

ومنذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد أخذ بعض المفكرين من الاغريق يتجولون فى بلاد الشرق القديم وكانت بابل إذ ذاك قد كبت كبوتها الأخيرة وأفل نجمها كما كانت مصر فى النزع الأخير بعد أن وقعت فريسة لجحافل الفرس وسادت فيها القلاقل والاضطرابات وعمتها موجة من اليأس كنتيجة لاضمحلال تفشى فى كل ركن من أركان النشاط الحضرى فيها وتعارف المؤرخون على تسمية هذا العصر باسم النكسة الأخيرة .

ولم يبق للمصريين إبانها إلا التحدث عن ماضيهم الطويل المملوء بالحكمة والأسرار يشيرون إلى ما تبقى من معابد وقصور ومقابر كدليل مادى على صحة ما يدعون وعكف كهانهم على التحدث عن ملوكهم الذين فنوا منذ قرون مترنمين بأعمالهم وبسالتهم وجبروتهم - حدث هذا عندما انتقل مركز الثقل فى السياسة الدولية إلى بلاد الاغريق وأصبح اليونانيون يسيطرون على الميزان الدولى بعد أن قفزوا ببلادهم إلى الصفوف الأولى فما لبثت أن تولت علم القيادة .

فى ذلك الوقت خرج نفر من الاغريق يتجول فى ربوع بلدان الشرق الأدنى يدفعهم إلى ذلك حب الاستطلاع من ناحية والبحث عن الأصول الأولى للحضارة الاغريقية من ناحية أخرى . ولعل أقدم الذين تجولوا فى الشرق وكتبوا عنه وخصوا مصر بالجانب الأكبر من عنايتهم كان هيكاتيوس الملطى الذى عاش فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وزار مصر حوالى عام ٥٢٠ ق . م .

وزعم أنه اتصل بالمصريين واستساغ الحياة بينهم وأحب ديانة آمون وفهم أسرارها وعاش فترة طويلة بين كهنة هذا الإله (١) . ثم أعقبه هيرودوت وزار معظم بلدان الشرق القديم حوالى عام ٤٣٠ ق . م . ودون معلوماته التى حصل عليها ومشاهداته فى موسوعة من تسعة أجزاء (٢) على أن هذه الموسوعة التاريخية كانت مستقاة بطبيعة الحال من مصادر متعددة تصف حضارات لا يعرف المؤلف لغاتها ، فضلا عن أن كتابة التاريخ فى ذلك الوقت لم تكن تجنح نحو استقصاء الحقائق وإنما كانت فناً أدبياً خالصاً هدف المؤرخ فيه أن يضيف إلى رواياته كل ما من شأنه أن يفتن الجمهور ويثير فيه حب الاستطلاع . ونسمع كذلك أن أفلاطون وفد إلى مصر فى أواخر القرن الرابع مستعيناً بشحنة من الزيت لتغطية تكاليف السفر والإقامة وانه تحمل مشاق الرحلة فى سبيل التعرف على الحكمة المصرية والتعمق فى أصول الديانة والعلوم المصرية (٣) . ويجب ألا ننسى مانيتون السمنودى (٤) الذى عاصر بطليموس الثانى حوالى عام ٢٨٠ ق . م وكتب تاريخاً لمصر باللغة الإغريقية حاول فيه أن يلتزم الصدق ما أمكن معتمداً اعتماداً كبيراً على الوثائق والأسانيد وإن لم يصلنا منه للأسف غير مقتطفات قليلة . — ونعرف مما كتبه ديودور الصقلى (٥) أنه خصص كتبه الستة الأولى لتاريخ العالم حتى الحروب الطروادية ثم تناول فى الكتب الأحد عشر التالية تاريخ العالم من الحروب الطروادية إلى وفاة الاسكندر الأكبر فى حين تروى كتبه الثلاثة والعشرون الأخيرة قصة العالم من وفاة الاسكندر إلى عام ٥٩ ق . م وقد خصص كتابه الأول لتاريخ مصر والثانى لتاريخ آشور والهند وبلاد العرب والثالث لتاريخ بلاد الحبشة — ثم سترابون (٦) الذى يظن

(1) Edward Meyer: "Geschichte des Altertums" I, 2 (fünfte Auflage), Seite 10-11.

(٢) وهيب كامل . « هيرودوت فى مصر — القرن الخامس قبل الميلاد » (دار المعارف) .

(3) Wilhelm Schubart: "Die Griechen in Aegypten" (Beihefte zum "Alten Orient") Heft 10 Seite 7-8.

(4) Eduard Meyer: "Geschichte des Altertums" I, 2. (fünfte Auflage) Seite 12-17.

(٥) وهيب كامل « ديودور الصقلى فى مصر » (دار المعارف) .

(٦) وهيب كامل « استرابون فى مصر » (مكتبة الأنجلو المصرية) .

أنه وفد إلى مصر مع صديقه جالليوس حوالى عام ٢٥ ق.م فعاش فى الاسكندرية حيناً ثم زار آسيا الصغرى وبلاد اليونان وبلاد ما بين النهرين وكتب سبعة عشر كتاباً خصص منها الأحد عشر كتاباً الأولى لبلدان أوروبا وبدأ فى الكتاب الثانى عشر بوصف آسيا الصغرى ثم وصف فى الكتاب الخامس عشر الهند وفارس فى حين دار كتابه السادس عشر حول وصف الجزء الجنوبى الغربى من آسيا فتناول بالحديث بلاد ما بين النهرين وسوريا وفينيقيا وفلسطين وبلاد العرب . أما مصر وبلاد الحبشة فقد خصص لهما الكتاب السابع عشر — وأخيراً نذكر بلوتارك (١) الذى عاش فى أوائل القرن الثانى بعد الميلاد وكان قد استقر فترة طويلة فى مصر وعاشر أهلها وكتب عن عقائدهم وخاصة كتابه المشهور عن عقيدة ازيس وأزوريس .

هؤلاء جميعاً حضروا إلى مصر — وبعضهم لم يحضر إليها إلا بعد أن طاف ببلدان الشرق القديم ، ثم كتبوا مشاهداتهم ونقلوا إلينا ما سمعوه من أهل البلاد وظلت كتبهم هذه هى المصادر الوحيدة التى كان يتلقفها من أراد العلم والمعرفة ونحن نعرف الآن ما حوته هذه الكتب من أخطاء جسام ومغالطات شتى تسببت تارة عن سوء الفهم وتارة أخرى عن جهل المصادر التى استقى منها أصحابها معلوماتهم ولست أدرى مثلا يضرب لذلك أوضح مما أتى به هيرودوت أبو التاريخ وسوف يعالج هذا الموضوع ويفيه حقه الزميل الدكتور أحمد بدوى فى محاضرته القادمة .

وكلما مرت السنون وتعاقبت الأجيال نجد أن الماضى السحيق بما يحويه من حضارات مزدهرة ينسى ويختفى لتحل محله أوهام تقوم على الخرافة ونسج الخيال . ولأضرب لذلك مثلاحياً يشعرنا بما كان عليه جهل الناس بحضارة مصر فى العصور القديمة . هذا المثل اخترته من كتاب المقريزى حيث أسهب فى ذكر الأهرام (٢) :

---

(1) W. Goodwin : "Plutarck's Morals" Boston 1878 Vol. 4. P. 65-139.

(٢) كتاب « الخطط » للمقريزى الجزء الأول ص ١١ .

اعلم أن الأهرام كانت بمصر كثيرة جداً منها بناحية بوصير شيء كثير بعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس . وأعظم الأهرام ، الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر وقد اختلف الناس فى وقت بنائها واسم بانيها والسبب فى بنائها وقالوا فى ذلك أقوالا متباينة أكثرها غير صحيح ،وسأقص عليك من نبأ ذلك ما يشفى ويكفى انشاء الله تعالى :

قال « ابراهيم » بن « وصيف شاه » الكاتب فى أخبار مصر وعجائبها فى أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هوصال أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون فى مدينة أمسوس الآتى ذكرها عند ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب وهو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر والمنسوبين إلى شداد بن عاد ــ والقبط تنكر أن العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم ــ وسبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة قد رأى سوريد فى منامه كأن الأرض تميد بأهلها وكأن الناس قد هربوا على وجوههم وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضاً بأصوات هائلة فغمه هذا ولم يذكره لأحد وتسير القصة تتحدث عن سوريد هذا بن سهلوق وعن مشاعره نحو الرؤيا التى تكررت بشكل آخر وتنتهى بأن الطوفان سيحدث . ويستفسر الملك سوريد قائلا :ــ هل يلحق الطوفان بلادنا ؟ــ فقالوا نعم سيلحق الطوفان بلادنا ويلحق بها خراب يقيم عدة سنين . فأمر عند ذلك بعمل الأهرام وأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل إلى مكان بعينه ثم يفيض إلى مواضع من أرض الغرب وأرض الصعيد وملأها طلسمات وعجائب وأموالا وأصناماً وأجساد ملوكهم وأمر الكهان فنقشوا عليها جميع ما قالته الحكماء ونقش فيها وفى شقوفها وحيطانها واسطواناتها جميع العلوم الغامضة التى يدعيها أهل مصر وصور فيها صور الكواكب كلها كما نقش عليها أسماء العقاقير ومنافعها ومضارها وعلم الطلسمات وعلم الحساب والهندسة وجميع علومهم مفسراً لمن يعرف كتابتهم ولغتهم ــ ولما شرع فى بنائها أمر بقطع الأسطوانات العظيمة ونشر البلاط الهائل وباستخراج الرصاص من أرض المغرب وإحضار الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام

الثلاثة الشرقى والغربى والملون وكانت لهم صحائف وعليها كتابة إذا قطع الحجر وتم إحكامه وضعوا عليه تلك الصحائف وضربوه فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم ثم يعاودون ضربه حتى يصل الحجر إلى الأهرام .... وتستمر القصة على هذه الوتيرة ثم يختتمها بأن سوريد هذا قد كتب على باب الهرم مايأتى :ـ

« أنا سوريد الملك ـ قد أتممت بناء الهرم فى ست سنين فمن أتى بعدى وزعم أنه ملك مثلى فليهدمها فى ستمائة سنة ـ وإنى كسوتها عند فراغها بالديباج فليكسها بالحصر ... » .

ولعل هذا يعتبر مثلا بسيطاً لما كان يسود العالم من خرافات حول الآثار القديمة من الذى بناها وكيف شيدت . . . وليس من شك فى أن كل قطر من الأقطار القديمة كان يحاك عنه من أهله وزواره ما يماثل ما كتبه المقريزى من خرافات عن أهرامات الجيزة ، وهى إن دلت على شىء فانما تدل على سذاجة متناهية وبساطة فى التفكير .

ولعل أول البحوث الأثرية أو التنقيبات الأثرية التى عرفها العالم الحديث كانت تلك التى بدأت فى إيطاليا عام ١٧٣٨ م وذلك حين رغبت الملكة « ماريا أماليا كريستينا » إلى زوجها شارل ملك صقلية أن يتحرى أمر المكان الذى عثر فيه على روائع الفن من التماثيل البرونزية التى كانت تزدان بها قصور عظماء نابولى فى ذلك الحين . فما لبث أعوان الملك أن أنبأوه بوجوده إلى الجنوب من عاصمته وبالقرب من بركان فيزوف الذى كان قد هدأ بعد ثورة عنيفة فى عامه السابق أى فى مايو عام ١٧٣٧ . وأمر شارل أن يبدأ البحث فوراً فى المكان الذى أرشدوه إليه مكلفاً رئيس مكتبة القصر « دون مارسيللو ڤينوتى » بالإشراف على أعمال الحفر وبعد فترة من العمل تبين أن ذلك المكان المدفون تحت طبقة كثيفة من اللافا يبلغ سمكها ما يقرب من عشرين متراً ليس إلا أطلال مدينـــة قديمة تحمـــل اسم Herculaneum ، وسرعان ما انصرف العالم الأوروبى إلى تحرى النصوص القديمة وأخذ يراجع بشغف ما كتب عن هذه

المدينة وعن أختها الكبرى Pompei التي جاورتها في العمران ثم في الدمار حينما طمرتهما الحمم التي قذف بها بركان فيزوف في ثورته الجامحة التي حدثت في ٢٤ أغسطس من عام ٧٩ ميلادية وأفنت معظم سكانهما .

وانتقل النشاط في أول ابريل من عام ١٧٤٨ إلى التلال الضخمة التي تكسو مدينة بومبي وبعد مضي ستة أيام عثر المنقبون على أول لوحة مرسومة فيها وفي التاسع عشر من ابريل وجدوا أول جثة من جثث سكان بومبي الذين أفزعهم هول الكارثة فأسرعوا هاربين . ولم يكن صاحب هذه الجثة قد نسي في محنته أن يصطحب معه نقوده التي عثر على بعض منها ملقاة بجانب كفه . ومنذ ذلك الوقت عمل رجال الآثار في إيطاليا دون توقف حتى الآن على الكشف عن هاتين المدينتين .

هذه الكشوف الأثرية التي أماط عنها اللثام معول الحفار في مدينتي بومبي وهيركولانيوم في منتصف القرن الثامن عشر كانت بمثابة الشرارة الأولى التي أوقدت في نفوس الناس في العالم المتحضر جذوة حب الاستطلاع والتعرف على حضارة الأجداد في كل مكان ، وسيطرت هذه الفكرة على أفئدة الناس إلى درجة أنه حدث نوع من التسابق العجيب بين الأمم الأوروبية هدفه جمع التحف القديمة وملء المتاحف بها ، وشارك الحكومات نفر غير قليل ممن تيسرت لهم الثروة وكان هدفهم هم أيضاً أن ينفقوا أموالهم على جمع التحف من كل مكان وبذلك تكونت مجموعات ضخمة من الآثار في حيازة الهواة .

وليس من شك في أن الفترة التي تلت الكشف عن آثار بومبي كانت فترة نهب وقرصنة لم يكن يستهدف الحفار إبانها إلا الاستيلاء على النفيس من التحف غير عابىء بالطريقة التي يعثر بها على هذه التحف ولا بدراسة ولو سطحية لظروف المكان أو بالمخلفات الأخرى التي لا ينم شكلها على أنها قطع ذات قيمة مادية .

٢ — الكشوف الأثرية في مصر :

ويعتبر وفود نابليون بعلمائه على مصر بمثابة الشعاع الأول الذي نفذ إلى

الظلمات التى أحاطت بمصر القديمة فأضاء جانباً يسيراً من جنباتها . فكما نعلم جميعاً استصحب نابليون معه فريقاً من العلماء والباحثين وصلوا إليها فى الثانى من شهر يوليه عام ١٧٩٨ وألف منهم جمعية علمية «Institut d'Egypte» عكفت على تسجيل كل ما وجدته فى مصر ومن ذلك آثارها الظاهرة فوق سطح الأرض . ولقد ساعد أولئك العلماء فى أداء مهمتهم رجل موهوب فى فنه رسم كل شىء وقع تحت نظره وهو البارون « دينون » الذى لم يترك مكاناً فى مصر لم يذهب إليه حتى بلغ أسوان ورسم المئات من اللوحات الرائعة وهو صاحب تلك الرسوم الدقيقة التى تمثل الآثار المصرية فى كتاب « وصف مصر » Description de l'Egypte وهو الكتاب التى يعتبر بمثابة الدعامة الأولى التى قامت عليها دراسات « الايجيبتولوجى » ظهر هذا الكتاب فى أربعة وعشرين جزءاً خلال أربع سنوات من ١٨٠٩ إلى ١٨١٣ وكان لظهوره دوى هائل فى المحافل العلمية بأوروبا كما أنه سلط الأضواء على مصر وجعلها منذ ذلك الحين قبلة الباحثين والعلماء والمنقبين .

على أن كتاب « وصف مصر » لم يكن بمفرده الناقوس الذى أعلن للعالم بدء موجة من البحث والاستقصاء هدفها الكشف عن حضارة المصريين القدماء وتاريخهم وإنما هناك حدث أهم وقع أيضاً إبان هذه الفترة ألا وهو العثور على « حجر رشيد » . فى عام ١٧٩٩ وفى شهر أغسطس كان بعض رجال الحملة الفرنسية يقومون بحفر خندق حول قلعة « سان جوليان » بالقرب من المصب الغربى للنيل عند رشيد وعثروا على حجر من البازلت كتب على وجهه الأمامى نقش بثلاث لغات لكل منها طريقتها الخاصة فى الكتابة فالعليا منها بالخط « الهيروغليفى » والوسطى بالخط الشعبى الشائع فى أواخر العصر الفرعونى وهو ما يطلق عليه « الخط الديموطيقى » ، وكتبت الكتابة السفلى منها بالخط اليونانى المعروف والمقروء فى ذلك الوقت [1] ولقد عرف الناس منه أنه تسجيل لشكر كهنة منف على العطايا التى أغدقها عليهم بطليموس الخامس الذى حكم مصر

(١) أدلف إرمان وهرمان رانكه : « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال صفحة (١ – ب) وما بعدها (لوحة ١) .

حوالى عام ١٩٦ ق . م كما ورد فى النص اليونانى أن هذا الشكر سجل بالخط المقدس وبالخط الشعبى والخط اليونانى وهكذا تبين للباحثين أن حجر رشيد يحوى ترجمة للنص اليونانى بالخطين الهيروغليفى والديموطيقى . وتهافت الباحثون على محاولة قراءة النص الهيروغليفى ومن أهمهم :

1. Thomas Young
2. Jean François Champollion
3. Aker Blad
4. De Sacy

وليس من شك فى أن شامبليون كان أكثرهم توفيقاً، إذ خرج على العالم بحقيقة ثابتة وهى أن « الهيروغليفية » ليست كتابة رمزية بحتة كما اعتقد الناس من قبل [1] بل أكد أنها فى معظمها كتابة صوتية تتكون من علامات مختلفة لكل منها قيمة صوتية محددة . وعندما توفى شامبليون بعد عشر سنوات من كشفه العظيم أى عام ١٨٣٢ كان قد تمكن من أن يقرأ عدة نصوص بشكل يقرب من الحقيقة ويمكننا أن نقول أن جميع خطوات التقدم التى سارت فيها الدراسات الأثرية فيما بعد كانت تقوم على الأسس التى أقامها « شامبليون » .

وفى الربع الأول من القرن التاسع عشر هبت موجة ثانية مباركة استهدفت تسجيل النقوش والرسوم ووصف الآثار القائمة مع قليل من الكشوف المنظمة . ولقد بدأت بعثة « روسوليني » عام ١٨٢٨ وامتد نشاطها حتى الشلال الأول[2] ثم تلتها بعثة « رينشارد ليبسيوس » عام ١٨٤٠ مبتدئة من الدلتا شمالا حتى أقاصى

---

(١) لقد قام بعض العلماء بمحاولات شتى لتفسير علامات اللغة المصرية القديمة وكانت محاولات فاشلة بدليل أن العلامة المشهور فى وقته Athanasius Kircher قدم بحثاً شرح فيه العلامات السبعة التى يحويها أو يتكون منها لقب أباطرة الرومان : Awtkrtr مترجماً إياه كما يأتى : « أزوريس خالق قوة الخصوبة وخالق جميع النباتات وقوة تناسله تحضر من السماء المقدسة إلى دولته » .

(2) Rosellini, Ippolito : "I monumenti dell'Egitto e della Nubia, disegnati dalla spedizione scientifico-letteraria toscane in Egitto" Pisa 1832-44.

السودان جنوباً (١) . ولم يبق لبسيوس على أثر مصرى قديم رآه دون أن يرسمه ويصفه وصفاً علمياً دقيقاً ، كما وفق إلى الكشف عن عدة مقابر فى جبانات الجيزة وسقارة ومصر الوسطى، ثم نشر نقوش بعثات التعدين التى أوفدها المصريون القدماء إلى مناجم شبه جزيرة سينا .

على أن فتح باب الدراسة والتنقيب فى مصر لم يكن خيراً كله ولعل خيره كان أقل بكثير من شره لأن علم الآثار فى ذلك الوقت أخذ يرتمى فى أحضان الدخلاء بعد أن اجتذب نفراً من المغامرين الذين اتخذوا من البحث عن الآثار مهنة للكسب والاثراء ونحن لانتردد فى وصف هؤلاء بناهبى القبور ومخربى الآثار ، ويجب أن نذكر فى مقدمتهم «جيوفانى بلزونى» الذى قيل انه كان يعمل فى سيرك بانجلترا ثم وفد إلى مصر ليروج توزيع ماكينات للرى غير أنه مالبث أن وجد فى الكشف عن الكنوز الأثرية مورداً خصباً للكسب فعمل فى الحفر باسم البحث العلمى لحسابه ولحساب القنصل البريطانى فيما بين ١٨١٧–١٨١٩(٢) ولقد أجمع الأثريون على تشبيه هذا الرجل بحرباء آدمية أما هو فقد تحدث عن نفسه فى وصف جولاته بأنه كان فى كل خطوة يخطوها يهشم جانباً من مومياء مصرى قديم وأنه ما استقر على جثة حتى تفتتت من تحته كالهشيم وكان هذا بالطبع بحثاً وراء التحف .

ويبدو أن النجاح الذى أصابه بلزونى كان حافزاً للقنصل الفرنسى إذ ذاك واسمه « دروتى » (٣) أن يقلده فاستأجر هو الآخر وكلاء يعملون لحسابه فى

---

(1) Lepsius, Karl Richard : "Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien" Berlin 1849 ff ; Fünf Bande Text, Leipzig 1897 ff.

(2) Belzoni, Giovanni Battista : "Narrative of the operations and recent discoveries within the pyramids, temples, tombs and excavations in Egypt and Nubia" London 1820.

(3) Cailliaud, Frédéric ; "Voyage à l'oasis de Thèbes et dans les déserts situés à l'orient et à l'occident de la Thebaide :

1. Le voyage à l'oasis du Dakel par M. le Chevalier Bernardin Drovetti.
2. Le journal du premier voyage de M. Cailliaud en Nubie.
3. Des recherches sur les oasis etc." Paris 1821.

التنقيب وعلى رأسهم « فريدريك كايو » وانتهى الأمر بأن أصبح التنافس بين الفريقين كثيراً ما يحسم بالسلاح . وكان « كارتر » على حق عندما وصف هذه الأعمال بأنها كانت أقرب إلى أعمال القرصنة منها إلى البحث والتنقيب . وعلى كل حال كان من نتيجة هذه الأعمال أن دخل سيل من التحف الأثرية فى متاحف لندن وباريس وتورين وبرلين فضلا عما اكتنزته المجموعات الخاصة.

على أنه ما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كانت أهم الآثار القائمة فوق سطح الأرض قد سجلت كما قطعت محاولات قراءة الكتابة الهيروغليفية شوطاً طيباً وغدا فى وسع الباحثين أن يحققوا ما كتبه الرواد الأوائل من الإغريق والرومان عن الحضارة المصرية وقدمها وأخذ نفر من العلماء الممتازين يبحثون بجهد لا يعرف الملل فى تلك المادة الضخمة التى وصلت إلى أيديهم فى الكتب التى سجلت الآثار والتى سبق ذكرها (١) ولقد أخذ هؤلاء العلماء ينادون لأول مرة من أنه لم يعد من سبيل للتردد فى تحديد المكان الذى يكشف فيه عن الأثر وأن يعمل الباحث على المحافظة على كل ما يعثر عليه من أشياء فى مكان تنقيبه .

ولقد برز فى ذلك الوقت اسم « أوجست ماريت» Auguste Mariette الذى لاشك فى أنه قد تميز عمن سبقوه من حيث الخبرة والهدف العلمى ولو أنه لم يكن كذلك بالنسبة إلى من أتى بعده من العلماء . لقد أظهر « ماريت » نشاطاً كبيراً فى أعمال الحفر والتنقيب نحواً من ثلاثين عاماً كشف فيها عن السرابيوم وكثير من المقابر فى سقارة ومعبد الوادى للملك خفرع فى الجيزة كما كشف عن معابد ابيدوس ومدينة هابو والدير البحرى وادفو ودندره كما يرجع إليه الفضل فى إنشاء أول متحف للآثار بمصر عام ١٨٥٩ فأبطل بذلك حجة الأوروبيين بالخروج بآثارنا على أساس أننا لا نقدرها . ولماريت فى قلوبنا

---

(١) من أهم الكتب التى ظهرت فى هذه الفترة والتى كشفت النقاب عن كثير من نواحى الحضارة المصرية وتاريخها هى :

(1) Wilkinson, Sir John Gardner; "Manners and customs of the ancient Egyptians" London 1837.

(2) Kernick, John; "Ancient Egypt under the Pharaohs" London 1856.

(3) Uhlemann, Maximilian Adolph "Three days in Memphis" Philadelphia 1858.

منزلة فنحن لا ننسى له صنيعه المشهور وذلك أنه عندما عرضت نفائس متحف بولاق فى معرض باريس عام ١٨٦٧ وطمعت الملكة « أوجينى » فى الحصول عليها عن طريق اسماعيل أحالها إلى « ماريت » قائلا : إن ثمة من هو أقوى منى فى بولاق . ورفض ماريت وأصر على رجوع التحف إلى مصر .

ولكن هذا العالم كان من ناحية أخرى شغوفاً بالبحث عن النفائس قبل كل شيء فكان ينقب وينقب وقل ان أتم عملا بدأه ما دام قد استوفى من نفائسه غايته ، كما أنه لم يعن بتسجيل التفاصيل ولم ينشر نتائج كشوفه كاملة بل ان بعضها لم ينشر إطلاقاً ، ولم يقدر فى عمله ما سوف تحتاج إليه الأبحاث المستقبلة من معلومات دقيقة عما تم الكشف عنه من آثار . واكتفى بأن أسوق هنا مثلا واحداً لأكشف عن ناحية من نواحى الضعف فى « ماريت » : أبلغ الأمير نابليون ابن عم الملك نابليون الثالث الحكومة المصرية برغبته فى زيارة مصر ففكرت الحكومة أن تقدم مفاجأة منقطعة النظير لضيفها الكبير واقترح « ماريت » أن يقوم بحفائر واسعة ليكشف عن تحف تليق بمقام الزائر ثم يعيد دفنها ويكشفها مرة ثانية أمام الأمير نابليون ووقع اختياره على جبانة الأسرة السابعة عشر فى دراع أبو النجا بالأقصر ونفذ مشروعه الغريب ونقب فى كل ركن من أركان هذه الجبانة سعياً وراء التحف دون أن يسجل أو يرسم أو يصف ما يعثر عليه ثم أهال الرمال ثانية على الجزء الذى اعتقد أنه يصلح لتمثيل المسرحية أمام الضيف الكبير — وهنا حدثت المفاجأة واعتذر الأمير عن رحلته إلى مصر ولكن هذا الاعتذار لم يمنع « ماريت » أن يعيد الحفر ويكون مجموعة نفيسة من التحف يقدمها باسم مصر إلى الضيف المعتذر ويسعى فى نفس الوقت لدى نابليون ليكون شفيعه عند خديوى مصر للموافقة على إنشاء مصلحة للآثار المصرية وأن يكون هو أول مدير لها (١) . حقيقة أن « ماريت » نجح فى مسعاه وتمكن من تنفيذ فكرته فى إنشاء مصلحة ترعى شئون الآثار وتشرف على أعمال الحفر والصيانة إلا أنه من ناحية أخرى كان من نتائج تصرفه أننا فقدنا كل

(1) Steindorff, G. & Wolf, Walther; "Die Thebanische Grœberwelt" (Leipziger Aegyptologische Studien) Heft 4 Seite 31 (Hamburg 1936).

المعلومات التى كان يمكن جمعها عن عصر هذه الأسرة المهمة فى التاريخ المصرى(١)

وعين « ماسبرو » G. Maspero خلفاً لماريت مديراً لمصلحة الآثار وكشف عن هرم اوناس وبذلك أماط اللثام عن « متون الأهرام » التى تعتبر أهم مصدر للباحثين للتعرف على العقائد المصرية ، الدينية منها والجنزية التى كانت سائدة فى الدولة القديمة وكان « ماسبرو » عالماً واسع الاطلاع متعمقاً فى بحثه لم يترك ناحية من نواحى الحضارة المصرية لم يكتب فيها ومكتبة «الدراسات الأثرية » تزخر بمؤلفاته التى تربو على المائتى والخمسين مؤلف أكثرها لا يزال مستعملا حتى اليوم من بين المراجع المهمة التى يعتمد عليها رجال الآثار . وكان « ماسبرو » أول من أباح للبعثات الأجنبية حق التنقيب فى مصر وتألفت على أثر ذلك فى لندن : The Egypt Exploration Fund

وفى القاهرة La mission archaeologique française au Caire

وكان أبرز رجال الآثار فى العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر هو فلندرز بترى الذى كان مما ذكره عن نفسه أنه نشأ أثرياً بالسليقة ومنذ صغره . حينما أتى إلى مصر لم يرتضى طريقة ماريت فى الحفر وكان عليه أن يعمل بما هو خير منها وقد فعل — إذ وضع لنفسه أسساً جديدة وهى الحرص البالغ حين الكشف وحين التجميع وتقدير أهمية كبرى لكل شىء يكشف عنه دون تفرقة بين ما هو نفيس براق وبين ما هو عادى . ولقد ترتب على الأخذ بهذا المبدأ أن أصبح لأدوات الحياة اليومية نصيب كبير من الدراسة والتمحيص . وترسم بترى أيضاً فى كشوفه احتياجات البحوث والكشوف المستقبلة ونادى بوصف كل شىء يكتشف وأن ينشر بأسرع ما يمكن ولقد ارتأى فى هذه المبادىء وحدها وسيلة الأثرى إلى كتابة التاريخ .

---

(١) لقد اضطر فى آخر الأمر العالم الأمريكى « وينلك » أن يبحث عن آثار هذه الأسرة التى تفرقت فى معظم متاحف العالم (القاهرة ولندن وباريس وبرلين وليدن) ويدرسها وينشرها فى مقاله المشهور :

Winlock, H.E. "The tombs of the Kings of the 17th Dyn. at Thebes" (in J.E.A. Vol. 10 P. 217).

وإذا كان الأثرى الألمانى Adolf Furtwaengler (١) قد أبرز أهمية الفخار الملون والمزخرف فى تأريخ فترات تطور الحضارة المسينية فيرجع الفضل إلى بترى فى إثبات أهمية الفخار الغفل من الزخرفة فى التاريخ إذا مابحث فى تفصيل وتدقيق . لقد قدر هذا الأمر أثناء كشوفه فى نقراطيس عام ١٨٨٠ (٢) ثم اختمرت لديه الفكرة وعمل على تحقيقها أثناء تنقيبه فى تل الحيسى بفلسطين عام ١٨٩٠ (٣) حيث عثر على تل يرتفع إلى ما يقرب من ٢٠ متراً ويتكون من طبقات عدة لكل طبقة منها ما يميزها من أنواع الفخار ، ثم بعد ذلك عثر فى نقاده وبلاص عام ١٨٩٤ — ٩٥ وفى « هو » عام ١٨٩٨ — ٩٩ (٤) على آثار مختلفة كل الاختلاف عما تعوده الباحثون من قبل ، فلم يكن بينها أثر مكتوب بل هى قطع صامتة . لا تعبر لكاشفها عن عصرها ، ردها أولا إلى جنس أجنبي نزل مصر فى أواخر الدولة القديمة ثم ما لبث أن تبين أنها آثار ترجع إلى ما قبل عصر الكتابة وذلك بعد أن قارنها بما نتجت عنه أبحاث de Morgan (٥) فى ذلك الحين ، فعمل بترى على أن ينطقها بترتيبها وتبويبها واستعان فى ذلك بتفاصيل المادة واللون والصناعة وكانت الاختلافات الدقيقة فى ذلك كله هى وسيلته إلى ابتداع نظرية التأريخ المتتابع الذى يمثل حضارة مصر وتطورها فى عصور فجر التاريخ (٦) — وليس من شك فى أن بترى استعان بالفخار بل اعتمد على أنواعه الغفل منها والملون كل الاعتماد فى وضع نظريته المذكورة على أنه لم يتخذ تطور أشكال الفخار كوسيلة لتأريخ

---

(1) Furtwængler und Lœschcke ; "Mykenische Vasen" 1886.

(2) Petrie, Sir William Flinders and Gardner, E.A. ; "Naukratis" part 1-2 London 1886-88.

(3) Cf. Albright, W.F. : "The Archaeology of Palestine" (Pelican) 1951. Page 29.

(4) Petrie, Flinders : "Diospolis Parva" "The cemeteries of Abadiyeh and Hu 1898-99". London 1901.

(5) Morgan, Jacques Jean Marie de ; "Recherches sur les origines de l'Egypte" Paris 1896.

(6) Petrie, Flinders ; "Methods and Aims in Archaeology " London 1904.

حضارات فجر التاريخ فى مصر فحسب وإنما خرج به إلى عقد التواريخ المقارنة بين الحضارة المصرية وغيرها من حضارات الأمم المتاخمة .

ومن أهم الكشوف التى حدثت فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تلك المجموعة الكبيرة من أوراق البردى التى عثر عليها بترى فى اللاهون (١) وتتكون من برديات طبية بعضها يبحث فى أمراض النساء وأخرى تبحث فى الطب البيطرى « علاج أسنان وعيون الكلاب والعجول » (٢). ثم وجد بينها أيضاً رسائل أدبية وتعليمية وبقايا بردية رياضية ونشيد باسم سنوسرت الأول .

وفى هذه الفترة أيضاً عثر « كويبل » على مقبرة تقع أسفل أحد المخازن الخلفية الملحقة بمعبد الرامسيوم بطيبة ووجد فيها صندوقاً خشبياً ملىء إلى حوالى ثلثه ببرديات مختلفة تمزق أغلبها ولكن أمكن التعرف منها على :

١ – البردية الجغرافية المعروفة باسم Ramesseum Onomasticon (٣).

٢ – طقوس حفل تتويج سنوسرت الأول (٤) .

٣ – أجزاء من قصتى سنوهى والفلاح الفصيح (٥) .

٤ – رسائل من سمنه وغيرها من الحصون الجنوبية لها قيمتها فى التعرف على شئون الإدارة فى الجنوب .

ونحن لا ننسى أيضاً ما ترتب على كشف أرشيف تل العمارنة الذى حوى رسائل على جانب كبير من الأهمية التاريخية إذ أنها تكشف القناع عما كان يجرى فى الشرق القديم من تنازع قوى بين مصر وبلاد الحيثيين . ولقد عثر على هذه

---

(1) Petric, Flinders ; "Illahun, Kahun and Gurob" 1889-90.

(2) Griffith, "Hicratic papyri from Kahun" 1898.

(3) Gardiner, Alan H. "Ancient Egyptian Onomastica" 2 vol. Oxford 1947.

(4) Sethe, Kurt ; "Dramatischa Texte zu Altaegyptischen Mysterienspielen" .Leipzig 1928.

(5) A :— Gardiner, Alan Handerson ; "Die Erzahlung von Sinuhe und die Hirtengeschichte" Leipzig 1909.

B :— Vogelsang, Friedrich ; "Kommentar zu den Klagen des Bauern" Leipzig 1913.

الرسائل عام ١٨٩٠ فى أطلال مدينة تل العمارنة ويبلغ عددها ما يقرب من ٣٠٠ رسالة وكتبت بالخط الاسفينى على لوحات من الطمى المجفف وتمثل لنا الخطابات الرسمية المتبادلة بين ملك مصر وملوك بابل ونينوى وميتانى وقبرص وكذلك أمراء الولايات المصرية فى سوريا وفلسطين وللأسف أهمل أمر هذه اللوحات فى البداية نظراً للشكوك التى أحاطت بقيمتها ثم عرفت بعد ذلك قيمتها العلمية وقام بنشرها العالم الألمانى «كنودسون» (١) فى مستهل القرن العشرين .

ونذكر أيضاً ذلك الكشف الكبير الذى حدث فى أواخر القرن التاسع عشر وتمخض عن العثور على أعداد ضخمة من الموميات الملكية التى حرص أحد فراعنة الأسرة العشرين على إيداعها مخبأ أميناً بمنطقة الدير البحرى (٢) فكان فى الكشف عنها مادة لا تقدر لأبحاث علماء الآثار من ناحية وعلماء الطب والتشريح من ناحية أخرى (٣) .

ومنذ أول القرن العشرين زادت الأبحاث العلمية والكشوف الهامة فى مصر ولعل من أهم الأحداث التى وقعت فى مستهله هو ذلك الاجتماع العلمى الذى عقد فى فندق مينا هاوس فى نوفمبر عام ١٩٠٢ وحضره ماسبرو ورايزنر وبورخاردت وسكاباريللى وقسموا جبانة الجيزة إلى مناطق مختلفة خصصت كل منطقة لأعمال الحفر العلمى لإحدى البعثات العلمية الآتية :—

1. The Hearst Egyptian Expedition of the University of California.
2. The Sieglin Expedition of the University of Leipzig.
3. The Expedition of the Turin Museum.

ومنذ عام ١٩٠٧ تولت الكشف فى تل العمارنة البعثة الألمانية للدراسات الشرقيــة Die deutsche Orient Gesellschaft وانتهت أعمالهــا هناك بقيام الحرب العالمية الأولى وأعقبتها بعثة Egypt Exploration Society

(1) Knudtzon, J.A. ; "Die El-Amarna-Tafeln". Leipzig 1915.

(2) Maspero, G. ; "Rapport sur la trouvaille de Dier-el-Bahari" (Institut Egyptien. Bulletin, Le Caire 1883).

(3) Smith, Elliot and Dawson, Warren ; "Egyptian Mummies" London 1924.

وفى نهاية الربع الأول من القرن العشرين كشف معول الحفار عن مقبرتين كان لهما أكبر الأثر فى زيادة ما نعرفه عن حضارة عصرين من أهم عصور التاريخ المصرى : الأولى هى مقبرة « حوتب — حر — اس » أم الملك خوفو عثر عليها رايزنر فى الجبانة الشرقية الواقعة إلى الشرق من الهرم الأكبر (١) والثانية هى مقبرة الملك « توت عنخ أمون » أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر (٢) وممن تولوا أمر مصر فى أعقاب حركة التوحيد التى قام بها أخناتون .

ويمتاز القرن العشرون فى مصر بالدراسات الشاملة التى هدفت إلى التعرف على حضارات عصور فجر التاريخ ومدى ما وصل إليه المصرى من تقدم فى مدنيته فى تلك العصور التى سبقت مينا بآلاف السنين خاصة ولأن كتب التاريخ التى نشرت فى أوائل القرن العشرين لم تذكر عن عصور فجر التاريخ فى مصر إلا القليل من المعلومات التى قامت على أبحاث كل من « دى مورجان » و « فلندرز بترى » .

حفر « يونكر » (٣) فى غرب الدلتا فى منطقة مرمدة بنى سلامه وعثر على حضارة ردها إلى العصر الحجرى الحديث ثم قامت « كيتون تمسون » و « جاردنر » خلال السنوات ١٩٢٤ — ١٩٢٨ بأبحاث فى منطقة الفيوم (٤) انتهت بتقسيم حضارتها إلى فترتين : فيوم ا ، وفيوم ب — ردت الأولى إلى حوالى ٥٠٠٠ ق . م والثانية إلى ٤٥٠٠ ق . م . وقامت حفائر المعادى بإشراف مصطفى عامر ومنجين (٥) وأرخت فى أول الأمر بالعصر الحجرى الحديث

---

(1) Reisner, G. and Smith, W. S. ; "A History of the Giza Necropolis" Vo. II. The tomb of Hetep-Heres. (Harward Univ. Press 1955).

(2) Carter, Howard ; "The Tomb of Tut-Ankh-Amen".

(3) Junker, H. ; "Vorberichte uber die Grabung auf der Neolithischen Siedlung von Merimde — Benisalama" in Anzeigen der Wiener Akademi der Wissenchaften (Hist. Klasse) 1929-34.

(4) Caton Thompson and Gardner ; "The Desert Fayum" 2 vol. London 1934.

(5) Menghin, O. and Amer, M. ; "The excavations of the Egyptian University in the neolithic site at Maadi" Cairo 1936.

ثم ردت بعد ذلك إلى أواسط عصر ما قبل الأسرات أى تكون معاصرة لحضارتى جرزة والسمانية . وقام العلامة « بوفيه — لابيير » (١) بأبحاثه فى منطقة العباسية وبدراساته على الظران الذى عثر عليه فى منطقة العمرى كما حفر « دى بونو » (٢) فى منطقة حلوان .

أما فى مصر العليا فقد قامت المدرسة الانجليزية للآثار فى مصر ، بكشوفها فى البدارى وفيما حولها بين ١٩٢٢ — ١٩٢٥ فاكتشف « برنتون » جبانات البدارى وعملت « كيتون تمبسون » فيما بين قاو والبدارى وصدرت نتائج بحثهما فى مؤلف واحد (٣) اعتبرت فيه حضارة البدارى سلفاً لحضارات ما قبل الأسرات فى مصر العليا .

ثم واصل « برنتون » كشوفه فى مصر الوسطى وعثر فى دير تاسا قرب نزلة المستجدة (٤) على قرية وجبانة ردهما إلى حضارة تسبق عصر حضارة البدارى وقام « فينيارد » فى نجع حمادى بحفائر بالقرب من قرية « السبيل » (٥) وأثبت أن حضارتها « السبيلية » ترجع إلى العصر الحجرى الحديث .

وعلى أساس ما كشف فى الوجهين من حضارات فجر التاريخ اتجه البحث إلى تقصى نشأة هذه الحضارات وقامت نظريات متعددة عن أصولها . وكان بترى قد قسم حضارات فجر التاريخ (أو حضارات نقاده) فى الصعيد ومصر الوسطى إلى ثلاث مراحل (٦) .

---

(1) Bovier Lapierre ; "L'Egypte Préhistorique" (dans Précis de l'histoire d'Fgypte).

(2) Debono ; "Heluan" (Chronique d'Egypte No. 41. Bruxelle 1946).

(3) Brunton and Caton Thompson ; "The Badarian Civilisation and Predynastic remains near Badari". London 1928.

(4) Brunton ; "Mostagedda and the Tasian Culture" London 1937.

(5) Vignard, M.E. ; "Une nouvelle Industrie Lithique, le Sebilien" Bull. de L'Institut Franc. D'Arch. Orientale Vo. XXII 1923 (P. 1-76).

(6) Petrie, Flinders ; "Prehistoric Egypt" London 1920.

١ — « العمرة » وتشغل ما بين ٣٠ و ٣٨ من توقيته المتتابع وتمثل بداية عصور فجر التاريخ المبكرة بالنسبة إلى عصر ما قبل الأسرات .

٢ — « جرزه » وتشغل ما بين ٣٩ و ٦٣ من توقيته المتتابع وتمثل أواسط هذه العصور .

٣ — « سماينة » وتشغل ما بين ٦٤ و ٧٨ من توقيته المتتابع وتمثل أواخر هذه العصور ثم أدت كشوف حضارات البدارى وتاسا إلى شغل ما قبل المرحلة ٣٠ من توقيت بترى المتتابع فأصبح لعصر فجر التاريخ المصرى عقد متصل يبدأ من تاسا وينتهى إلى عصر الأسرات وتشغله فيما بين ذلك حضارات البدارى والعمرة وجرزة وسماينة .

ولقد جرت محاولات لادماج حضارات فجر التاريخ فى الوجه البحرى فى هذا العقد لخصها « تشايلد »[1] وسليمان حزين[2] وباومجيرتل[3] وهذه المحاولات يأخذ بها البعض وينفيها البعض الآخر .

وهكذا قامت البعثات المختلفة بكشوفها المتتالية فى المناطق التى عاش فيها المصرى الأول وكثرت التفسيرات وتعددت النظريات الخاصة بالتأريخ الخاص بتتابع حضارات هذا العصر وأصبحنا الآن على استطاعة من أن ندرس فتراته ونتحدث طويلا على مدى تطور حضارات المصرى الأول منذ أن ظهر فى أرض مصر حتى استطاع أن يبدأ عصره التاريخى حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م وهو العصر الذى نعتمد لتأريخه على وثائق وأسانيد مكتوبة .

٣ — الكشوف الأثرية فى العراق :

هذا ما كان من أمر الكشوف الأثرية فى مصر ومدى ما أثرت به على إعادة كتابة التاريخ المصرى الذى كان علماء القرن التاسع عشر يبدونه بالأسرة

---

(1) Childe, G. ; "New Light on the most Ancient East" 1935.

(2) Huzein, Soliman ; "The Place of Egypt in Prehistory" (Mem. présenté à l'Institut d'Egypte, T. 43). 1941.

(3) Baumgartel, E.T. ; "The Cultures of Prehistoric Egypt" 1947.

الرابعة بينما نستطيع الآن أن نسرد تاريخنا منذ أن سكن المصرى الأول وادى النيل حتى يومنا هذا . وهذه السلسلة الطويلة من الأحداث التاريخية والتطورات المختلفة التى مرت فيها الحضارة المصرية لا تكاد تنقطع بين أيدينا إلا مرات لا يتعدى عددها أصابع اليد الواحدة .

وهذه المراحل التى ذكرناها عن تاريخ الكشوف الأثرية فى مصر تكاد تتشابه مع المراحل التى مرت بها الكشوف الأثرية فى بقية مناطق الشرقين الأدنى والأوسط .

لقد كان فيما أتت به قصص التوراة عن بلاد ما بين النهرين وفلسطين وعن مجدهما القديم ما أثار تطلع الباحثين والمغامرين معاً . وبدأ اهتمام الأوروبيين بآثار بلاد ما بين النهرين ومحاولة قراءة الكتابة الاسفينية (المسمارية) بأنواعها المختلفة مجهودات فردية .

ولعل أول محاولة لوصف الآثار القائمة فوق سطح الأرض هى تلك التى قام بها القنصل البريطانى « ريتش » فى رحلاته المتعددة التى طاف إبانها مناطق العراق القديم فيما بين ١٨١١ و ١٨٢٠ ونشر نتائجها فى أكثر من كتاب[١] ظهر بعضها بعد وفاته .

أما محاولة قراءة الكتابة الاسفينية فقد بدأت قبل ذلك وهى ترجع إلى عام ١٧٦٥ حين قام العالم الهولندى Karsten Niebuhr بزيارة أطلال مدينة « برزوبوليس » ونسخ بعضاً من النصوص القديمة ثم تبعه الأب Abbé de Beauchamp عام ١٧٨٠ فوصف بعضاً من اللوحات الطمبية المنقوشة بالخط الاسفينى والتى تداولتها يده أثناء إقامته فى بغداد ثم نجد العالم الألمانى Grôtefend نجح فى قراءة أسماء ثلاثة من الملوك التى وردت فى النصوص

(1) Rich. Claudius James, (appointed as British Resident in Baghdad in 1808).
A. "Memoirs on the Ruins of Babylon" London 1815.
B. "Second Memoirs on Babylon" London 1818.
C. "Narrative of a Residence in Koordutan and on the Site of Ancient Nineveh, with journal of a Voyage down the Tigris to Baghdad, and an account of a Visit to Shiraz and Persepolis" London 1836.

التى كان « نيبور » قد نشرها ولم يلبث أن تمكن من الوصول إلى قراءة ما يقرب من ثلث النصوص السالفة الذكر وتقدم عام ١٨٠٢ ببحث مستفيض عن قراءاته هذه إلى الأكاديمى الألمانية بجوتنجن التى رفضت قبوله ونشره وظل هذا البحث فى طى النسيان حتى نشر عام ١٨٩٣ لقيمته التاريخية فحسب (١) .

وإذا كان « جروتفند » قد فشل فى نشر نتائج قراءاته فنجد أن عالماً آخر يبدأ محاولات أخرى فى عام ١٨١٠ وهو « سير هنرى رولنسن » فيقوم بنقل نصوص « باهستان » التى نرجعها إلى عصر داريوس (٥١٦ ق . م) وهى نصوص نقشت على واجهة جبل عال على ارتفاع ما يقرب من ١٥٠ متراً . واعتمد « رولنسن » فى عمله المضنى هذا على صبى كردى كان عليه أن يبقى طوال يومه معلقاً بين السماء والأرض يعتمد بأصابع قدميه على شق بالجبل ويشد خصره بحبل يتأرجح به ليأخذ من « رولنسن » تارة أوراقاً بيضاء ليطبع عليها النقوش بطريقة الضغط ثم لا يلبث أن يعطيه إياها ليأخذ غيرها .

وتميز « رولنسن » بمعرفته لعدد من اللغات الشرقية يسرت له النجاح فى قراءة الفقرتين الأولى والثانية من نصوص باهستان التى كتبت باللغة الفارسية القديمة وبالخط الاسفينى ونشر نتائج بحثه فى عام ١٨٣٧ (٢) ثم نشر ترجمة كاملة للنص مع بعض الملاحظات القيمة عن قواعد اللغة عام ١٨٤٦ (٣) .

واستمر « رولنسن » فى أبحاثه من نصر إلى نصر حتى عام ١٨٥٧ حين أرسل إلى المتحف البريطانى ترجمة نص ورد على حجر اسطوانى الشكل من عصر الملك تيجلات ــ بلاتسزر الأول وهنا أراد رجال المتحف أن يتعرفوا على مدى صحة هذه الترجمة فأرسلوا بالنص إلى أكثر من عالم عرفوا بدراساتهم لهذه اللغة على أن يرسل كل منهم بترجمته إلى الجمعية الملكية للدراسات الأسيوية

---

(1) Parrot, André ; "Archaéologie Mésopotamienne : Les Etapes" Paris 1946.

(2) Rawlinson, Sir Henry Creswicke ; "Inscription at Behistun" Journal of the Royal Asiatic Society 1837 and 1839.

(3) Rawlinson, Sir Henry Creswicke ; "The Persian Cuneiform Inscription at Behistun" London 1846 (2 vols.).

واجتمعت لجنة مكونة من العلماء « ويلكنسون » و « جاردنر » و « ملهان » وغيرهم وقارنوا التراجم المختلفة وقد بلغت فى تشابهها حداً جعلهم يجهرون بأن جهود علماء اللغة قد نجحت تماماً فى قراءة الخط الاسفينى .

وفى الوقت الذى كانت مصر قد تخلصت من أدعياء البحث الأثرى أو ناهبى القبور فى منتصف القرن التاسع عشر نجد أن هذه المرحلة قد بدأت فى بلاد العراق على يد نفر من المغامرين .

وكان أشهر هؤلاء هو « بوتا » (١) الذى يعتبر أول من قام بأعمال الحفر والتنقيب فى بلاد العراق . عينته فرنسا قنصلا لها فى الموصل ويغلب على الظن أن تعيينه قد تأتى كنتيجة للاهتمام البالغ الذى تفشى بين العلماء الفرنسيين المستشرقين بآثار بلاد العراق وهو ذلك الاهتمام الذى نما بعد أن نشر « جيمس ريتش » كتابيه السالفى الذكر عن آثار بلاد ما بين النهرين .

بدأ « بوتا » حفائره فى مدينة نينوى (٢) عام ١٨٤٢ وتتكون هذه المدينة من عدة تلال أثرية أهمها تل « قيونجيك » وتل « النبى يونس » واتجه فى أول الأمر إلى التل الثانى إلا أنه اضطر أن يتحول إلى تل « قيونجيك » نظراً لأن « تل النبى يونس » كان يقوم على قمته مسجد إسلامى . ويبدو أن نتائج حفائره لم ترضه فهو كان يبحث عن التحف والنفائس ولم يلبث أن سمع بأخبار العثور على بعض التماثيل فى « خورساباد » إلى الشمال من « نينوى » فاستهوته هـــذه الأخبار وسارع إلى « خورساباد » عام ١٨٤٣ حيث عثر على بقايا قصر أشورى وأعلن على الملأ أنه وفق إلى أطلال مدينة نينوى القديمة (٣) . ولقد كان لهذا الكشف دوى عظيم فى فرنسا واضطرت الحكومة الفرنسية تحت ضغط

---

(1) Paul-Emile Botta.

(٢) كانت بلاد أشور تحوى ثلاث مدن كبرى شهرت فى التاريخ وهى : أشور ونمرود ونينوى . تقع الأولى على بعد ٥٠ كيلومتراً إلى الجنوب من الموصل والثانية على بعد ٣٥ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقى منها بينما نينوى تقع على شاطىء نهر الدجلة قبالة مدينة الموصل .

(٣) ولم تكن « خورساباد » فى حقيقة الأمر إلا مدينة « دور شاروكين » القديمة مركز الملك « سارجون الثانى » أحد ملوك آشور المهمين الذى عاش فيما بين عام ٧٢١ و ٧٠٥ ق . م وكان قصره هو ذلك المبنى الذى عثر عليه بوتا .

المستشرقين الفرنسيين أن ترصد مبلغاً من المال للصرف على نشاط « بوتا » فى العراق وصدرعام ١٨٤٩ كتاب ضخم من خمسة مجلدات [١] وصف فى الجزء الأول منه القصر المكتشف فى « خورساباد » وسجل فى الأجزاء الأربعة الأخرى رسوماً لمنطقة الحفر ولأجزاء المبنى من رسم الفنان Flandin الذى كان قد استدعاه لتسجيل الأثر ورسم أجزائه .

وفى نفس هذا الوقت كان « ليارد » [٢] مبعوث المتحف البريطانى يحفر فى نمرود ووفق فيما بين ١٨٤٥ إلى ١٨٤٧ إلى الكشف عن قصور ملكية ثلاث : الأول للملك « أشور – ناصر – بعل » (٨٨٣ إلى ٨٥٩ ق . م) والثانى « لأشور أخى الدين » (٦٨٠ – ٦٦٩ ق .م) والثالث « لشالمنصر الثالث » (٨٥٨ – ٨٢٤) ولقد نشرت نتائج حفائره فى كتابين [٣] مقتنعاً أن نمرود هذه هى مدينة نينوى بالذات .

على أن التقدم السريع الذى أصابه العلماء فى حل رموز الكتابة الاسفينية فى ذلك الحين جعل « لايارد » يدرك أن « نمرود » ليست « نينوى » ولا نلبث أن نراه يحفر فى عام ١٨٤٩ فى منطقة نينوى نفسها أى فى تلى « النبى يونس » و « قيونجيك » وكان أهم كشوفه هو العثور عام ١٨٥١ على قصر « سنحريب » ومكتبته العامرة بآلاف اللوحات المكتوبة وقد عثر عليهما فى تل « قيونجيك ».

وكان من نتائج تنقيبات كل من « بوتا » و « لايارد » أن تدفقت التحف الأثرية فى المتحف البريطانى واللوفر وترتب على عرض النفائس التى أرسلها « لايارد » إلى المتحف البريطانى وذيوع مؤلفاته عنها أن منحته جامعة اكسفورد الدكتوراه وهو فى سن الحادية والثلاثين . ولكن هذا اللقب العلمى لم يخلع عليه صفة الباحث الأثرى . ويتضح أمر هذا التناقض إذا عرفنا الطريقة التى اتبعها فى عمله . لقد كتب يصف أعماله فى « نمرود » قائلا : إن هدفى هو استخراج أكبر عدد ممكن من القطع الفنية السليمة فى أقصر وقت ممكن وبأقل كلفة .

---

(1) Botta et Flandin ; "Monuments du Ninève" Paris 1849-50)

(2) Sir Austen Henry Layard.

(3) A.—Layard, A.H. "The Monuments of Nineveh" London 1849.
B.—Layard, A.H. "Nineveh and its Remains" London 1849.

والواقع أن أحداً من أثريي القرن التاسع عشر لم يسلم من نقد أخلافه . فبرستد (Breasted) انتقد الطريقة التي اتبعها « لايارد » في تنقيبه في تل « قيونجيك » وقال عنها أنها تفتقر إلى الخبرة العلمية كما هاجم العالم الأمريكي « هيلبرشت » (Hilprecht) الطريقة التي تمت بها الكشوف في بلاد ما بين النهرين قبل أن يشترك هو في الحفائر التي قامت في « نيبور » — في حين هاجم « بدج » (Budge) « هيلبرشت » نفسه فيما قام به من نشاط في حفائر « نيبور » بالذات وقال أنها تفتقر إلى كل مظهر للحفر العلمي .

وعلى كل حال يمكن أن نفسر هذا النقد المستمر لكل ممن اشتغل بالآثار ضد من سبقوه من العلماء بأنه دليل حيوية وانه كان باستمرار الدافع القوي الذي خطا بالعلم وبهذه الدراسات بعينها نحو الأمام . ويجب علينا في نفس الوقت أن نعترف بأن أثريي القرن التاسع عشر كانوا يعملون في أرض شبه بكر وبوسائل محدودة كما أنهم كانوا مضطرين أن ينتهجوا نهج « لايارد » باستخراج أكبر عدد ممكن من القطع الفنية السليمة في أقصر وقت ممكن وبأقل كلفة حتى يشبعوا نهم المتاحف الأوروبية من ناحية وليرضوا الأثرياء الذين حرصوا على تكوين مجموعات أثرية خاصة . على أنه من المعروف أن أثريي بلاد العراق بالذات كانوا أكثر جناية على آثارها من أضرابهم الذين عملوا في مصر . إذ حافظت رمال الصحراء المصرية وجفاف مناخها على آثار المصريين القدماء المطمورة فيها كما كفل البناء بالحجر الصلد مقابر مبانيهم بينما كان الأمر على عكس ذلك في بلاد العراق مما كان يستلزم من أثريها علماً كافياً بطرق وقاية الآثار والمحافظة عليها في حين افتقر الرعيل الأول منهم إلى هذا العلم تماماً بحيث كثيراً ما كانت الآثار القيمة تتفتت وتتلاشى بمجرد تعرضها للهواء وأشعة الشمس تساوت في ذلك الخوذات والأواني النحاسية والأسلحة والمناظر الملونة على الجص فضلا عن المباني المشيدة من اللبن والطوب المحروق .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحولت الكشوف الأثرية في بلاد العراق إلى الجزء الجنوبي منها وكان في ذلك خطوة مؤذنة بكشف حضارة السومريين ولعل سبب هذا الاهتمام يرجع إلى أن الدراسات اللغوية التي قام بها

« رولنسن » وبعض من زملائه انتهت إلى إثبات صلات واضحة بين اللغات الثلاث التي كتب بها « داريوس » حولياته وانتصاراته في « بيهستون » وهي اللغة الفارسية القديمة واللغة العيلامية واللغة الأكدية . وأن الأخيرة هي أقدم اللغات الثلاث وأكثرها تعقيداً ومنها اشتقت العيلامية والفارسية وأن النقوش الأشورية التي أظهرتها كشوف « لايارد » الإنجليزي و « بوتا » الفرنسي قريبة هي الأخرى من اللغة « الأكدية » التي ثبت أنها أيضاً ذات أصل سامي قريب من اللغة العبرية والعربية ، غير أن اللغوي « هنكس » (Hinks) أكد أن البابليين أصحاب اللغة السامية لا يمكن أن يكونوا هم مبتدعي الكتابة الاسفينية ، ولابد أن تكون هذه الكتابة من نتاج شعب أقدم — فكان على الأثريين منذ ذلك الوقت أن يتعرفوا على هذا الشعب الأقدم .

في عام ١٨٧٠ صرح عالم الآثار « أوبرت » (Oppert) بعد أن كشف النقاب عن بعض معالم مدينتي كش وبابل أن هذا الشعب هو شعب « سومر » . ثم استمرت الأعمال تجرى للكشف عن المناطق الجنوبية ووفق « تيلور » (Taylor) القنصل الإنجليزي في البصرة إلى الكشف عن « أور » وكشف « لوفتوس » (Loftus) عن الوركاء موطن جلجمش السومري ، على أن الفصل في قضية الحضارة السابقة للبابلية يرجع إلى كشفين مهمين : أولهما ذلك النص الذي عثر عليه « رسام » (١) في منطقة « أبي حبا » والذي يقص كيف أن الملك « نابونيد » (٢) — وهو آخر ملوك بابل (من ٥٥٥ إلى ٥٣٨ ق . م) الذي هزمه كيروس الفارسي واستولى على بلاده — أراد أن يتحرى منشيء معبد شمش فحفر فيه إلى عمق ستة أمتار حتى وصل إلى حجر الأساس وتبين منه أن منشئه هو « نارامسين بن سارجون الأكدي » (٣) .

---

(١) كان « رسام » عراقي من الموصل عمل فترة طويلة مع « لايارد » في مناطق الحفر ثم مالبث رسام بعد أن تجنس بالجنسية الإنجليزية أن عمل بمفرده لحساب المتحف البريطاني — ولقد حذا حذو أستاذه في طرق الحفر التي لا يستهدف غير استخراج النفائس في أقصر وقت وبأقل التكاليف .

(2) Scharff, A und Moortgat, A. ; "Aegypten und Vorderasien im Altertum" P. 453-55 (München 1950).

(٣) ولابد لنا أن نسجل هنا أن هذه كانت أول محاولة في التاريخ لكشف أثري .

أما الكشف الثانى المهم فقد كان ما عثر عليه « أرنست دى سارسيك » «Ernest de Sarzec» فى « تلو » من آثار فى حفائره التى قام بها فيما بين عام ١٨٧٧ و ١٩٠٠ إذ اتضح أنها « لجش » السومرية وقد أخرج منها كنوزاً من تحف رائعة للفن السومرى من بينها تلك التماثيل التى تمثل « جوديا » الحاكم السابع للجش . وفى آخر الأمر عثرت البعثة الأمريكية فى حفائرها منذ ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ فى « نيبور » على معبد الإله « انليل » أكبر مراكز الحج السومرية كما عثرت هذه البعثة على ما يقرب من الخمسين ألف لوحة كتب أغلبها باللغة السومرية وتضمنت من الأدب السومرى ومن الحقائق التاريخية ما هو نتاج أكثر من عشرة قرون .

وكان القرن العشرون بالنسبة إلى الكشوف الأثرية فى بلاد العراق مثله فى ذلك مثل ما كان بالنسبة إلى مصر هو قرن الدراسات الخاصة بعصور فجر التاريخ . بدأته بعثة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية Die Deutsche Orient Gesellschaft بداية مجيدة . وكان هدف رجال هذه الجمعية ينحصر فى العمل على إتمام كشف كامل لأطلال مدينة قديمة ، مع بحث قطاع من تل أثرى وذلك للتعرف على تتابع طبقاته ودراسة ما تحويه كل طبقة من المخلفات البشرية وأدوات حضارة إنسانها على حدة دراسة كاملة . لقد نفذ هذه الطريقة « والتر أندريه » «Walter Andrae» فى حفائره (١) التى قام بها للكشف عن مدينة « أشور » أول عاصمة للوطن الأشورى وبقى ينقب هناك من ١٩٠٣ إلى ١٩١٤ ، وبعد أن كشف عن معبد « عشتارته » نفذ إلى أساساته وبحث ما احتضنته الأرض من أسفله فعثر على أبنية أخرى انتهت فى آخر الأمر بمعبد عتيق يرجع إلى العصور الأولى من الحضارة السومرية . فكان لهذا العمل أهميته الكبرى بالنسبة إلى تتبع فترات ظهور حضارة بلاد العراق القديم منذ أول عصورها ، كما أنه وضع الأسس الأولى

---

(1) Andrae, Walter ; "Das wiedererstandene Assur" (9. Sendschrift der Deutschen Orient Gesellschaft 1936).

التى قامت عليها الدراسات المقارنة للطبقات المتتابعة والتى تحوى آثاراً ترجع إلى عصور مختلفة .

وقامت فى نفس الوقت بعض البعثات الأخرى بكشوف فى مناطق مختلفة اتبع أصحابها طريقة الألمان العلمية فى البحث والتنقيب فكشف « بانكس » القنصل الأمريكى عن مدينة « اداب » القديمة [١]، كما نقب « كنج » باسم المتحف البريطانى فى « قيونجيك » وحفر « دى جنيواك » (de Genouillac) فى « كش » .

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى توافدت البعثات على بلاد العراق وزاد النشاط العلمى وكشف معول الحفار عن مناطق مختلفة من مراكز الحضارة السومرية القديمة فعثر « هول » (Hall) على مدينة « العبيد » غربى « اور » ووفق إلى معبد صغير يعتبر بمثابة الأصل العتيق للأسلوب المعمارى الذى تطور إلى أن وصل إلى الأسلوب المتأخر للمعبد السومرى المعروف باسم «زيجورات»[٢] كما أسهم « وولى » بنصيب وافر فى الكشف عن « اور » [٣] حيث عثر عام ١٩٢٦ على مقابر ملكية فاقت محتوياتها كل ما انتظره العلماء لدقتها وتقدم فنها وكان للكشف عن كنوزها من الوقع ما كان لاكتشاف كنوز « توت عنخ آمون » . وفى « العبيد » كشف « وولى » عن مبنى سجل على حجر الأساس فيه : أن الملك « أ — أنى — بدا » بن « مس — أنى — بدا » ملك « أور » هو الذى شيد معبد « نين — خورساج » . ونظراً لأن هذين الاسمين كان العلماء قد عرفوهما من قوائم الملوك . لذلك اعتبر هذا المعبد بمثابة أول مبنى عثر عليه الأثريون متصلا اتصالا وثيقاً بشخصيتين تاريخيتين [٤] .

---

(1) Banks, E.J. ; "Bismaya, or the Lost City of Adab" 1912.

(2) Hall, H.R. and Woolley, L. ; "Al-Ubaid" 1937.

(3) Woolley, L. "Ur of the Chaldeans" 1929.

(٤) قام « هول » و « وولى » بنشر نتائج كشوفهما فى كل من « العبيد واور » فى كتاب كبير من ستة أجزاء اشترك فيها أكثر من عالم وهذه الأجزاء هى :

Vol. I Hall and Woolley "Al-Ubaid" 1937.

Vol. II Woolley "The Royal Cemetery" 1934, 2 volumes.

Vol. III Legrain "Archaic Seal Impressions" 1936.

Vol. IV. Gadd and Legrain "Royal Inscriptions' 1935 2 volumes.

Vol. V Borrows "Archaic Texts" 1935.

Vol. VI Woolley "The Ziggurat and its Surroundings" 1938.

وعلى نحو ما لعبت أنواع الفخار المصرى دورها فى توقيت فترات فجر التاريخ فى مصر ، كذلك لعبت أنواع الفخار فى بلاد العراق والطبقات التى وجدت فيها دوراً كبيراً فى توقيت عصور فجر التاريخ وتتابعها هناك .

ولقد أعلن فى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى « ليدن » عام ١٩٣١ أن بلاد العراق القديم مرت فى ثلاث فترات إبان عصر فجر التاريخ وهى :

(أ) « العبيد » وتؤرخ من ٤٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ ق . م .

(ب) « أوروك » وتؤرخ من ٣٥٠٠ إلى ٣٢٠٠ ق . م .

(ج) « جمدة نصر » وتؤرخ من ٣٢٠٠ إلى ٢٨٠٠ ق . م .

غير أن توالى الكشوف فى البلاد أدى إلى إضافة فترتين سابقتين : الأولى تعارف العلماء على تسميتها فترة « تل حلف » ، والثانية وهى ما سماها مكتشفها « كامبل تومبسون » باسم « ما قبل الحلافية » ــ إلا أنه قد ظهر من كشوف السيد « فؤاد صفر » فى « تل حسونه » عام ١٩٣٤ (جنوبى نينوى) أن حضارتها مطابقة لما سمى بما قبل « تل الحلافية » ــ وبهذا أصبح من الميسور الآن تقسيم فترات فجر التاريخ فى بلاد العراق القديم إلى الحضارات الآتية :ــ

١ ــ حسونة   ٢ ــ تل حلف   ٣ ــ العبيد

٤ ــ أوروك   ٥ ــ جمدة نصر .

٤ ــ « شليمان » والبحث عن « طروادة » :

لم تكن أصداء الكشوف فى مصر والعراق هى كل ما دوى فى القرن التاسع عشر ، وإنما كان لكشوف طروادة وجزر الأرخبيل دوى عظيم كذلك . ولقد شهدت هذه المنطقة منذ الربع الأول للقرن أبحاثاً مختلفة لفريق من الجيولوجيين والأثريين لها أهميتها ، غير أن الأثر الأكبر كان بلاشك للكشوف الهامة التى قام بها « هينرش شليمان » الذى يعتبره الكثيرون بمثابة المكتشف الأول لآثار عصر ما قبل تاريخ الاغريق .

وفى الواقع يعتبر « شليمان » أثرياً بالسليقة ، لم يذهب إلى الأناضول لكى يكتشف آثاراً يزود بها متحفاً من المتاحف أو ليزيد من ثروته أو لأنه

كان هاوياً يحب جمع الآثار ليزين بها قصره — لقد كان « شليمان » يبحث وراء هدف معين بالذات ألا وهو الكشف عن « طرواده » والعثور على بقاياها مهما كلفه ذلك من مشقة أو مال .

يصف شليمان فى مقدمة كتابه « دراسات أثرية » (١) الفترة الأولى من بحثه عن « طرواده » فيقول انه اتجه عام ١٨٦٨ إلى الشرق ليبحث عن حلمه الذى عاش معه منذ الطفولة أى عن « طرواده » فنزل فى قرية صغيرة اسمها « بونارباشى » (٢) اعتقد معظم العلماء فى ذلك الوقت أنها تقوم على أطلال المدينة القديمة وبنوا هؤلاء نظريتهم هذه على أساس أن سطوح منازلها تعج بأعشاش الطائر « اللقلق » (أى الوز العراقى) كما أن بها حتى الآن غديران (أو نبعان) ينطبق عليهما ما ورد فى « الالياذة » (٣) من وصف لمدينة طروادة والنبعين الذين ينسابا فيها أحدهما يحوى ماء ساخناً بينما الثانى مياهه باردة مثلجة .

ولكن « شليمان » لم يجد فى هذه القرية ضالته المنشودة إذ أنها تبعد عن الشاطىء بمسيرة ثلاث ساعات فى حين ذكر « هومير » عن أبطاله انهم كانوا يتنقلون أكثر من مرة فى النهار الواحد بين سفنهم وبين قلعة المدينة ، وضعف أمله تماماً عندما أراد زيارة النبعين السالفى الذكر فاذا به يجد ستة وثلاثين نبعاً عدها بنفسه ثم فوجىء بالمرشد الذى كان يلازمه يؤكد له أنه قد أخطأ فى العدد لأن هذا المكان به أربعون نبعاً وأن الناس يطلقون عليه اسم « كيرك جيوز » أى « الأربعون نبعاً » . ومع هذا كله حاول « شليمان » أن يتحقق مما ورد فى « الإلياذة » وأسرع بشراء « ترمومتر » وأخذ يختبر بنفسه درجة حرارة كل نبع فوجد أنها جميعاً متماثلة ولا تزيد درجة حرارتها عن السبعة عشر درجة غير هذا وذاك لا حظ أيضاً أن التل هناك لا يحوى قطعة واحدة من الفخار المهشم ولقد قرأ أن جميع المدن القديمة تترك وراءها أكواماً لا حصر لها من الفخار المهشم .

---

(١) Schliemann, Heinrich "Archaologische Forschungen" 1869.

(٢) «بونارباشى » قرية تقع على جبل « باليداغ » فى الجزء الشمالى الغربى من بلاد الأناضول عند مدخل البسفور .

(٣) هومير — الأنشودة الثانية والعشرين من الالياذة من ١٤٧ إلى ١٥٢ .

أقول قرأ لأن « شليمان » لم يكن من رجال الآثار أو التاريخ بل لم يكن له علاقة ما بالعلم أو بالعلماء . ولد عام ١٨٢٢ من أسرة فقيرة وما كاد يتعلم القراءة والكتابة حتى شغف بحب الالياذة والأوديسية . وفى العاشرة من عمره قدم إلى أبيه كهدية فى عيد ميلاد المسيح مقالة كتبت عن أهم أحداث حروب طروادة كما أنه كان يقبل بكل ما فيه من قوة على قراءة ما يقع تحت يده من مؤلفات عن هذه الفترة . وخرج من المدرسة فى سن الرابعة عشر ولم يلبث أن التحق بحانوت بقالة فى مدينة « فورتنبورج » ثم بدأت حياته تمر بصعاب كثيرة وسئم المعيشة فى بلده وهاجر عام ١٨٤١ إلى هامبورج وتسلل فى أحد الأيام إلى سفينة راسية بالميناء ولكن عاصفة هوجاء هبت فى عرض البحر بعد إبحار السفينة وأغرقتها ونجا « شليمان » بأعجوبة ولم يلبث أن حصل على وظيفة صغيرة فى أحد متاجر « امستردام » التى كان قد انتقل اليها لعله يحصل على عمل فيها . وبدأ يتصل بتجار من مختلف الشعوب يتحدثون بلغات متباينة فهوى دراسة اللغات ووجد نفسه يتعلم اللغة بعد الأخرى بسهولة واضحة فأتقن اللغات الهولندية والاسبانية والإيطالية والبرتغالية فى فترة وجيزة لم تزد عن ستة أسابيع لكل منها فساعدته هذه الموهبة على التقدم فى عمله وعلى أن يرقى سلم المجد بسرعة فائقة فنراه فى عام ١٨٤٧ ولم يكد يبلغ الخامسة والعشرين من عمره وقد أسس بيتاً تجارياً لنفسه فزادت ثروته وتضخمت مسئولياته ولكنه فى هذا الخضم من الأحداث لم ينس هوايته وهى « هومير » وما قاله عن « طرواده » . وفى عام ١٨٥٠ سافر إلى أمريكا الشمالية وبلغ فى مركزه التجارى شأواً كبيراً جعل رئيس الجمهورية يدعوه إلى زيارته وفى نفس الوقت أرسل من أمريكا إلى أصدقائه خطابات يحدثهم فيها عن أوديسية هومير والياذته وعن تفكيره فى استغلال ثروته الكبيرة فى البحث عن طرواده والتعرف على المكان الذى كان مسرحاً لاحداث عصرها وأن حديث هومير هذا ليس بخرافة بل هو حقيقة واقعة ولكن أعماله الكثيرة ومستولياته المتعددة كانت تبعده عن تحقيق أمنيته هذه . وفى عام ١٨٥٥ رست سفينتان تحملان باسمه شحنتين كاملتين من الشاى فى ميناء « ميمل » وإذا بحريق يشب ويأتى على كل ما تحويه مخازن هذا المرفأ

من سلع مختلفة ولم ينج من الحريق سوى سفينتى شليمان بشحنتيهما، وكان فى ذلك ما جعله مليونيراً فاحش الثراء . وأخيراً فى عام ١٨٦٤ وصلت ثروته حداً جعله يفكر فى تصفية أعماله والعمل على تحقيق أمنيته الكبرى تلك الأمنية التى لازمته منذ طفولته والتى أخذت تهيمن على مشاعره ألا وهى البحث عن طرواده .

هذا هو شليمان الذى وصل إلى « بونارباشى » وفى يمينه ثروة لا حد لها وفى يساره نسخة من الالياذة والأوديسية لهومير وفى قلبه إيمان عميق أنه سيحقق أحلامه وسيعثر على ضالته المنشودة « طرواده » .

إذن كانت المقارنات التى يقيمها « شليمان » بين ما ذكر عن أوصاف لمدينة طرواده فى الالياذة وبين ما رآه فى طبيعة قرية « بونارباشى » هى التى جعلته ينصرف عنها ويتجول فى المناطق المتاخمة ولم يلبث أن وجد ضالته المنشودة فى « حيسارليك » التى تبعد عن قرية « بونارباشى » بمسيرة ساعتين ونصف إلى الشمال والتى لا تبعد عن الشاطىء بأكثر من ساعة واحدة .

ومن بين المظاهر التى رجحت كفة «حيسارليك» عند شليمان أنها حوت تلا عالياً قمته مسطحة وتكاد تكون مربعة ويبلغ طول ضلعها ٢٣٣ متراً وأن هذا التل ينحدر بميل متدرج حتى الشاطىء ثم وجد بعد التجربة أن مطاردة « اخيل » « لهيكتور » التى دار الإثنان إبانها ثلاث مرات حول المدينة يمكن أن تحدث بسهولة، إذ أنهما فى هذه الحالة يكونان قد جريا ما يقرب من خمسة عشر كيلومتراً وهو ما يستطيعه أى محارب فى مقتبل العمر . أما عن النبعين المائيين فقد عرف أن فى الإمكان اختفاء مثل هذه الينابيع فى أى منطقة بركانية.

استغرقت أبحاث « شليمان » الاستطلاعية أكثر من سنتين ولم يبدأ حفائره فى « حيسارليك » إلا فى ابريل عام ١٨٧٠ ومرت كشوفه فيها فى مراحل أربعة توزعت بين عام ١٨٧٠ و ١٨٩٠! وكانت نتائج كشوفه ترسل بالبرق إلى ملوك أوروبا وتنشر يوماً بيوم فى جميع الصحف السيارة كما كانت تقابل بشغف بالغ من جميع الطبقات .

سار شليمان فى حفائره على أساس استقراء ما تحويه الطبقات المتتالية

من مخلفات بشرية واهتدى إلى وجود سبع طبقات حوت كل منها أطلالا لمدينة قديمة واعتبر الثانية منها لأطلال « طروادة » الهوميرية أو قلعة « بريام » وعثر فيها على كنوز أعتقد أنها كنوز « بريام » بالذات، كما وجد أن هذه المدينة القديمة التى احتوتها الطبقة الثانية كانت محصنة تحصيناً قوياً ولها تجارة واسعة استخدمت فيها الذهب والفضة والعاج . على أنه بعد موت شليمان بثلاثة أعوام تبين مساعده العلامة « دوربفيلد » (أى عام ١٨٩٣) أن طروادة الهوميرية هى المدينة التى احتوتها الطبقة السادسة . كما استطاع بعد ذلك أن يقيم تاريخاً كاملا لكل طبقات « حيسارليك » التى وصلت معه إلى تسع طبقات ولا يزال هذا التأريخ يعتبر الدعامة التى يقوم عليه تأريخ حضارات أوروبا (١) . ولقد سار فيه على النحو الآتى :—

طروادة ١	من ٣٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ ق . م
طروادة ٢	من ٢٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق . م
طروادة ٣ — ٤ — ٥	من ٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠ ق . م
طروادة ٦ (الهوميرية)	من ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق . م
طروادة ٧	من ١٠٠٠ إلى ٧٠٠ ق . م
طروادة ٨	من ٧٠٠ ق . م إلى السنة الأولى ميلادية
طروادة ٩	من السنة الأولى ميلادية إلى ٥٠٠ ميلادية

ونحن لانشك مطلقاً فى أن « شليمان » بطريقته الفذة فى حفائره استطاع ليس فقط الكشف عن طروادة، بل تمكن أيضاً من أن يظهر لها تاريخاً حضرياً طويلا وأصولا ضاربة فى القدم .

ولم يقتصر شليمان على حفائره فى حيسارليك بل حفر أيضاً فى « ميسينا » فيما بين عام ١٨٧٤ وعام ١٨٧٦ وكان أيضاً يبحث عن أهداف واضحة تأثر بها من قراءاته فى هومير إذ ذهب إلى « ميسينا » ليعثر على مقبرتى « أجاممنون » و « كليتمنسترا » مؤكداً أنهما لا يقعان خارج القلعة بل هما فى وسطها ولقد عثر عليهما وهما من الطراز المبنى على هيئة « خلية النحل » (٢) وكشف فيهما

(1) Dorpfeld, W. "Troja und Illion" (Athen 1902.)
(2) Beehive Jombs

على كنوز هائلة . كما عثر بالقرب من « بوابة الأسدين » على مقابر من الطراز الذى يتكون من بئر عميقة تتسع عند قاعها على هيئة حجرة تحوى الجثة [١] ولقد بلغ تأثره بالمراجع القديمة أنه قد قرأ فى « باوزانياس » أن هناك خمساً من تلك المقابر فلم يكد يعثر على الخامسة منها حتى أوقف العمل بينما كانت هناك ست مقابر وعثر بالفعل على المقبرة السادسة بعد أن ترك شليمان منطقة الحفر . وكانت الكنوز التى عثر عليها فى هذه المقابر مثيرة وفاقت كنوز « بريام » إذ تضمنت أقداحاً من الذهب والفضة وسيوفاً مطعمة بالذهب وقلائد وخواتم وأنواع أخرى من الحلى الذهبية التى كانت ترشق بملابس الموتى وأقنعة ذهبية .

وكشف شليمان عام ١٨٨٠ على كنز « ميناياس » فى « أرخومينوس » كما حفر فى عام ١٨٨٤ — ١٨٨٥ وكشف عن قصر « تيرنز » . ولقد كان باستمرار يعتقد أن كشوفه سواء تلك المقابر الخمسة أو مقبرتى « أجاممنون » و « كليتمنسترا » أو كنز « ميناياس » فكلها ترجع إلى عصر هومير [٢] .

ولقد تعددت الآراء إزاء وسائل شليمان وكشوفه فبينما كان البعض يطعن فى إرجاع هذه الكشوف إلى العصر الهوميرى مؤكداً أنها ترجع إلى العصر المسيحى [٣] نجد أن البعض الآخر قد اقتنع بنظريته [٤] مشيداً بالأسس الوطيدة التى ابتدعها « شليمان » للبحث الأثرى العلمى والتى يمكن أن تطبق فى أى منطقة أثرية أخرى . وعلى كل حال من الواجب علينا ، إنصافاً لهذا الرجل الفذ ، أن نقسم نشاطه فى أعمال التنقيب إلى فترتين :—

---

(1) Shaft Graves

(٢) لقد كان شليمان ينشر نتائج تنقيباته بسرعة فائقة ولعل أعماله التجارية التى انغمس فيها إبان الطور الأول من حياته هى التى أكسبته هذه السرعة فى النشر فنراه ينشر الكتب الآتية التى ظهرت مباشرة بعد الانتهاء من الحفر :

A. "Trojan Antiquities" 1874 B. "Mycenae" 1876.

C. "Illios" 1880. D. "Troja" 1884. E. "Orchomenos" 1887.

(٣) هناك عالم اسمه « كورتيوس » (Curtius) أكد أن أحد الأقنعة التى عثر عليها « شليمان » فى مقابر « ميسينا » كانت صورة للسيد المسيح عليه السلام .

(4) Casson, "The Descovery of Man" 1939.

الأولى من ١٨٧٠ إلى ١٨٨٢ والثانية من ١٨٨٢ إلى ١٨٩٠ أى إلى موته .
ونحن لا نشك أن الفترة الأولى قد ساد فيها حب الكشف الممزوج بالمغامرة ولم يستطع شليمان أن ينظم شئونه ويقيم أبحاثه على أسس علمية إذ بقى يحفر فى « حيسارليك » من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٣ بمفرده لا يعاونه فى عمله سوى زوجته اليونانية ، ثم من ١٨٧٤ – ١٨٧٦ قام بمساعدته بعض من اليونانيين الذين شعروا بغصة نحوه ولم يتعاونوا معه إلا تعاوناً سطحياً ثم فى عام ١٨٧٩ عاونه رجلان هما « بيرنوف » و « فيرشوف » وكانا هما فى حاجة إلى من يلقنهما أسس الحفر العلمى .

بينما فى الفترة الثانية التى تبدأ من عام ١٨٨٢ نراه يفوز لمساعدته برجل عالم مدرب هو « دوربفيلد » الذى امتازت أعماله بدقة العالم وحرصه على تدوين كل شىء والذى استطاع بخبرته كمهندس أن يكشف الطبقات على أساس استخدام القطاعات الواضحة .

على أية حال فليس من شك فى أن كشوف « شليمان » قد هيأت الفرصة لدراسة عصور فجر التاريخ للحضارة الإغريقية – تلك الدراسة التى أتمتها بعثة المدرسة الإنجليزية بأثينا «The British School at Athen» فحفر باسمها « سير سيسيل سميث » عام ١٨٩٤ – ١٨٩٥ فى منطقة « فيلاكوبى » الواقعة على الشاطىء الشرقى لميلوس واتبع نفس الطريقة العلمية التى اتبعها «شليمان» فى فترته الثانية فى حفائر « حيسارليك » بدراسة محتويات الطبقات . فاتضحت له صلة طبقتها الثانية بحضارة «طروادة الثانية »بينما عثر فى الطبقة الثالثة على مساكن من طراز اليابسة الإغريقية يحتمل انتماؤها إلى عصر حضارة ما قبل المسينية .

٥ – البحث عن أصول الحضارة الإغريقية :

فى نفس الوقت قام المتحف البريطانى بحفائر واسعة فى قبرص دللت على وجود آثار ترجع إلى العصر البرونزى الأول ولها بعض الصلة بحضارة طروادة الثانية وإن كانت قد اتخذت لنفسها اتجاهاً مخالفاً (١) . ولقد اتجـه

(1) Murray, Smith and Walters ; "Excavations at Cyprus" 1900.

الترجيح إذ ذاك إلى أنه ليس من الممكن أن تقتصر الحضارة المسينية على جزر الأرخبيل وقبرص دون بلاد الاغريق ، ولقد حققت الكشوف فيما بعد هذا الترجيح .

ولقد تركزت أعمال البحث فى بداية القرن العشرين فى تتبع أصول الحضارة المسينية التى كشف عنها « شليمان » ومن أتوا بعده . وكان السؤال :— هل كانت هذه الحضارة من إنتاج بلاد الاغريق ذاتها أم وفدت عليها من الخارج ؟ وإذا كانت أصول هذه الحضارة وفدت من الخارج فهل أتت من آسيا الصغرى أم من كريت ؟

ولقد اتجهت الأنظار فى بادىء الأمر إلى كريت التى اعتبرها « شليمان » الموطن الأول للحضارة الاغريقية . ولقد بلغ من تشبع الباحث « سير أرثر إيفانس » بهذا الرأى [1] أنه وقف فى عام ١٨٩٦ فى ليفربول بمناسبة افتتاح دورة اجتماع قسم دراسة الإنسان بالجمعية البريطانية معلناً رأيه أن كريت هى الموطن الأول الحقيقى للحضارة الاغريقية إذ ظهر فيها ذلك الإنسان الأول الذى انتشر فى كل أرجاء الوطن الاغريقى يتحدث نفس اللغة ويهدف إلى الحرية والعزة والكرامة ثم قال : « إن كريت اليوم تقف شامخة برأسها ضد المستعمر الذى أتاها من آسيا » ولم تأت سنة ١٨٩٨ حتى تعاونت الدول الغربية على إعطاء كريت استقلالها وإنهاء احتلال تركيا لها بعد أن أتاحت لها آثارها تلك السمعة العريضة .

وهكذا استطاع « ايفانس » أن يحظى بالإذن بالحفر فى كريت عام ١٨٩٩ واختار منطقة «كفالا» ولم تمر تسعة أسابيع على بدء الحفر حتى أكمل «ايفانس» الكشف عن مبنى عتيق يرجع إلى عصور فجر التاريخ أطلق عليه اسم قصر « مينوس » وتمكن بعد ذلك من أن يقيم نظرية أثبت بها أن كريت قد حظت بحضارة متقدمة هى « الحضارة المينوية » [2] وانها سابقة للحضارة الميسينية .

---

(1) Evans, Sir Arthur "Cretan Pictographs" 1894.

(٢) سمى « ايفانس » هذه الحضارة « بالمينوية » نسبة إلى « مينوس » وهو صاحب تلك الشخصية الكريتية التقليدية التى قامت بوضع « القوانين » التى سارت عليها البلاد .

وكشف « ايفانس » فى « كنوسوس » عن حضارة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث (١) إذ عثر على آثارها تحت أقدم مستويات العصر البرونزى بما يقرب من مترين ونصف . ولقد اهتم العلماء بهذه الكشوف لروعتها الفنية ولعظمة أسلوبها المعمارى .

لم يقابل « ايفانس » فى القرن العشرين بمثل ما قوبل به « شليمان » من نقد مر فى أواخر القرن التاسع عشر . ويرجع ذلك إلى أن « ايفانس » كان عالماً متعمقاً فى الدراسات الأثرية من قبل أن يبدأ العمل كما كان خبيراً بطرق البحث . ولقد قسم « ايفانس » حضارة كريت إلى فترات ثلاثة : — المينوية المبكرة والوسطى والحديدة ثم قسم كل فترة منها إلى ثلاثة عهود . كما حاول ربط هذه الفترات بما يقابلها من عصور مصر الفرعونية على أساس بعض القطع التى لا نشك فى أنها مصرية الصناعة والتى عثر عليها فى « كنوسوس » ووجود بعض أوان مينوية فى مقابر مصرية فضلا عن كثرة ظهورها مرسومة على جدران المقابر المصرية — حقيقة غالى « ايفانس » فى تأريخ حضارات كريت إذ دفع بالعصر الحجرى الحديث إلى الفترة ما بين ١٢ ألفاً و ١٠ آلاف ق . م وأرخ الحضارة المينوية المبكرة فيما بين ٣٤٠٠ إلى ٢١٠٠ ق. م فى حين أن الأبحاث الحديثة تحتم تعديل هذا التأريخ بحيث يصبح العصر الحجرى الحديث حوالى عام ٤٠٠٠ ق.م والحضارة المينوية المبكرة حوالى ٣١٠٠ إلى ٢٧٠٠ ق . م والحضارة المينوية الوسطى حوالى ٢٠٠٠ ق . م . ولا يزال العلماء حتى الآن يبحثون فى لغة هذه الحضارة والأصل الذى صدرت عنه فضلا عن البحث فى منشأ الحضارة المينوية ذاتها والأصل الذى نبعت منه .

٦ — الكشوف الأثرية فى بلاد الأناضول :

لقد كانت بلاد الأناضول هى الأخرى مركزاً لنشاط أثرى منذ أوائل القرن الثامن عشر هدفه البحث عن أصل سكان هذه البلاد وهل هم الحيثيون

---

(١) لقد كان العالم الغربى متشوق إلى سماع أخبار كشوف « ايفانس » فى كريت خاصة بعد أن هدأت أخبار كشوف شليمان فى بلاد اليونان . ولقد صدرت عدة كتب عن هذه الكشوف أهمها :

Borrow, R.M. "The Descoveries in Crete and their bearing on the History of Ancient Civilisation" 1907.

Evans, Sir Arthur ; "The Palace of Minos at Knossos" 4 vols. 1921-1935.

الذين ذكرهم التوراة ولعل أول ما وصل إلى معرفتنا عن الحيثيين كان ذلك النقش الذى عثر عليه « جان أوتر » فى « ابريز » فى جنوب « كپادوشـيا » فى عام ١٧٣٦ كما أن « بورخاردت » كشف عام ١٨١٢ عن واحد من نقوش « هامات » . ولكن هذه الكشوف وأخرى غيرها لم تكن قد جذبت أنظار العلماء فى ذلك الوقت وبقى الحال هكذا حتى عام ١٨٦٠ حين كشف « جورج بيروت » فى « بوغاز كوى » أطلالا لمدينة واسعة امتازت بتحصيناتها المنيعة وعثر فيها على تماثيل تخالف فى أسلوبها الفنى كل ما عرفه العالم من تماثيل القدماء التى ظهرت فى مصر أو بلاد العراق أو فى اليونان . ومنذ ذلك الوقت دخلت بلاد الأناضول فى محيط الأبحاث الأثرية وسلط العلماء عليها الأنوار وأخذت البعثات تذهب إليها للقيام بأعمال الحفر والتنقيب للكشف عن ماضيها وعن أصل سكانها القدماء خاصة بعد أن قرر « بيروت » بأن التماثيل التى عثر عليها فى « بوغاز كيوى » هى صناعة لفنانين لانعرف عنهم شيئاً كما أن «بورتن» اعترف بأن نقوش « هامات » لا يمكن قراءتها أو فهم معانيها [١] .

عرف العالم لأول مرة أن بلاد الأناضول هى الموطن الأصلى لشعب « الحيثيين » الذين ذكرتهم التوراة —عندما اقترح « رايت » (وهو من رجال التبشير الذين كانوا يجوبون الشرق الأدنى والذى كان فى دمشق فى ذلك الوقت) أن الفنانين الذين قاموا بصنع تماثيل « بوغاز كيوى » وأن النقوش المعروفة باسم « هامات » هى من إنتاج شعب الحيثيين [٢] ثم ظهر بعد ذلك كتاب آخر لأستاذ الدراسات الأسيوية فى اكسفورد « سايس » حاول فيه أن يبرز كل ما عثر عليه المنقبون من آثار لهؤلاء الحيثيين [٣] .

وكان القرن العشرون هو قرن الكشف الحقيقى فى بلاد الأناضول إذ تكونت بعثة علمية من علماء ألمان وأتراك فى عام ١٩٠٦ تحت إشراف « هوجو فينكلر » وأخذت تكشف عن المنطقة التى كان « بيروت » عام ١٨٦١ قد عثر

(1) Burton, Richard ; "Unexplored Syria" 1872.

(2) Dr. Wright, W. ; "The Empire of the Hittites" 1884.

(3) Sayce, A.H. ; "The Hittites, the Story of a Forgotten Empire" 1888.

عليها فى « بوغاز كيوى » . وتمكنت هذه البعثة بأبحاثها أن تثبت بأن هـذه المدينة هى « خاتوساس » عاصمة دولة الحيثيين كما أنها عثرت على آلاف من الألواح تضمنت مراسلات الشئون الخارجية للدولة فيما بين ١٣٥٠ و١٣٠٠ق.م وتناولت المصريين والبابليين والقبرصيين كما ذكرت ذلك الشعب الذى سكن الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى والذى نتعارف على تسميته الآن باسم الآخيين. وهذه الذخيرة الهائلة من النصوص هى التى دفعت بالدراسات اللغوية إلى الأمام بعد أن تمكن « هيروزنى » من التعرف على مفتاح هذه اللغة ووصل إلى الكثير من فهم ألغازها (١) ولم تحل سنة ١٩٢٢ حتى أصبحنا على دراية كاملة بما حوته هذه النصوص السالفة الذكر(٢) .

وفى نفس الوقت أخذ بعض العلماء يحفرون فى مناطق أخرى من بلاد الأناضول فنقب « فون لوشان » الألمانى فى منطقة « زنجرلى » (٣) كما قام « جارستنج » بحفائر واسعة فى « ساكاجوزى » (٤) استمرت أكثر من أربعين عاماً بدأت منذ عام ١٩٠٧ وبدأت البعثة التى أرسلها المتحف البريطانى للبحث فى منطقة « قرقاميش » التى تعتبر من المراكز الجنوبية لحضارة الحيثية واشترك فى البحث كل من « هوجارث » و « لورنس » و « وولى » (٥) .

وكدأب الأثريين ، لا يبلغون طبقة حتى ينقبوا فيما وراءها . اتجه بحثهم بعد التعرف على حضارة الحيثيين إلى البحث عما سبقها أو مهد لها من حضارات ولقد اتخذ بحثهم ذاك مراحل متعددة وخاصة بعد أن كشف « شانتر » (٦) عام ١٨٩٣ عن نوع متميز من فخار ملون فى « اورتا هايوك » أطلق عليه اسم

(1) Hrozny, Friedrich ; "Die Sprache der Hethiter" 1917.

(2) Contenau, G. ; "Eléments de Bibliographie Hittite" 1922.

(3) Cowley, A.E. ; "The Hettites 1920.

(4) Garstang' J. ; "Hittites" 1929.

(5) Wooley, Lawrence and Hogarth ; "Carchemish' ; Report on the Excavations at Djerabis" 1914-1921.

(6) Chantre "Recherches, Archéologiques dans l'Asie Occidentale : Mission en Cappadoce" 1898.

الفخار « الكابادوكى » قارنه « مايرز » عام ١٩٠٣ بفخار قبرص وصقلية وتساليا الذى يرجع إلى العصر البرونزى ثم فى آخر الأمر نجد أن « جارستنج » يخرج علينا بتأريخ لعصور فجر التاريخ فى الأناضول أقامه على أساس ما عثر عليه من فخار فى حفائر « ساكاجوزى » وانتهى إلى تقسيمه إلى أربع فترات(١) :

١ — العصر الحجرى الحديث المبكر .

٢ — العصر الحجرى الحديث المتأخر .

٣ — عصر الفخار الملون المبكر .

٤ — عصر الفخار الملون المتأخر .

وهو يقارن فخار العصر الحجرى الحديث الذى يتميز بلونه الأسود وببعض الزخارف المحفورة والملونة باللون الأبيض بما يماثله من فخار طروادة وكريت بينما يقارن الفخار الملون وخاصة فى عصره المبكر بما يماثله من فخار « سوسة » فى إيران و « أناو » فى « التركستان » .

على أن المعنيين بدراسات فجر التاريخ فى الأناضول ظلوا يتطلعون إلى كشف أثرى فى وسط البلاد أو فى شرقها يقارن بأعمال « شليمان » و « دوربفيلد » فى طروادة . ولقد تكفلت بتحقيق هذا الهدف بعثة معهد شيكاغو للدراسات الشرقية التى بدأت تنقيباتها عام ١٩٢٦ ونجحت فى تسجيل نحو من ٣٠٠ موضع أثرى جديد على أن أهم ما يذكر للقائمين بهذه التنقيبات وعلى رأسهم كل من « شميدت » و « فون — در — أوستن » هو قيامهم بكشف علمي دقيق فى تل « أليشار » الذى يقع إلى الجنوب الشرقى من أنقره بما يقرب من ١٢٨ ميلا . وكان هذا التل يرتفع إلى ما يزيد عن ثلاثين متراً وبذلك هيأ فرصة نادرة لتتبع طبقاته ودراسة محتويات كل طبقة بعناية ودقة . ولقد قام كل من « شميدت » و « فون — در — أوستن » بهذا العمل بطريقة تدعو إلى الدهشة والإعجاب (٢) وانتهت أبحاثهما إلى تمييز أربع طبقات حفرية :

---

(1) Garstang, J. "The Land of the Hettites" 1910.

(2) Von der Osten and Schmidt ; "The Alishar Huyuk Excavations" 1927-1932 (Oriental Institut Publications, 8 vols. 1930-37).

١ – « أليشار » (ا) وهى تعادل عصر بداية استعمال المعادن حوالى ٤٠٠٠ ق . م .

٢ – « أليشار » (ب) وهى تمثل عصر استعمال النحاس وتؤرخ بحوالى ٣٠٠٠ ق . م .

٣ – « أليشار » (ج) وهى تمثل بواكير عصر استعمال البرونز وتؤرخ بحوالى ٢٤٠٠ ق . م .

٤ – « أليشار » (د) وهى تعاصر قيام الدولة الحيثية وتؤرخ بحوالى ٢٠٠٠ ق . م .

وشارك الأتراك فى البحث الأثرى فاضطلع « حميد زبير كوزاى » مدير الآثار فى تركيا بحفائر فى منطقة « الاكا هيوك » (١) التى تبعد بما يقرب من ٦٠ كيلومتراً إلى الشمال من « بوغاز كيوى » ولقد عثر فى أدنى مستوياتها على حضارة تمثل عصر بداية المعادن وتقارن بحضارة « أليشار » (ا) كما كشف عن مدافن اعتبرها معاصرة للعصر النحاسى (حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) بلغ عددها ثلاث عشرة مقبرة يعتقد أنها لأفراد أسرة ملكية وضعت جثة كل منهم فى آنية كبيرة وعثر فى كل مقبرة على أنواع من الحلى بلغت من الثراء وأسلوب الصناعة ما يجعلها تقارن بمقابر ملوك « أور » فى بلاد العراق(٢) .

ونشط التنقيب فى العشرين سنة الأخيرة فى جنوب شرق الأناضول وتركز البحث فى ثلاث مناطق :

١ – منطقة « مرسين » فى سهل « كليكيا » حيث حفر « جارستنج » عام ١٩٣٦ – ١٩٣٧ وتمكن من أن يحقق الكثير من حضارات عصور فجر التاريخ لبلاد الأناضول (٣) ولقد ساعده فى تأريخه أن التل حوى ست عشرة

---

(1) Arik, R.O. ; "Les Fouilles d'Alaca Hoyuk" (Rapport préliminaire sur les traveaux en 1935 ; Publications de la Soc. d'Hist. Turque, Ankara 1937 .

(2) Kosay, Dr. Hamit Zubeyr ; London Illustrated News July 21th, 1945, P. 78 ff.

(3) Garstang, J. ; "Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology" 1937-1940.

طبقة رد الطبقات الخمسة من ١٢ إلى ١٦ إلى عصر استعمال المعادن (العصر الكاكليوليتى) بحيث تعاصر الطبقة الثانية عشر عام ٣٠٠٠ ق . م بينما الطبقة السادسة عشر وهى تعاصر حضارة « تل حلف » فى العراق وترجع إلى حوالى عام ٣٦٠٠ ق . م .

غير هذا فقد عثر « جارستنج » أسفل الطبقة السادسة عشر على مخلفات بشرية تمت إلى حضارة تسبق حضارة « تل حلف » وهى تمثل حضارة العصر الحجرى الحديث (١) وقد دفع بها « بوركيت » إلى ٥٥٠٠ ق . م .

٢ — منطقة « اتخانا — الالاخ » بالقرب من مدينة حلب ولقد تبين فيها « وولى » (١٩٤٦ — ١٩٤٧) أقدم العواصم الحيثية بدأ عمرانها حوالى ٢٠٠٠ق.م ودمرت حوالى ١٢٠٠ ق . م ومرت فيما بين ذلك بتسع مراحل متميزة من العمران (٢) ومما يدعو إلى الدهشة أن « الالاخ » لم تحو ما يدل على أنها شيدت قبل العصر النحاسى بينما عثر « وولى » فى تل صغير يبعد ٣ كيلومترات إلى الغرب منها على مخلفات ترجع إلى العصر « الكالكيوليتى » وتقارن بحضارة « مرسين ».

٣ — منطقة « كاراتبة » التى تقع عند سفح سلسلة جبال الطوروس حيث يقتحم نهر « جيهان» مجراه ليصل إلى سهل أذنه ولقد تبين أنها تحوى مدينة حيثية تذكرها النصوص باسم « دانونا » كما دلت آثارها على وجود تأثيرات مختلفة ايجية ولذلك يرجح البعض أنها هى مدينة « دانوى » التى تحالفت مع « الآخيين » فى « طروادة » .

والصورة الأخيرة التى كونها « فون — در — أوستن » عن حضارة فجر تاريخ الأناضول أنه فى عصر بداية استعمال المعادن (العصر الكالكيوليتى) يتضح لها شقان : شق فى غرب الأناضول ويقابل « طروادة الأولى » وينتمى إلى حضارات البلقان والآخر فى وسط الأناضول تمثله حضارة « أليشار » (١) ويقرن بحضارات الأرض السوداء .

---

(1) Burkitt, M.C. , "The Earlier Cultures at Mersin" in : Liverpool Annals of Arch. and Anthrop " 1939.

(2) Scharff, A. und Moortgat, A. ; "Aegypten und Vorder asien im Altertum" Muenchen 1950 Seite 374 ff.

وللأناضول فى تطور حضاراتها إبان العصر النحاسى نفس الثنائية ويعتقد « فون – در – أوستن » أنها تمثل تطوراً رتيباً فى غرب الأناضول قام على أساس حضارتها فى « العصر الكالكيوليتى » بينما فى شرق الأناضول تعتبر حضارة العصر النحاسى حضارة جديدة لا تتصل بما سبقها .

٧ – الكشوف الأثرية فى فلسطين وسوريا :

لقد كانت البحوث الأثرية التى تمت فى فلسطين تقوم على تحقيق ما ورد فى التوراة عن مدن هذه المنطقة . إلا أن العلم الحديث دفع بالعلماء إلى استقصاء ما كانت عليه حضارة الإنسان الأول الذى سكن هذه البلاد فى عصور فجر التاريخ ولإقامة المقارنات بين تطور حضارته وما حدث فى مصر وبلاد العراق فى عهود معاصرة .

ولقد بدأت الأبحاث العلمية فى فلسطين على أثر تكوين « الجمعية الأثرية لفلسطين »[١] فى لندن عام ١٨٦٥ وكانت باكورة هذه الأبحاث القيام بتسجيل للآثار الظاهرة فوق سطح الأرض أما التنقيبات فلم تبدأ إلا عام ١٨٩١ فى « تل الحيسى » بإشراف الأستاذ بترى وفى عام ١٩٠٢ فى منطقة « جازر » حيث عثر « ماكاليستر » على كهوف سكنها إنسان العصر الحجرى الحديث وكان بعضها من صنع الإنسان فى ذلك الوقت كما أثبت أن إنسان العصر البرونزى استعمل بعض هذه الكهوف لدفن موتاه وأخذ فى تشييد مدينة تعتبر السلف القديم لمدينة « جازر » التاريخية[٢] .

ومن المدن الأخرى التى دل التنقيب على أنها ترجع إلى العصر البرونزى المبكر هى « مجدو » (تل المتسلم) ولقد قامت بعثة المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو فى عام ١٩٢٥ بحفائر واسعة النطاق فى هذه المنطقة وكشفت عن كثير من أجزاء المدينة وأثبتت أنها عمرت بسكانها حتى آخر القرن الثانى عشر قبل الميلاد حيث

---

(1) The Palestine Exploration Fund.

(2) Macalister, R.A.S. ; "The Excavations at Gezir" 1912.

دمرت تماماً . ووفق « جوردون لاود » عام ١٩٣٧ إلى العثور على قصور الأمراء الذين حكموا المدينة باسم فراعنة مصر(١) .

ومن مدن التوراة القديمة التى عمل البحث الأثرى على تحقيقها كانت « لاكيش » ولقد ظل تحديد مكانها موضع جدل بين الأثريين . إذ نسبت فى أول الأمر إلى « أم لاكيس » الحالية ولكن بترى عارض هذا الرأى وأكد أنها هى « تل الحيسى » حيث حفر عام ١٨٩١ واتفق الرأى الآن أنها هى « تل الدوير » حيث قامت بعثة « والكوم — مارستون » للأبحاث الأثرية بالتنقيب عام ١٩٣٣ (٢) واتضح فيها مرحلة لسكنى الكهوف فى عصر البرونز المبكر ثم تلتها مرحلة قيام المدينة . ولقد كان مما عثر عليه فيها طاس صغيرة فى أطلال معبد صغير من عصر البرونز نقشت عليها نقوش بالكنعانية المبكرة التى تمثل حلقة الاتصال بين السامية والأبجدية الفينقية (٣) .

أما فى شمال سوريا فقد كشف التنقيب عن تاريخ واحدة من أهم المدن السورية وهى « راس شمرة » (شمالى اللاذقية وفى مواجهة قبرص) وقد اتضحت لها سلسلة طويلة من حضارات متتابعة ترجع إلى العصر الحجرى الحديث إذ عثر « شيفر » فيها على فخار يشابه فخار حضارة « مرسين » بجنوب الأناضول من العصر الحجرى الحديث كما عثر كذلك على نوع آخر من الفخار قارنه بفخار نينوى وتل حسونة فى بلاد العراق .

ولقد تهيأ لهذه المدينة أن تقوم بدور الميناء الدولى بين شعوب البحر المتوسط القديمة وذكرتها مراسلات تل العمارنة تحت اسم « اوجاريت » وقد دمرها زلزال عنيف فى منتصف القرن الرابع عشر ثم ارتد إليها عمرانها حتى دمرتها شعوب البحار فيما بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثانى عشر .

ولقد عثر فيها على مكتبة حوت المئات من الألواح الصلصالية كتبت

---

(1) Loud, Gordon ; "The Megiddo Ivories" 1939.

(2) Wellcome-Marston Archaeological Expedition

(3) Tufnel, Inge and Harding ; "Lachish" II (Tell ed Duweir) The Fosse Temple 1940.

نصوصها بالأبجدية الأسفينية التى اعتبرت أقدم أبجدية معروفة كتبت بلغة سامية . وهيأت هذه الألواح بموضوعاتها القريبة من قصص التوراة ولغتها القريبة من الفينقية من ناحية ومن العبرية من ناحية أخرى مجالا واسعاً للبحوث اللغوية والتعليقات (١) .

وأريحا مدينة أخرى عتيقة قام بالكشف عنها بطريقته العلمية الفذة « جارستنج » متتبعاً نظام دراسة طبقاتها المختلفة وكشف فيها عن عمران متصل شغل سبع عشرة طبقة يمثل العصر الحجرى الحديث منها ما بين الطبقة العاشرة والسابعة عشر . ولقد قسم « جارستنج » هذه الطبقات إلى ثلاث فترات :

الأولى ــ الطبقات من العاشرة إلى السابعة عشر : فيما بين ٤٥٠٠ ــ ٤٠٠٠ ق . م وهو العصر الحجرى الحديث الأول .

والثانية ــ الطبقة التاسعة : فيما بين ٤٠٠٠ ــ ٣٥٠٠ ق . م وهو العصر الحجرى الحديث الثانى ويعاصر حضارة « تل حلف » .

والثالثة ــ الطبقة الثامنة : فيما بين ٣٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق . م وهو العصر الحجرى الحديث الثالث المعاصر لحضارات « العبيد » و « جمدة نصر » .

وفى عصر البرونز المبكر أخذت « أريحا » تظهر كمدينة عامرة بالسكان (٢) ولقد تمكن من أن يثبت لها أربع فترات للعمران تتابعت إلى أن دمرت فى عام ١٤٠٠ ق . م .

ولقد أدى تعاقب البحوث الأثرية فى فلسطين وسوريا إذن إلى إبراز صورة متصلة لتتابع حضارى يبدأ فى العصر الحجرى الحديث وتتمثل حضارته فى أريحا وراس شمرة وبضعة مراكز أخرى ، ثم تعقبه حضارة عصر بداية المعادن ويمثلها المستوى الثامن فى أريحا ثم يلى ذلك عصر البرونز الكنعانى ويمثل

---

(1) Schaeffer, Claude, F.A. "Ugaritica, études relatives aux découvertes de Ras Shamra" 1939.

Cf. "Schaeffer ; "Stratigraphie Comparée et Chronologie de l'Asie Occidentale" 1948.

(2) Garstang, J. ; "The Story of Jericho" 1940.

مرحلة التطور إلى المدن التى ازدهر بعضها فقام بدور هام فى التبادل التجارى بين مصر جنوباً والحيثيين شمالا ودويلات بلاد ما بين النهرين شرقاً وسكان جزر بحر الأرخبيل غرباً .

وعلى نحو ما حقق التنقيب قيام هذه المدن حقق كذلك ما أصابها من دمار على أيدى الغزاة المختلفين فيما بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق . م ولقد كان منهم من وفد من الشمال والغرب ومنهم من وفد من الجنوب وهؤلاء الغزاة الأخارى هم الاسرائيليون .

إن قصة الكشوف الأثرية قصة طويلة متشعبة وأرجو أن أكون قد وفقت فى اختيار أهم هذه الكشوف وفى سرد الأحداث التى ميزت فترات هذه الكشوف وما كان يسود كل فترة من عوامل مختلفة أفسدت علينا تارة نتائج التنقيبات إلا أنها تارة أخرى أسدت إلينا من الفوائد الجمة ما جعل المؤرخين على استطاعة من أن ينفذوا إلى ظلمات الماضى السحيق فينيرونه ويتعرفون على مدى ما وصل إليه أجدادنا من البشر من التقدم فى حضاراتهم المختلفة .

عبد المنعم أبو بكر

الفارس المملوكى

تألف الجيش المملوكى بمصر من أربع فئات وهى : فئة المماليك السلطانية وهم طوائف كثيرة تضم مماليك السلاطين السابقين ، أى القرانصة [١] ، ومماليك السلاطين الذين فى دست الحكم وهم المشتريات . ويعرفون فى المراجع باسم المشتروات أو الجلبان أو الأجلاب [٢] ، ومماليك الأمراء الذين ينتقلون إلى الخدمة السلطانية بسبب وفاة أو عزل أو مصادرة تلحق بسادتهم ، ويطلق على هذه الطائفة الأميرية اسم السيفية [٣] .

والفئة الثانية هى مماليك الأمراء وأرباب الدولة والوظائف ، ويعرفون باسم أجناد الأمراء ، والفئة الثالثة هم أجناد الحلقة الذين يجيئون من عناصر مختلفة من أصناف المماليك الذين تقدمت الإشارة إليهم فضلا عن بعض المتعممين [٤] .

أما الفئة الرابعة فهى فى الواقع داخلة فى نطاق فئة الحلقة ، ولكنها ظلت مستقلة لاقتصارها على أبناء السلاطين الأمراء والمماليك ، ونشأ هؤلاء الأبناء وتربوا فى دار الإسلام وحمل معظمهم أسماء عربية . بل التحق بهذه الفئة الضيقة عدد كبير من الفقهاء ، ويعتبر أولا الناس أرقى أفراد فئة الحلقة [٥] .

---

(١) انظر Ayalon, David : Studies on the Structure of the Mamluk Army p. 217 (Reprint from the BSOAS 1954 XVI.

(٢) الظاهرى : زبدة الفكرة ص ١١٦ .

(٣) العرينى : نظام الفروسية زمن سلاطين المماليك (غير مطبوع) ص ٢١ .

Ayalon : op. cit. XVI, I pp. 220-222.

(٤) الظاهرى : زبدة كشف المماليك ص ١١٦ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٦ . Ayalon : op cit. II p. 449

(٥) Ayalon : Op. Cit. II p. 4501451

ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٣٥ ا .

النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

منتخبات حوادث الدهور ١٧٤ — ١٧٥ .

ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٧ .

وجاءت عناصر الجيش المملوكي من أجناس مختلفة ،وأولها جنس الترك ، وهو اسم جنس للمماليك الذين جاءوا من بلاد قبجاق حيث جرى امتزاج التتار والمغول بالترك فى هذه البلاد (١) . ونشطت حركة جلب الرقيق من العناصر التى خضعت للتتار على يد تجار أجانب ، وأقبل أبناء الملوك من الأيوبيين على اقتناء أعداد كبيرة من ذلك الرقيق لإنشاء الجيوش الكافية لحروبهم الداخلية ، فأكثر الصالح أيوب من شراء المماليك بعد أن تبين له فساد الخوارزمية وعدم الاعتماد عليهم (٢) . ولذا جاء معظم السلاطين فى العصر المملوكي الأول من بلاد القبجاق . ومن الطبيعى أن يعتمد كل منهم على مثل ما نشأوا فيه من جيوش مملوكية معظمها من جنسهم . وكان لاستمرار الحرب بين ملوك التتار فى الشرق أثر كبير فى كثرة السبى من النساء والصبيان الذين جىء بهم إلى مختلف الأسواق فى مصر والشام ولاسيما زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون (٣) . ووجد الجنوية وغيرهم من التجار فى السلطان مغنما، فأمعنوا فى الاستيلاء على: أولا التتار وجلبهم إلى ثغر كفا بالقدم ، وضاق طقطاخان ملك القبجاق بهذه التجارة فأرسل جيشاً إلى كفا وضرب أوكار تجار الرقيق بها ، غير أن ذلك لم يمنع تجارة الرقيق أو يقلل من نشاطها (٤) . أما الجراكسة وهم الذين يلون الترك فى الأهمية فى تكوين الجيش المملوكي فكانت منازلهم ببلاد قبجاق الجنوبية بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتعرضت مواطنهم لإغارات الدولة الخوارزمية ، فأخذت كثيراً من رجالهم أسرى وسبت نساءهم وأولادهم ، وجلبتهم التجارة الخوارزمية رقيقاً إلى الأقطار الإسلامية: واشترى المنصور قلاون عدداً كبيراً منهم وأنزلهم فى القلعة ، إمعاناً فى إبعاد العناصر الشمالية من القبجاق التتاريين الذين تألفت منهم الظاهرية مماليك بيبرس وأولاده من الجيش المملوكي (٥) . وازداد شأن الجراكسة فيما جرى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٤ ج ٦ : ٤٥٨ .
المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٥ .
العينى : عقد الجمان ج ٥٢ ص ٤٢٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ٣٨٤ .

(٤) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ٤٦٠ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٩١ .

من الحوادث والفتن التى وقعت أواخر عصر بيت قلاون ، وما زالوا حتى أعادوا برقوقاً إلى السلطنة فأحسوا بقوتهم ؛ وحاول برقوق كبح جماحهم غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، فتكونت بذلك دولة الجراكسة ، وأقبل كثير منهم على الهجرة إلى مصر ، واستغلوا رابطة الجنس فى سبيل الحصول على امتيازات كثيرة . ودخل الجيش كذلك عناصر أخرى من الخوارزمية والأكراد والعرب والتركمان والمصريين .

على أن المقصود بهذا البحث هو دراسة ما وضعه سلاطين المماليك من نظم وقواعد لتنشئة الفارس المملوكى من فئة المشتروات من المماليك السلطانية الذين يعتبرون أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً ومنهم توفر الإمرة رتبة بعد رتبة [١] .

ويعتبر التاجر الذى جلب المملوك إلى مصر أول حائز له وأول أستاذ له . واشتهر بعض التجار أحياناً باسم تاجر الخاص ، وأصبح الواحد منهم مكلفاً بجلب المماليك للسلطان ، ولذا عهد بهذه الوظيفة أحياناً إلى أمير من أمراء المماليك [٢] . وإذا وصل تاجر المماليك إلى القاهرة لقى أنواع الحفاوة من السلطان (ولاسيما أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون) ، فضـــلا عن مسامحته من المكوس والمقررات السلطانية [٣] . ويشير المقريزى إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون كان أكثر السلاطين سخاء فى شراء المماليك ، وبلغ ما دفعه ثمناً لمملوك واحد مائة ألف درهم أحياناً مما جعل الأب يجد سعادته فى بيع ابنه إلى تاجر يجلبه إلى مصر ، واقتدى الأمراء بالسلطان فى ذلك [٤] . وأدى ذلك إلى زيادة أثمان المماليك عند شراء التجار لهم حتى بلغ ثمن الواحد منهم عشرين ألف وثلاثين ألف وأربعين ألف درهم [٥] ، غير أنه يبدو أن الناصر لم يدفع أثماناً بهذه الضخامة إلا

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨٧ .
ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ٢٩٦ أ ، ب .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨ — ٤٠ ، ج ٤ ص ١٣٨ — ١٣٩ .
(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٥ .
الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .
(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ، ص ٥٢٥ .

مرتين وذلك حين اشترى صرغتمش بخمسة وثلاثين ألف درهم فضلا عن تشريف أستاذه ومسامحته فى عدة مقررات (١) ، وحين دفع مائة ألف درهم فى شراء ملكتمر الحجازى (٢) لما اشتهرا به من جمال الخلقة وطول القـامة وحداثة السن (٣) .

وجرى العرف أن يشترى السلطان المماليك الجدد من أموال الدولة (بيت المال) ، وهو الذى يتولى عتقهم : فاذا حدث أن توفى سلطان من السلاطين ولديه من المماليك من لم يعتق ، اشتراهم السلطان الجديد مرة أخرى ، على أن يذهب جزء من ثمن الشراء لأسرة السلطان المتوفى (٤) . ويتعلق بهذا الموضوع ما ورد من نصوص عما جرى حين عزل السلطان الناصر محمد بن قلاون نفسه عن السلطنة سنة ٧٠٩ . إذ بعث السلطان المظفر بيبرس إلى الناصر بالكرك يطلب إليه إرسال المماليك الذين عنده لأنه اشتراهم من بيت المال(٥). فأثار بيبرس بذلك مسألة فقهية وهى أن الناصر اشترى جميع مماليكه من بيت المال ، وليس له الحق من الناحية القانونية فى الاحتفاظ بهم بسبب عزله عن السلطنة . ولما عاد الناصر إلى السلطنة سنة ٧٠٩ استدعى الفقهاء وأقام عندهم البينة بأن جميع مماليك السلطان المظفر بيبرس وجميع ما وقفه من الضياع والأملاك اشتراه من بيت المال ، فوافق القضاة على ذلك، وتقرر تصفية تركة المظفر بيبرس، واستوفى بيت المال ماله من حقوق عنده (٦) .

ويرسل السلطان مشترواته من المماليك إلى الطباق حيث ينزل كل منهم فى

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ٥٣٦ .
(٢) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٥٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٥٢ .
المقريزى : الخطط (بولاق) جـ ٢ ص ٤٠٤ .
(٣) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٦ .
(٤) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٦٧٢ .
المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٧٧ أ ، ٤٠٤ ب .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٥٣ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ، ص ٢٥٤ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ، ص ٢٥٧ .

طبقة جنسه ليتلقى التعليم الديني والحربي . وقامت الطباق بساحة الإيوان بالقلعة لسكنى المشتروات من المماليك وتعليمهم ، وربما ظل المملوك مقيما بها بعد عتقه ، واشتملت كل طبقة على عدة مساكن تتسع لألف مملوك (١) . ومن المعروف أن الظاهر بيبرس بنى بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ،وأنشأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة ، وشيد جواره طبقة للمماليك (٢) ، وسار على سنته فى إنشاء الطباق من جاء بعده من السلاطين ، غير أنه يبدو أن الناصر محمد بن قلاون حرص على أن تكون الطباق فى مكان واحد ، فأمر بهدم ما يقع بينها من المبانى والقصور ثم جمع فيها فئات المماليك السلطانية جميعاً ،وجعلها الظاهرى اثنتى عشرة طبقة (٣) على الرغم من أن المصادر المملوكية المعاصرة ذكرت من أسماء الأطباق ما يزيد كثيراً عن هذا العدد ، مما يرجح أنها لم توجد كلها فى وقت واحد . بل طرأ عليها كثير من التغيير والتعديل ، وربما تغير بعضها إلى اسم آخر . وهذه الأطباق التى تردد ذكرها فى المصادر المملوكية هى : الرفرف ، والطازية والزمام ، والأشرفية ، والحوش ، والغور والمقدم ، والصندلية ، والخازندار ، والميدان ، والمستجدة ، والقاعة ، وقراجا ، والأربعين ، ومرجان الخازندار ، والحروب ، والطبقة البرانية . ويتبين من ذلك أن عدداً كبيراً من الأطباق حمل أسماء طواشية أو أسماء وظائف تولاها أشخاص معينون على شئون هذه الأطباق (٤) .

ويكاد المقريزى ينفرد عن سائر المؤرخين بشرح تربية المماليك فى الطباق بالقلعة ، وخلاصته أن الرسم كان فى أول عهد السلاطين المماليك ألا تجلب التجار سوى المماليك الصغار . فأول ما يبدأ به فيما اصطلح العرف على تسميته

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٣ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٨٨ .
الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٢٧٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

(٤) العرينى : نظام الفروسية ص ٥٥ — ٥٧ .

يرسم الكتابة (١) : هو أن يحفظ المملوك أجزاء من القرآن الكريم ، ولكل طائفة من المماليك فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ فى تعليمها القرآن والخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار . فاذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار إلى سن البلوغ ، قام معلم بتعليمه أنواع الحرب : من رمى السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف ونحو ذلك . وإذا ركب المماليك إلى لعب الرمح لا يجسر جندى ولا أمير أن يدنو منهم .

وينتقل المملوك بعد تمرينه وعتقه إلى الخدمة ، فيتدرج فى أطوارها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء : فيبلغ ذلك بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه : وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده فى رماية النشاب . وجنح بعض المماليك إلى الدراسة الفقهية أو غيرها من الدراسات المدنية فصار منهم الفقيه والأديب والشاعر والحاسب .

وكيفما كان الأمر اعتنى السلاطين بتربية المماليك فى هذه الأدوار الأولى من حياتهم : فجعلوا عليهم أزمة من الخـــدم وأكابر من رؤساء النوب ، يفحصون عن حال الواحد منهم : ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته . فاذا علم أحد منهم أن مملوكاً من المماليك اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين والدنيا ، قابله على ذلك بعقوبة على قدر جرمه.

وأجرى السلاطين لطباق المماليك الرواتب الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلوى والفواكه والكساوى ؛ وتكون كسوة المملوك عند نزوله بالطباق من الثياب القطنى البعلبكى ، ومن الثياب الكتان الخام المتوسط : فضلا عن المعاليم من النقود . ثم رخص السلطان برقوق للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج : فنزلوا من الطباق إلى المدينة وتزوجوا من نسائها ، غير أنهم لم يلبثوا أن أخلدوا إلى البطالة والعافية ونسوا حياة الطباق وصرامتها ، ثم تلاشت الأحوال وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها ، لتفضيل المماليك للراتب النقدى أيام السلطان فرج

---

(١) المقصود برسم الكتابة تعليم المملوك ، والسر فى ذلك أن أكثر المشتريات فى هذا العصر الأول من المماليك الصغار ، ولذلك سموا المماليك الكتابية (انظر المقريزى : الخطط — بولاق جـ ٢ ص ٢١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٥٣) .

ابن برقوق فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المصلوق عجزاً عن شراء اللحم (١) .

ثم تطور الجلب من المماليك فأصبح من الرجال من أرباب الحرف وممن ضاق به العيش فى بلاده ، وهبط مستوى تعليم المماليك سواء فى الدين أو الفنون الحربية ، ورأى السلطان فرج أن يترك المماليك الكبار وشأنهم ، فتغيرت الأحوال ، وصار المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم ، فكان ذلك من عوامل خراب مصر والشام (٢) .

وقام على تعليم الفروسية للمماليك معلمون اشتهروا بإجادة فنونها المختلفة من الطعن بالرمح والضرب بالسيف والرمى عن القوس ، وألف بعض هؤلاء المعلمين والأساتذة كتباً تناولت أصول الفروسية وآدابها ومراحل التعليم الحربى ، والطرق المختلفة لتلقين المتعلم أساليب الفروسية ، وممارسة الألعاب التى تساعد على الاتقان والإجادة مثل الرمى فى القبق والقيغج ولعب البرجاس والصوالجة وسوق المحمل ، فضلا عن تعرف الأدوات الحربية .

فنى الرماية مثلا يبدأ الأستاذ فى تعليم الرمى لتلاميذه من المماليك باتخاذ قوسين لينتين ، يطرح إحداهما بين يدى المتعلم والأخرى بين يديه ، فيبدأ أولا بتعليمه كيف يقبض ، وكيف يمد بالأصابع الثلاثة حتى يصح قبضه ، ويتطلب ذلك وحده أياماً ومراتاً . ثم يعقد الأستاذ على الوتر من غير سهم ويشد أصابعه عليه حتى يستقيم عقده ، ويتبعه المتعلم فى ذلك من غير رمى ، فيطلق الوتر فارغاً أياماً حتى يصح إطلاقه . ثم يأخذ الأستاذ فى تعليم المملوك إطلاق السهم من القوس بغير ريش ، فلايزال به حتى يعلمه التفويق والاحكام فى الرمى وذلك بالتدرج رويداً رويداً من قوس التعليم اللينة إلى قوس أقل ليونة حتى يبلغ خمس أقواس متفاوتة فى القوة ، وتكون الخامسة هى الصالحة للعمل فى الميدان . فاذا تمكن المتعلم من الرمى عليها ، أخذ فى شد القسى الشديدة ونزعها جهد طاقته ، وتمرس فى استخدامها ليلا ونهاراً . وعلى المتعلم أن يسمى عند الابتداء ويكبر عند الإطلاق ويصلى على رسول الله بعد ذلك ، وعلى الأستاذ

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ – ٣٤٨ .
السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٤ – ٥٢٥ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .

أن يشكر تلاميذه ويشجعهم ليزدادوا رغبة فى التحصيل والتعليم ، فيروض تلامذته ويؤلف بينهم ويحرضهم على العمل ، ولا يوبخهم إلا خلوة ليجتهدوا فى الطلب ويكثروا فى احترام الموضع الذى خص بالرمى ، ولا يرضى لأحد أن يتكلم فيه بفاحشة لأنه مسجد (١) .

فإذا صح رمى المتعلم ورمى الإماج أياماً على غير علامة أو هدف ، — والاماج هو رمية السهم قاب قوس واحد (٢) — خرج إلى الصحراء ورمى فى الفضاء على غير علامة كذلك . فاذا رأى سهامه فى الهواء صحيحة مستوية غير مضطربة رجع إلى الأستاذ ليعلمه الرمى إلى العلامة ، وذلك بأن يمرنه على الوقوف تجاه العلامة منحرفاً قليلا ، ويجعل العلامة محاذية لعينه اليسرى ؛ وركبته اليسرى واستواؤها على أصابع رجله قبالة العلامة طولا ، ورجله اليمنى عرضاً ؛ ويجعل بين الرجلين فرجة قدرها ذراع ، فيكون عقب الرجل اليسرى قبالة بياض الرجل اليمنى من داخلها ، ويعتمد على رجله اليمنى ويخف برجله اليسرى(٣) ويرمى المتعلم أول يوم خمسة أرشاق وأقل من ذلك على قدر قوته وإحكام صنعته ، ثم يعمل على زيادة الرمى حتى يمهر فى ذلك وتكثر صوائبه (٤) .

وعلى الرامى أن يتعرف العيوب والآفات التى تعرض للرماة فى نظرهم وبدنهم ؛ وعليه أن يقف على علل القسى والنشاب ومعرفة إصلاحها ، كما ينبغى أن يكون على علم بتقويم نشابه وقوسه وعقد أوتاره وإصلاح عيوبها ، فضلا عن معرفة أحكام الرهن والرمى الحلال والسباق والمناضلة ، فاذا عرف ذلك صار رامياً ودخل فى جملة الرماة (٥) .

وعلى هذا النحو سار مؤلفو كتب الفروسية فى شرح قواعدها وأساليب تعليمها للمتعلمين حتى ينتهوا من دراستهم .

---

(١) كتاب بغية المرامى ص ٢٨ ب .

(٢) ابن القيم : الفروسية ص ١٠٧ .

La distance à laquelle un arc peut lancer une flèche (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٣) كتاب بغية المرامى ص ٤ ب .

(٤) علم الفروسية ص ١١١ ب (مخطوطة بدار الكتب رقم ٥ م فنون حربية) .

(٥) كتاب بغية المرامى ص ٢٧ ب .

وفى أثناء المراحل المختلفة لتعليم المماليك فى الطباق أشرف على هذه المراحل كلها جماعة الطواشية ، لأنهم المسئولون عن سلوك المماليك وتربيتهم ومراقبة عدم اختلاط الكبار بالصغار منهم .

وجرت العادة فى مراحل التعليم بالطباق أن لا يتناول المملوك الصغير راتباً أو أجراً ، ولا يملك سلاحاً ولا حصاناً ، ولا يحصل على إقطاع ، فاذا تم عتقه يخرج السلطان له خيلا وقماشاً (١) وبذا يصبح من المماليك السلطانية ، ويحصل من السلاح خاناه على جميع أنواع الأسلحة من السيوف والقسى والنشاب والرماح والدروع والقرقلات والأطبار وغيرها (٢) . أما الخيل فتأتى من اصطبل الجوق الذى يختص بخيول الخرج (٣) . وعند العرض يحصل هذا المملوك على إجازة بانتهاء تعليمه يطلق عليها عتاقة . لأنها تشير إلى عتقه ، وإلى أنه غدا جندياً مدرباً . ويطلق على هذا العرض الذى يعتق فيه المماليك بعد الفراغ من مراحل تعليمهم المختلفة « خرج » أى التخرج . غير أنه لا يوجد بالمراجع المعروفة ما يوضح تماماً مدة مراحل التعليم للمملوك الكتابى ما عدا ما ذكره ابن تغرى بردى فى عتق ططر زمن السلطان برقوق بأن « عادة برقوق جرت بأنه لم يخرج لمماليكه خيلا إلا بعد إقامتهم فى الأطباق مدة سنتين . وأنه لا يخرج فى سنة واحدة خرجين . وإنما يخرج فى كل مدة طويلة خرجاً من مماليكه ؛ ثم يتبعه بعد ذلك بمدة طويلة بخرج آخر ، وهذه كانت عادة ملوك السلف (٤) » . ومع ذلك لم يحفل سلاطين الدولة المملوكية الثانية بمدة تعليم مماليكهم ؛ بل اهتموا بتخريجهم أفواجاً بعضها تلو بعض فى سرعة غير محمودة ، وكان هذا عاملا من عوامل الضعف (٥) .

وجرت العادة بأن يعتق المماليك جماعات ، ولم يحدث أن مملوكاً أعتق

---

(١) المقصود بالقماش هنا رداء الخدمة وما يرتبط به من الأدوات الحربية كالسيف والتركاش وغيرهما (انظر .Mayer : Mamluk Costume p. 77)

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ .

(٣) الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ، ص ٥٠٩ .

(٥) العرينى : نظام الفروسية ص ٩٧ — ٩٨ .

بمفرده ما عدا جقمق الذى تول السلطنة فيا بعد ، وذلك لظروف استثنائية ، إذ أن أخاه جاركس القاسمى المصارع من أعيان خاصكية السلطان برقوق سعى عند السلطان ، فاشتراه من أحد الأمراء وجعله من المماليك الكتابية بطبقة الزمام ، ولم يستمر جقمق فى هذه الطبقة مدة طويلة ، بل أعتقه برقوق بمفرده بفضل ما لأخيه من مكانة عنده ، فصار من المماليك السلطانية ، وبذا نالته السعادة وارتقى فى الوظائف فى سرعة (١) .

وحرص السلاطين على ألا يعتقوا مماليكهم قبل سن البلوغ ، فيظل المملوك الذى يدخل الطباق فى سن مبكرة عدة سنوات حتى يعتق . ويعلق المملوك أهمية كبرى على عتقه وفقاً لقواعد الشريعة : فاذا تبين أن مملوكاً من المماليك لم يجر عتقه على هذا النحو ، فيعتبر باقياً فى رق من اشتراه وملكه أو فى رق ورثته ولو بلغ فى هذه الحالة رتبة أميرمائة . ومن هذا القبيل ايتمش الاسندمرى الذى بلغ رتبة أميرمائة زمن السلطان برقوق ، ولما تبين أنه ما زال فى رق ورثة الأمير جرجى نائب حلب ، اشتراه برقوق من جديد وأعتقه وجعله أتابك العساكر (٢) .

الواضح الآن أن طبقة ممتازة نشأت بمصر من طوائف المماليك ، وتعين على الفرد منهم أن يكون فى الأصل رقيقاً ، وأن تتحقق فيه شروط خاصة ، منها أنه لا يكون قبل جلبه إلى مصر مسلماً أو من أصل إسلامى ، إذ أن الرق لا يجرى على المسلم ، كما ينبغى أن يكون المملوك مولوداً خارج الدولة المملوكية ببلاد القفجاق تفضيلا فى العصر المملوكى الأول أو ببلاد القوقاز والجركس فى العصر المملوكى الثانى ، وأن يكون جلبه فى سن مبكرة ، وعلى الرغم من أن هذه الشروط لم يعتد بها فى كثير من الحالات ، فانها ظلت موضع تقدير بدليل أن أبناء المماليك الذين ولدوا فى مصر وغيرها من بلاد الدولة المملوكية لم يعتبروا من الطبقة الممتازة ، وبدليل أحوال الوافدية والمستأمنين فى العصر المملوكى الأول وأحوال جماعات الهجرات التى جاءت إلى مصر فى العصر المملوكى الثانى .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ٩٩ .

ومن المعروف أن هؤلاء وأولئك صاروا فى أجناد الحلقة أقل شأناً من المماليك السلطانية الذين اتخذوا وسائل كثيرة للمحافظة على طبقتهم وامتيازاتها .

على أن الرق فحسب لم يكن كفيلا بنجاح المملوك ، ممثلا إذا اشترى أحد العوام مملوكاً من المماليك ، فلا يواتيه حظ المملوك الذى يشتريه السلطان أو الأمير ، والمعروف كذلك أن مملوك الأمير يقل فى الرتبة والمكانة عن مملوك السلطان ، وأن من العقوبات الصارمة التى يفرضها السلطان على أحد المماليك السلطانية أن ينقله إلى خدمة الأمراء ، واتبع سلاطين المماليك هذه الخطة معظم الأحيان لإبعاد مماليك السلاطين السابقين لهم ، فوزعوا غير المرغوب فيهم على الأمراء حتى يخلو الجو للسلطان ومماليكه السلطانية (١) .

والمماليك السلطانية الذين تلقوا تعليمهم وتدريبهم بالطباق إنما يتخرجون جنوداً فحسب ، فالعتاقة التى يحصلون عليها عند الانتهاء من هذا التدريب ليست إلا شهادة تمنح للمملوك وتشير إلى أنه أصبح حراً ، وأنه أتم تعليمه . ويتضح من تراجم الأمراء والسلاطين التى وردت فى المصادر المملوكية أنهم تساووا جميعاً فى المرحلة الأولى من حياتهم ، إذ جلبهم التجار أرقاء ودخلوا فى ملكية أحد السلاطين ، ثم نزلوا بالطباق حيث تلقوا تعليمهم الحربى ، ثم نالوا العتاقة وحصلوا على الخيل والقماش فبلغوا بذلك مرتبة الجندية .

ويختار السلطان من هؤلاء المماليك بعد تخريجهم من الطباق عدداً يلحقهم بخدمته ويختص بهم لصفات فيهم ، ويطلق على هؤلاء الخاصكية فيتدرجون قبل تأميرهم فى وظائف الجمدارية والسلحدارية والبجمقدارية ، ويسيرون فى سلم الترقى أسرع من سائر المماليك السلطانية (٢) .

وظلت قواعد تربية المماليك التى وضعها سلاطين الدولة المملوكية الأولى مرعية سائدة حتى أوائل العصر المملوكى الثانى ، غير أنه أصابها من التغيير والتبديل ما جعل المؤرخين يطلقون على أولئك السلاطين الأوائل ملوك السلف ،

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٦٦ ص ٣٤٨ ، ٣٥٢ .
ابن تغرى بدوى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ص ٤٩ ، ٢٧٧ .
(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ١٠٧ .

وإذا أطروا عملا قام به سلطان من سلاطين العصر المملوكي الثانى فان إطراءهم يكون بسبب مطابقة هذا العمل للقواعد القديمة [١] .

وجرى التقليد منذ قيام الدولة المملوكية الأولى على أنه إذا تأمر أحد من المماليك ، نزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش وأوقدت له شوارع القاهرة ، فيسير إلى المدرسية الصالحية ببين القصرين ويحلف عند قبر الصالح أيوب بالقبة بجوار هذه المدرسة . ويحضر تحليفه حاجب الحجاب وخاصكية السلطان ، ثم يمد السماط السلطانى لمن حضر وشارك الاحتفال بتنصيب الأمير ، ثم يخرج الأمير فى موكب من القبة الصالحية إلى القلعة [٢] . وأدخل سلاطين بيت قلاون تقاليد وقواعد جديدة : منها اتخاذ المدرسة المنصورية مكاناً يجرى فيه الاحتفال بتنصيب الأمير . ومنها ركوب الأمير فرسه تحت السنجق يحف به الأمراء ، وطلوع الأمير إلى حضرة السلطان بالقلعة حيث يبوس الأرض ثم يقبل يد السلطان [٣] .

وحرص كل سلطان أن يجعل الأمراء من مشترواته ليضمن ولاءهم له والمحافظة على ملكه ووضع هذه السياسة الصالح أيوب ، وجرى سلاطين المماليك على هذه السنة [٤] .

على أن ترقية المماليك السلطانية فى وظائف الدولة وما يتبعها من الانتقال من رتبة إلى أخرى خضعت لاعتبارات مختلفة منها علاقة المملوك بالسلطان ، فالخاصكية أسرع المماليك فى الترقية . أما الاعتبار الثانى فهو العصبية والجنسية . وتجلب أهمية هذه القاعدة منذ أخذ نفوذ البرجية أو الجراكسة يشتد بعد عودة السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى السلطة للمرة الثانية بفضل ازدياد نفوذ الأمير بيبرس الجاشنكير ، فغدا نواب البلاد الشامية من البرجية وخجداشية بيبرس فقوى أمره بهم [٥] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٩٦ ، ٥٠٩ .
منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٧٨ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢١٩ .
المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .
(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٦٢ ص ٢٤٨ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ .
(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، ٦٧١ — ٦٧٢ .
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٦٨ ا .

وازداد شأن صلة القرابة فى دولة الجراكسة فأصبح القفز إلى الرتب العليا دفعة واحدة أمراً مألوفاً ، وساد فى هذا العصر المملوكى الثانى محاباة السلاطين وكبار الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والاقطاعات(١) فى غير نظام .

ومن الاعتبارات التى لها أهميتها فى الترقية أيضاً ما يرتبط به المماليك معاً من صلات الزمالة فى الرق والعتق والعمل والخدمة ، ويطلق على هؤلاء الرفقاء خجداشية أو خشداشية (٢) . وأثرت هذه الرابطة فى اختيار السلاطين ، فاذا تولى السلطان الحكم عمل للخشداشية كل حساب . ومن الأمثلة على ذلك ما اشتهر به السلطان أيبك من المداراة لخشداشيته والصبر الطويل على مناوءتهم له وسوء أخلاقهم (٣) . وحرص السلطان بيبرس الجاشنكير على تعيين خشداشيته نواباً فى الممالك الشامية (٤) . ولم يصل كمشبغا بن عبد الله الحموى اليلبغاوى إلى وظيفة أتابك العساكر بالديار المصرية زمن السلطان برقوق إلا لكونه خشداشه (٥) . واشتهر السلطان خشقدم بالعطف على خشداشيته فرقاهم إلى الوظائف العالية (٦).

ومهما يكن لهذه الاعتبارات المختلفة من أهمية فى ترقية المملوك فى وظائف الدولة . فان سلاطين المماليك لم يغفلوا ما للفروسية وإجادة الفنون الحربية من التقدير والاعتبار عند ترقية المملوك ولاسيما فى العصر المملوكى الأول . ففى أثناء مهاجمة السلطان بيبرس انطاكية سنة ٦٦٦ حدث أن تمكن جندى من أسر كنداصطبل عم هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وأحضره إلى السلطان فأعطاه بيبرس عشرة طواشية وأمره بحمل رفك كنداصطبل على سنجقه المملوكى الإسلامى (٧). وتأمر محمد بن أمير سلاح بكتاش الفخرى زمن السلطان قلاون لأنه اشترك رغم صغر سنه فى محاربة الأمير سنقر الأشقر الذى خرج على طاعة قلاون

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٤٣ ب ، ٤٥٦ ا ، جـ ٢ ص ٦٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٥ ب .

(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ١١٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٣٢ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٦٨ ا .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٧ ا .

(٦) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٠١ ، جـ ١٠ ص ١٦٤ .

(٧) العينى : عقد الجمان جـ ٥٥ ص ٥٣٩ .

وأعلن نفسه سلطاناً فى دمشق (١) . وأبى قلاون أن يستجيب لرجاء الأمير طرنطاوى نائب السلطنة بالديار المصرية فى الانعام بإقطاعية فى الحلقة على ولده وولد الأمير كيتغا الذى تزوج بابنته لأنه لم يرهما فى مصاف القتال يضربان بالسيف يوماً من الأيام (٢) .

ولم تعين المصادر المملوكية عدد السنوات التى يقضيها المملوك لارتقائه من رتبة إلى أخرى ، بل اكتفت بالإشارة إلى ضرورة مضى مدة لطبقة على قول ابن تعزى بردى . فمثلا بعد أن أتم المملوك شيخ تعليمه بالطباق ، وأخرج له السلطان برقوق خيلا وقماشاً وجعله فى حملة الحمدارية ، نقله برقوق بعد مدة لطبقة إلى الخاصكية ، ثم بعد مدة أخرى أصبح شيخ ساقياً ، وصارت له مكانة عند السلطان ، ثم صار أمير عشرة سنة ٧٩٤ ، ثم أمير عشرين ثم أربعين وبذا أصبح أمير طبلخاناه . ولما تعين الأمير ايتمش للوصاية على المملكة بعد وفاة برقوق أعطى للأمير شيخ سنة ٨٠١ تقدمة ألف وهى أعلى المراتب ، أى أن شيخاً استغرق فى سلم المراتب المملوكية بعد تأميره نحو ثمانى سنوات ، ولم يزل يناضل حتى بلغ كرسى السلطنة سنة ٨١٥ (٣) .

وليس الاقطاع هو كل ما يحصل عليه المملوك بعد عتقه من أرزاق : بل يتقاضى كذلك أنواعاً مختلفة من النفقات والرواتب فى أوقات معينة ، فمنها الجامكية وهى الراتب الشهرى الذى يصرف للمماليك السلطانية (٤) ، والنفقة وتمنح فى أوقات غير منتظمة وعلى الأخص قبيل تسيير الحملات الحربية ، فتعطى للجندى أو الأمير لينفق منها على تجهيز نفسه ومماليكه وخيله (٥). ومن النفقة كذلك ما يوزعه السلطان كذلك عند توليته السلطنة على الأمراء والأجناد ، ففى سنة ٨٠١ حصل المماليك السلطانية على نفقة سلطنة الناصر فرج (٦) .

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٦٣ ص ٤٨٠ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٥١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٨٩ ب

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨٧ .

(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٦٨٢ — ٦٨٣ ، ٨٨٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦ — ٧ .

وأعطى السلاطين النفقة فى غير هذا وذلك من الأوقات استجلاباً للقلوب، فجعل السلطان الناصر محمد بن قلاون لكل مملوك خمسمائة درهم وقرقل وخوذة ، وذلك سنة ٧٤٠ حين جمع الأمراء وحلف المجردين والمقيمين منهم لولده الأمير أبى بكر بعده (١) .

وحصل الأمراء والمماليك على الكسوة بالإضافة إلى الجوامك والنفقات. فى الغالب ، كان توزيع الكسوة عليهم سنوياً ؛ غير أنه ربما أخذوها على دفعتين فى السنة ، للصيف والشتاء (٢) . وفى العصر المملوكى الثانى جرى التقليد على أن يصرف السلطان ثمن الكسوة للمماليك (٣) . ومن بين الكلف السلطانية توزيع الأضاحى على المماليك فى كل سنة ، فضلا عما تقدمه الحواصل السلطانية للأمراء فى كل يوم من رواتب اللحم والتوابل والخبز والزيت والعليق (٤) . ويفرق السلطان الخيل على مماليكه ، وكل من مات له فرس دفع إليه عوضه ، وجعل السلطان للأمراء والمماليك فى كل سنة إطلاقات بالأعمال الجيزية لربيع خيولهم من القرط (البرسيم) ، وما يدفع إليهم من القرط يكون بدلاً من عليق الشعير المرتب لهم فى غير زمن الربيع (٥) .

وأشارت كتب الفروسية إلى أهمية قيام الفارس بإعداد فرسه باتخاذ ما يناسبه من أدوات الركوب كاللجام والسرج والركابين ، وتفقد سير الركاب

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ٤٩٩ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٥١ .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١١٣ .

ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٥٧ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٥١ .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥١ ، ٥٦ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٤ .

حرص سلاطين المماليك — ولاسيما فى العصر المملوكى الأول — على اقتناء الخيول الجيدة من بلاد البحرين وارمينيا الصغرى وشمال الشام والجزيرة وبلاد المغرب . انظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ٥٢٦ — ٥٢٧ .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٧٠ .

العينى : عقد الجمان جـ ٦١ ص ٣٥٨ .

والأبازيم ، واستخدام ما يصلح من اللبود للفرس عند القتال ، ومراعاة كفايتها لتغطية خاصرتي الدابة ، فضلا عن العناية بالبدادين والمرشحة لما لها من الأهمية في سرعة الفرس وخفته (١) ، وتلبس الخيول عند القتال البركستوانات والوجوه الفولاذ (٢) .

أما عدة الفارس الحربية فتشمل أدوات الدفاع وأدوات القتال ، فمن أدوات الدفاع الدرع وهو جُبّة من الزرد المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام (٣) ويلبس عادة فوق قميص . وقد يرتدى الفارس درعين ، وبعض الدروع مفرط في الطول حتى يبلغ الأرض ويغطى قوائم الفرس ويطلق عليه زردية سابلة أو مسبلة (٤) ويختلف الجوشن عن الدروع بأن الدرع مكون من حلقات متصلة في شكل سلاسل ، بينما تكون الجوشن من حلقات يفصلها عن بعضها قطع صغيرة من الصفائح ، وساد استعمال الجواشن في العصر المملوكى الأول ، ولم يستعملها إلا كبار الأمراء في العصر المملوكى الثانى لارتفاع أثمانها(٥) ومن تعاليم الفروسية أن يدمن صاحب الجوشن لباسه بنفسه ، حتى يسهل عليه لبسه ، وأن يعلم تواليفه وخياطته ، وأن يكون معه سيور وخيوط وحلق وأبازيم وشفاه ، وأن يتعاهده كل يوم عند نزوله وإقامته ، وأثناء الشتاء والمطر والبلل، يميطه عن علائقه ورباطه لئلا يفسد ، وأن يجعل الفارس تحت الجوشن حشوة حتى يدفع عنه الحر والبرد وضرب العمود (٦) . وفي العصر المملوكى ساد عمل القرقلات من الصفائح المتخذة من الحديد والتي يتصل بعضها ببعض (٧) ،

(١) كتاب علم الفروسية ١٧٨ ، ب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م) .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٦ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .

(٤) Mayer : Saracenic Arms and Armor, p. 2 (Ars Islamica Vol. X. 1943).
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠٨ .

(٥) Mayer : Op. Cit. p. 3

(٦) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٥ ب ، ٤٦ ا (مخطوطة رقم ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .

واشتهرت القرقلات المحفوظة بالزردخانات السلطانية بأنها مغشاة بالديباج الأحمر والأصفر ، ولم يخرج القرقل عن أنه زردية بغير أكمام مصنوعة من صفائح حديدية ومبطنة بالحرير (١) .

أما غطاء الرأس فقد ميّز القلقشندى بين نوعين : البيضة وهى آلة من حديد أومن زرد توضع على الرأس لوقايته من الضرب . وليس بها ما يرسل على القفا والأذان ، والمغفر وهو كالبيضة ، غير أن فيه أطرافاً مسدولة على قفا اللابس (الدارع) وأذنيه وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضاً (٢). والخوذة تطلق على كل ما يقى الرأس دون أن تدل على شكل من الأشكال .

والترس هو من الأدوات التى يتقى بها المحارب الضرب والرمى عن الوجه(٣) ويصنع من الخشب أو الحديد أو الجلد . وللترس حمائل وسموطان ، يدخل الفارس رأسه فى وسط الحميلة ويجعل يده فى سموط ، ويضبط بالإبهام السموط الدائر (٤) . والتروس على أشكال منها المسطح والمستدير ومنها المستطيل فى أعلاه المحصر الوسط مما يلى أعلاه (٥) . واستخدم الفارس الساعدين والساق موزا لحماية يديه وساقيه (٦) . أما الخف فبطن بالزرد كذلك (٧) . وأشهر أسلحة الهجوم السيف والرمح والقوس : فيشد الفارس السيف والتركاش فى وسطه ، ويأخذ الطارقة بشماله والرمح بيمينه ، ويجعل الخنجر فى خفه (٨) . وينصح معلمو الفروسية بأن يعمل الفارس على أن يتوافر له من الأسلحة ما يضرب ويطعن به ويرمى عنه (٩) ، فيفيد من العمود فى ضرب أنف الرجل ومقدم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢ . Mayer : Op. Cit. p. 4.
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٥ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .
(٤) كتاب الجهاد والفروسية ص ٣٤ ا (مخطوطة ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .
(٥) كتاب الجهاد والفروسية ص ٣٩ ب .
(٦) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٥ ا .
(٧) المقامة الصلاحية ص ١١ .
(٨) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٧ ب .
كتاب علم الفروسية ص ١١ ب .
(٩) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٦ ا .

رأسه وعضده وخطم دابته (١) ؛ أما الوهق فهو المقلاع ويعلقه الفارس فى مقدم قربوس سرجه من جهة اليمين (٢) ، والطبر هو البلطة وموضعه حلقة أعدها له الفارس فى سرج فرسه (٣) .

ويقوم كاتب الجيش بإضافة كل جماعة من المماليك السلطانية إلى مقدم من أعيانهم ، ويميز أرباب الوظائف منهم من السلاحدارية والجربدارية والدمحدارية والجمقدارية ، والزردكشية والبندقدارية ، ومن السقاة والجمدارية والخزندارية والحراس والبشمقدارية وغيرهم ، ويضيف كل جماعة من كل طائفة منهم إلى شخص معين من جملتهم ، وأما المماليك الكتابية فينتسب كل جماعة منهم إلى طبقة مقدمها من الطواشية ، وينسب المماليك البرجية إلى مساكنهم ومقدمهم ، والأوشاقية إلى المقدم عليهم من الطواشية . ويرجع سائر المماليك السلطانية إلى مقدمهم الكبير ، ولا يكون فى الغالب إلا من الطواشية الأمراء (٤) ؛ وهو الذى يعين مواقفهم فى أوقات البيكار والحرب وفى الأسفار حول الدهليز السلطانى (٥) .

على أن بيبرس المنصورى الداوادار ، وهو ممن اشترك فى مقاتلة التتار فى وقعة حمص سنة ٦٨٠ ، أورد وصفاً لما جرى من تعبئة الجيش المملوكى وقتئذ ، فأشار إلى أن السلطان قلاون حين علم بقدوم التتار إلى حارم وامتلاكهم البلاد ، أمر الناس أن يلبسوا فى كل يوم عدد الحرب ويركبوا ويصطفوا ليتمرنوا على الحرب ، ثم أصلح ما جرى من نزاع بينه وبين سنقر الأشقر صاحب صهيون على أن يشترك بمن معه من الجنود والأمراء فى القتال ، وضرب السلطان دهليز الحرب الأحمر ، وحين جاءته الأخبار بحركات العدو وعددهم وعدتهم رتب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين ، وبات المسلمون على

---

(١) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤١ ا .
(٢) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٨ ب .
(٣) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٧ ب .
Mayer : Mamluk Costume p. 47.
(٤) النويرى : نهاية الأدب جـ ٨ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ١٧٣ ا .

ظهور الخيل لابسين لامات الحروب مدرعين هم وخيولهم ، وكتب صاحب حماه إلى السلطان بأن عدة جيش التتار ثمانون ألف مقاتل ، تحت القلب منها أربعة وأربعون ألفاً وهم طالبون القلب ، وميمنتهم قوية جداً ، ونصح بتقوية ميسرة المسلمين والاحتراز على السناجق (١) .

وجرت وقعة حمص يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠ ، وتكونت ميمنة جيش السلطان قلاون من عسكر حماه ، وبعض أمراء الألوف ومضافيهم من أمراء الطبلخانات وأصحاب العشرات ومقدمى الحلقة وأجنادها وغيرهم من العسكر ، ونائب الشام وأمراء الشام والعسكر الشامى ، وفى رأس الميمنة أمراء عربان البلاد الشامية ومن انضم إليهم ، أما الميسرة فشملت بعض أمراء الألوف ومضافيهم كذلك ، وفى رأس الميسرة التركمان بجموعهم وعسكر حصن الأكراد (٢) . وفى الجاليش وهو مقدم القلب نائب السلطنة ومضافوه من الأمراء والمغاردة ومماليكه وأجناده وبعض المقدمين ومن معهم من المماليك السلطانية . ووقف السلطان تحت السناجق وحوله مماليكه والزامه والسلحدارية والسنجقدارية والطبردارية (٣) . وبدأ القتال بتركيز العدو هجومه على ميمنة جيش المنصور ، فثبتت العساكر للقتال والتفوا على التتار فمالوا على ناحية جاليش (مقدم) القلب ، غير أنهم منوا بالكسرة والهزيمة وانهزم ملكهم منكوتمر وولى هارباً (٤) . فتكون قلب الجيش من المماليك السلطانية وهم الذين تعرضوا للصدمة الأولى من العدو المهاجم وهم الذين قرروا مصير المعركة .

على أن نظام الفروسية المملوكية حمل فى طياته بذور الانحلال والفناء حتى إذا تجمعت هذه البذور أواخر الحكم المملوكى لأسباب سياسية واقتصادية وحربية فقد هذا النظام روحه وجوهره ، وظل محتفظاً بالمظهر الخارجى حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادى .

---

(١) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ١٧٢ — ١٧٣ .
(٢) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ١٧٤ — ١٧٥ .
(٣) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ١٧٦ .
(٤) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ١٧٦ .

فالواضح أن القواعد التى قامت عليها الفروسية المملوكية ترتكز إلى ما حصل عليه المماليك من تدريب حربى ودينى أثر فى خلقهم وحدد سلوكهم ومستقبلهم ، فضلا عما التزمه هذا النظام من ولاء المملوك وإخلاصه لسيده ووفاقه فى الرق والعتق ، وتقدير كفاءة المملوك عند ترقيته فى الرتب والوظائف ، وطول المدة فى الطباق حتى تتأصل فى نفس المملوك الصفات التى تخلق منه فارساً ملماً بأصول الفروسية .

غير أن هـذه القواعد أصابها كثير من الخلل والاضطراب : فلم يعد السلاطين الجراكسة يحفلون بأن تطول مدة بقاء المملوك فى الطباق ، فيخرج مفتقراً إلى التدريب الجيد والخلق القويم والولاء الصحيح . يضاف إلى ذلك كثرة جلب البالغين من المماليك الذين جاءوا بعد أن تكونت أخلاقهم وامتهنوا حرفاً فى بلادهم ، وكثير من هؤلاء المجلوبين يمتون بصلة القرابة والنسب للسلاطين والأمراء فى مصر ، فضـلا عن هجرة عدد كبير بسبب ما حاق ببلادهم من خراب نتيجة إغارات تيمورلنك . فنقلوا معهم مساوءهم ورذائلهم ، فغدوا مصدراً للشر والفتنة فى البلاد ، ونسب إليهم المقريزى ما أصاب البلاد من خراب (١) .

ومن العوامل التى أضعفت هذا النظام ارتباطه بنظام الحكم ، إذ تأثر ولاء المملوك بما أصاب نظام الحكم من هزات وضربات . فالمحاولات التى قام بها السلاطين فى العصر المملوكى الأول لجعل الحكم وراثياً لم تحظ بالموافقة الإجماعية من الأمراء ، ومن الأمثلة على ذلك ما بدا من مقاومة الأمراء لحكم ابن ايبك ولحكم السعيد بن بيبرس واضطرار الناصر محمد بن قلاون إلى التخلى عن السلطنة لبعض الأمراء الأقوياء (٢) . وفى عصر الجراكسة أهمل مبدأ الوراثة نهائياً مع المحافظة على مهزلة تولية ابن السلطان المتوفى مدة قصيرة جداً ، فأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا ولاءهم من سلطان إلى آخر . ففى عصر الجراكسة أصبح المماليك المشترون هم الدعامة الوحيدة التى يرتكز عليها السلطان فى مقاومة

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٣ – ٢١٤ .
(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ٢٣٦ .

الفئات الأخرى من المماليك السلطانية ، وعلى الأخص مماليك السلاطين السابقين المعروفين بالقرانيص . فالسلطان ومشترواته هم الذين يتمتعون بالسلطان والنفوذ والثروة ، إذ جرى السلطان على أن يفسح لهؤلاء المشتروات الطريق ليظفروا بالقوة والسلطة، فضلا عن الإكثار من عددهم ، ولعل هذا هو السر فى أنه كلما ارتقى سلطان جديد دست السلطنة أجرى عقب توليته حركات تطهيرية عنيفة ترمى إلى التخلص من مماليك السلطان السالف له فى الحكم ، فأقصاهم عن وظائفهم وألقى بهم فى السجن أو نقلهم إلى جهات نائية أو إلى خدمة الأمراء. ونجم عن ذلك أن تكون من المماليك السلطانية طوائف لم تكن متجانسة ولا متماسكة لأنها من عناصر مختلفة ومتعادية تدين بالولاء إلى سلاطين مختلفين ، ولم تجتمع هذه الطوائف إلا على كراهية المشتروات . وتوافرت أسباب هذه الكراهية زمن الجراكسة لقصر عهد سلاطينهم ، فتكونت منهم عدة تشكيلات انتمى أفرادها إلى السلاطين الذين اشتروهم وجلبوهم مثل الاينالية والحكمية (١) والخشقدمية ، وانصرف الاجلاب إلى إهمال الواجبات الحربية بعد أن ضمنوا لأنفسهم مصادر الثروة والسلطة والنفوذ مما جعل السلاطين يعتمدون فى حملاتهم الحربية على القرانصة برغم عدائهم للمشتروات الجلبان وحنقهم عليهم لما استأثروا به من الاقطاعات والرتب والوظائف . وتجلى ذلك منذ منتصف القرن التاسع الهجرى زمن السلطان اينال ، إذ طفحت المصادر المملوكية بأخبار ثورات الجلبان ونزاعهم مع العناصر المملوكية الأخرى فى الجيش ، فضلا عن استبدادهم بأمور الدولة وانقياد السلطان لهم (٢) .

ويشير ابن تغرى بردى إلى ما وصلت إليه حال المماليك من الانهيار فى القرن التاسع الهجرى بأنهم مع قلتهم وضعف بنيتهم وعدم شجاعتهم ، غدا شرهم فى الرعية معـــروفاً ، ونفعهم عن النـــاس مكفوفاً ، على الرغم من أنه لم يقع فى هذا القرن لقاء مع خارجى غير وقعة تيمور وغزو جزيرة قبرص ،

---

(١) العرينى : نظام الفروسية ٢٣٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ .
النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٤١ ، جـ ٧ ص ٤٥٢ ، ٤٦٢ .

ويذكر ابن تغرى بردى عن ضعفهم وعجرفتهم وعدم خبرتهم الحربية بأن الواحد منهم أنفه فى السماء ، ولا يهتدى لمسك لجام الفرس ، ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف ، جهادهم الإخراق بالرئيس ولا مروءة لهم (١) .

ووضحت أحوال الانحلال المملوكى تماماً حين أخذ السلطان الغورى يعد العدة من جانبه لمواجهة الجيش العثمانى سنة ١٥١٦ ، فحاول تسوية مشاكله الداخلية التى نشأت عن ثورة مماليكه السلطانية من الجلبان الأحداث والقرانيص القدماء بسبب تأخر جوامكهم . وهال الغورى أن ينغمس مماليكه فى الفتنة مع ما بالدولة من حاجة إلى الانصراف لشئون الحرب المنتظرة ، ومع ما بها من فقر وارتباك مالى بسبب استحواذ البرتغاليين على معظم تجارة الهند وأرباحها من أواخر أيام قايتباى ، ولم يبق لدى الغورى إلا أن يترضى مماليكه ففرق فيهم الأموال لشراء ما يلزم من آلة الحرب (٢) . غير أنه ما لبث أن وقع الشقاق والنفار بين الفئات المختلفة من المماليك فى وقعة مرج دابق بعد أن أشاع خايربك بين المماليك القرانصة أن السلطان أمر مماليكه الأجلاب ألا يتقدموا للقتال حتى يصدر أمره إليهم ، وفسر القرانيص ذلك بأنه خطة دنيئة من السلطان الغورى ليجزيهم وعدهم بما ارتكبوا فى حقه فى سابق السنين ، فكان ذلك سبباً كافياً لتثبيط الهمم وحلول الهزيمة بعد فرار جنود الميمنة والقلب (٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٣ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٩ .

المصادر والمراجع

ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم

تاريخ الدول والملوك — الأجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ (١٩٣٦ — ١٩٤٢) — نشرة الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين (منشورات الجامعة الأمريكية ببيروت) .

ابن إياس : محمد بن أحمد المصرى الحنفى

بدائع الزهور فى وقائع الدهــور — بولاق ١٣١١ — الجزءان الرابع والخامس — مطبعة الدولة باستانبول ١٩٣١ ، ١٩٣٢ .

ابن بكتوت الرماح : محمد

كتاب الفروسية وعلاج الخيل (ضمن مجموعة رسائل برقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن .

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (الأجزاء ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ : ١٩٣٦ ، ١٩٤٦ الأجزاء ٥ ، ٦ ، ٧ نشر Popper بكاليفونيا ١٩٣٢—١٩٣٥ ، ١٩١٥ — ١٩٢٣ ، ١٩٣٦ — ١٩٣٩) .

(٢) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى — مخطوطة رقم ١١١٣ تاريخ ٣ مجلدات — بدار الكتب المصرية .

(٣) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور — نشر Popper بكاليفورنيا ١٩٣٠ ، ١٩٣١ .

ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على

الدرر الكامنة فى أعيان المــائة الثامنة ٤ أجزاء حيــدر آباد — الهند ١٣٤٨ — ١٣٥٠ .

ابن يعقوب الخيلى : أبو حزام

(١) كتاب الفروسية والبيطرة فى علامات الخيل وعلاجها — مخطوطة رقم ١٦١٠ طب بدار الكتب المصرية .

(٢) كتاب علم الفروسية — مخطوطة رقم ٥ م فنون حربية — بدار الكتب المصرية .

(٣) كتاب الخيل والفروسية — مخطوطة رقم ١٣٣٤ طب بدار الكتب المصرية (١)

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل القدسى

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . مطبعة وادى النيل — القاهرة ١٢٧٨ ، ١٢٨٨ هـ .

السخاوى : شمس الدين محمد

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — مكتبة القدسى — القاهرة ١٣٥٣ .

الظاهرى : خليل بن شاهين

كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك — نشر Ravaisse باريس ١٨٩٤ .

العرينى : السيد الباز

نظام الفروسية فى مصر زمن سلاطين المماليك (مخطوطة لم تطبع بعد) .

العينى : بدر الدين محمود

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ٧٠ مجلداً صورة شمسية بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ .

القلقشندى : أبو العباس أحمد

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ جزءاً مطبعة دار الكتب المصرية .

---

(١) لم يرد اسم المؤلف فى المخطوطتين ٢ ، ٣ غير أنه تبين بعد مراجعة المخطوطات الثلاثة و مقارنتها أنها لمؤلف واحد وفى موضوع واحد برغم اختلاف العنوان .

المقريزى : أحمد بن على

(١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزء الأول ١٩٣٤ — ١٩٣٩ ، الجزء الثانى ١٩٤١ — ١٩٤٢ .
(منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

(٢) كتاب الخطط والآثار فى مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من من الأخبار — مطبعة النيل ١٣٢٦ — طبعة بولاق ١٢٧٠ .

النويرى : أحمد بن عبد الوهاب

نهاية الأرب فى فنون الأدب — المطبوع منه ١٤ جزءاً — مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٩٢٣ — ١٩٤٣) .

بكتوت : بدر الدين بن بكتوت الرماح الخازندار الظاهرى المتوفى سنة ٧١١ هـ

كتاب علم الفروسية — مخطوطة رقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية.

بيبرس المنصورى الداوادار :

زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة صورة شمسية رقم ٢٤٠٢٨ بمكتبة جامعة القاهرة .

زيادة : محمد مصطفى

نهاية السلاطين المماليك فى مصر (المجلة التاريخية — المجلد الرابع — العدد الأول — مايو سنة ١٩٥١) .

طيبغا الأشرفى البكلمشى اليونانى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م)

(١) كتاب الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية (مخطوطة رقم ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

(٢) بغية المرام وغاية الغرام فى الرمى بالنشاب (مخطوطة رقم ٩٣ فروسية بالتيمورية — بدار الكتب المصرية) .

لاجين : حسام الدين

كتاب الميادين (ضمن مجموعة رسائل فى الفروسية — مخطوطة رقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

يلبغا الأشرفى :

كتاب كامل الصناعتين فى الفروسية والشجاعة (فى المجموعة رقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

Ayalon, David : Studies on the Structure of the Mamluk Army.

I-III (Reprinted from the BSOAS 1954, XVI)

Mayer, L.A. : 1) Saracenic Arms and Armor (Ars Islamica, Vol. X. 1943).

2) Mamluk Costume, Genève 1952 Vol. X. 1943.

السيد الباز العرينى

صناعة السيوف الإسلامية
فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى

١ — مواطن الحديد

إن ماوصلنا من المراجع العربية القديمة عن المعادن والحديد منها بصفة خاصة قليل جداً . ومعظم ماعرفه المسلمون القدامى عن صناعة هذا المعدن الهام نقلوه عن الهنود والفرس .

ولم نعثر على رسالة تناول فيها مؤلفها الكلام على صناعة الحديد أو استخدامه عند العرب القدامى قبل القرن التاسع الميلادى . وقد يكون ما كتبه الكندى الفيلسوف العربى أقدم ما وصلنا فى هذا الموضوع (١) .

بدأ الكندى رسالته بالكلام على أنواع الحديد التى تصنع منها السيوف فقال : إنها إما أن تصنع من الحديد الخام الذى يستخرج من المناجم أو من الحديد المصنوع الذى تضاف إليه مواد أخرى فى أثناء الصهر . ثم قال ان الحديد المستخرج من باطن الأرض ينقسم إلى نوعين :

١ — حديد الشابرقانى وهو الحديد المذكر الصلب القابل للسقى .

٢ — حديد النرماهن وهو الحديد المؤنث الرخو الذى لا يقبل السقى وقد تطبع بعض السيوف من النوعين المركبين معاً .

وعرف الكندى الفولاذ (٢) بأنه ليس بمعدنى أى لا يستخرج على

---

(١) مخطوطة مكتبة ليدن بهولنده رقم ٢٨٧ Arab . راجع مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . المجلد ١٤ جـ ٢ ديسمبر ١٩٥٢ ص ١ — ٣٦ بعنوان السيوف وأجناسها للكندى . نشر المخطوطة القائمقام عبد الرحمن زكى .

(٢) الفولاذ هو الحديد المصفى من خبثه وأصل الكلمة بالفارسية بولاد .

طبيعته من المنجم وقال عنه أنه هو الذى يصفى بخلط بعض المواد فى أثناء عملية السبك فتشتد رخاوته ويصير متيناً لدناً يقبل السقى ويظهر على نصله فرنده[1].

وقد اتفق أبو الريحان البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨ م) العالم الذى تبحر فى علوم الهند وفارس مع رأى الكندى وأشار إليه فيما كتبه عن الحديد [2] ولم يضف جديداً فى هذا الموضوع .

كذلك معاصره الشيخ الرئيس ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧ م) لم يضف على تلك المعلومات شيئاً قليلا أو كثيراً . فقد ذكر « ان الحديد ثلاثة أصناف شابورقان ونرماهن وفولاذ مصنوع » [3] .

وذكر ابن البيطار (توفى عام ١٢٤٨ م) من علماء الأعشاب أن « للحديد معادن كثيرة وتتفاضل أجناسه . فمنه ما هو رخو ومنه ما إذا ألقيت عليه الأدوية صلبته وزادت فى قوته . ومنه ما إذا سقى الماء زادت صلابته وحدته . ومنه ما إذا لم يسق الماء كان أحدمنه . وأهل الصناعات كلها يحتاجون إليه ولا غنى للناس عنه ... » [4] .

وكنا نتوقع تقدم إلمام المسلمين بالحديد بعد ذلك . لكننا رأينا القلقشندى المؤرخ المصرى (١٣٥٥ — ١٤١٨) فى أخريات القرن الرابع عشر عند كلامه على نوعى حديد السيف يكرر الآراء القديمة التى ذكرها الكندى من قبله بمئات السنين وهو فى ذلك يقول :

« السيف إن كان من حديد ذكر وهو المعبر عنه بالفولاذ . قيل سيف فولاذ . وإن كان من حديد أنثى وهو المعبر عنه فى زماننا (القلقشندى) بالحديد قيل سيف أنيث . فان كان متنه من حديد أنثى وحداه من حديد ذكر كما فى سيوف الفرنجة قيل سيف مذكر . ويقال أن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض

---

(١) الفرند فارسى معرب وهو جوهر السيف وماؤه . الجواليقى فى المعرب ص٢٤٣.

(٢) أبو الريحان البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر . ص ٢٤٨ — ٢٥٨ . مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدراباد الدكن . عام ١٣٥٥ هـ .

(٣) ابن سينا : القانون فى الطب . جـ ١ ص ١٧٩ .

(٤) ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . جـ ٢ ص ١٣ . طبعة مصر

وبردت صارت حديداً . وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفاً . فتجىء فى غاية الحسن والمضاء » [1] .

هذا أهم ما وصل إلينا عن الحديد فى مؤلفات علماء المسلمين . وهى معلومات لم تضف شيئاً جديداً إلى علم المعادن . وذلك بالرغم من وجود واستغلال مناجم كثيرة للحديد فى أنحاء العالم الإسلامى سيأتى الكلام عليها .

لقد كانت الهند أهم أقطار الشرق فى استنباط الحديد وقد ذكر فى مواضع شتى من ملاحمها الرائعة . واستخدمه السلاحون الهنود منذ القدم فى عمل النصال الجيدة . وقد ذكر البيرونى أنه لا توجد أمة أبصر بأنواع السيوف من الهند [2] .

كذلك أشار الأدريسى (حوالى ١٠٩٩ – ١١٧٣ م) إلى مضاء سيوف الهند وشهرتها بجودة الصقل لوجود الأنك [3] الذى استأثرت « قلعة » بإنتاجه كما قال أن الهنود يحسنون صنعه وتركيب أخلاط الأدوية التى يسبك بها الحديد اللين . وصناعهم يجيدونها فضلا على غيرهم من الأمم . وذكر الأدريسى أيضاً أن أنواع الحديد السندى والسرنديبى والبيمانى (البيلمانى) [4] تتفاضل كلها بحسب هواء المكان وجودة الصنعة وأحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء . وأنه لا يوجد شىء أمضى من الحديد الهندى . وهو شىء مشهور لا يقدر أحد على إنكار فضيلته [5] .

والآن وقد تكلمنا عن حديد السيوف الإسلامية ننتقل إلى مواطنه الهامة فى أنحاء الشرق الإسلامى .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى . ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر . ص ٢٥٤ .

(٣) الأنك فارسى معرب وهو معدن الرصاص الأبيض المعروف إلى الآن فى الهند باسم « رانج » والأنك والرانج شىء واحد . وتقع بلاد الرانج حول مصب اروادى فى بورما . انظر أيضاً ابن البيطار : جامع مفردات لأدوية . ج ٢ ص : ١٤ .

(٤) كانت بيلمان مركزاً لصناعة السيوف البيلمانية تقع على ملتقى حدود السند والهند والقول بأنها من أرض اليمن لا يقوم على سند . البلاذرى ص ٤٤٠ و ٤٤٢ ونقلها ياقوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤١ .

انظر أيضاً كتاب السلاح عند العرب لمؤلفه Schwarzlose ص ١٣٠ .

(٥) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٠٨ – ١٠٩ . ليدن عام ١٨٦٨ .

لم تخل كتب الرحالة والجغرافيين من المسلمين من ذكر مناجم المعادن وأخصها الحديد فى البلاد الإسلامية .

فقد ذكر المقدسى وقد عاش فى القرن العاشر أنه على مقربة من شاهق (١) كانت توجد مناجم الحديد . التى اشتهر معدنها فى طبع النصال الجيدة (٢) وإلى الجنوب الشرقى من تلك البلدة على حدود درابجرد (٣) عند قطروه استغلت مناجم الحديد الطيب . وذكر الاصطخرى الذى عاش فى حوالى القرن العاشر (م) أنه كان بالقرب من مارائمنده وميناق مناجم الحديد الذى كانت تصنع منه الأدوات الحديدية وتصدر إلى نواحى خراسان وبغداد (٤) .

وأشار ياقوت والمقدسى إلى ثروة صقلية فى الحديد الذى كان يصدر إلى الهند لصنع الآلات البديعة فى خلال القرنين الثامن والتاسع (٥) كما ذكر اليعقوبى أنه فيما بين القرنين التاسع والعاشر كانت تستغل مناجم الحديد فى شمال إفريقية (٦) كما اشتهرت بلدة مجانة على الحدود بين تونس والجزائر بمناجم الفضة والحديد والرصاص والأنتيمون وكانت تنقل الخامة إلى صوصة مرفأ المغرب (٧) .

وفى جبل نقم القريب من صنعاء فى اليمن كان يوجد الذهب الجيد والحديد. وكانت تصنع منه السيوف على أيام دولة حمير وقد سميت بالسيوف البرعشية لأنها صنعت فى زمن برعشية الملك المشهور .

ومع ذلك فقد كان يرد الحديد الذى استعمل فى صناعة السيوف والسلاح من خارج شبه الجزيرة العربية . كان يجيء معظمه من الهند وتحمله السفن إلى

---

(١) شاهق بلدة فى إقليم فارس .

(٢) Le Strange, G : The Lands of the Eastern Caliphate p. 278 .

(٣) إحدى كور فارس . ياقوت : معجم البلدان . جـ ٤ ص ٤٦ .

(٤) الاصطخرى : مسالك الممالك . ص ٣٣٦ و ٣٤٨ . ليدن عام ١٩٢٧ . انظر أيضاً معجم البلدان ص ٣٩٥ و ٤٢٥ و ٧١٠ طبعة أوربا .

(٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٠١ والمقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٦) اليعقوبى : ص ٧٤ والبلاذرى ص ٦٦ .

(٧) Revue des Etudes Islamiques. Vol. 1935. p. 303.

مرافىء البحرين وعمان واليمن . ونشأت فى تلك الجهات المراكز الهامة لتوزيعه على صناع السلاح فى شبه الجزيرة .

ومن المحتمل أن يكون البدو قد اهتدوا إلى معرفة مواقع مناجم الحديد القديمة فى شبه جزيرة سينا وأنهم كانوا ينقلونه إلى صنعاء حيث تطبع نصال السيوف والمدى [١] .

وكان بالشام وعلى مقربة من بيروت [٢] وفى كرمان [٣] وكابل [٤] مناجم للحديد . كما وجد فى القوقاز وأرمينية .

وفى آسيا الصغرى ورث الترك مناجم الحديد التى كانت للبيزنطيين إذ أن المعروف أن سلسلة جبال طوروس غنية بخامة الحديد، وقد توافر فى علاية وأدنة وأماكسيا فى كيليكيا العليا وجالاطيا [٥] .

تلك هى معظم مواطن الحديد فى الشرق الإسلامى التى اتفقت عليها المراجع العربية . ولقد اندثرت معظمها بسبب الإهمال أو سوء الاستغلال . ولا يخفى أنه من الصعب التكهن بمصدر خامة الحديد للسيوف القليلة التى وصلت إلينا مما يمكن نسبتها إلى العصور الإسلامية الأولى .

الصين والهند

وقد عرف الصينيون استخدام الحديد منذ القدم وذكر العلامة برتون أنه فى عهد أسرة هان (Han) كانوا ينصبون كبار صناع الحديد على نواحى مقاطعة لى أنج شو القديمة للإشراف على مراكز استغلال الحديد وصناعته [٦] .

وقد ذكر ليه – تسى المؤلف الصينى والفيلسوف المشهور (Leih-Tze)

---

(١) Boheim : Die Waffenkunde. page 618.

(٢) Revue des Etudes Islamiques. Vol. 1935. p. 305.

(٣) المقدسى : ص ١٨٤ وابن الفقيه : ص ٢٠٦ والادريسى ص ٢٢ .

(٤) المقدسى : ص ٤٧١ وابن حوقل : ص ٣٢٨ .

(٥) Forbes, R.J. : Metallurgy in Antiquity. p. 386 Leiden. 1950 .

(٦) Burton : The Book of the Sword. p. 113.

حوالى عام ٤٠٠ ق . م . المعلومات الدقيقة عن الصلب ووصف عملية طرقه وسقيه (١) وهى فى تفصيلاتها لا تختلف عما آلت إليه فيما بعد .

وجاء فى حديث القلم (Pri-Tan) الذى كتب فى عصر أسرة Ming مينج فيما بين (١٣٦٦ – ١٦٤٤ م) إيضاحات لعملية تحويل الحديد إلى الصلب . وقيل أن ما جاء فيما كتبه جابر بن حيان الكيميائى العربى عن نفس الموضوع لا يختلف كثيراً (٢) .

هذا إلى جانب مناجم الحديد القديمة فى نواحى شانسى وشيليلى فى أقاليم (هو) حيث استغلت خامات الحديد والفحم بوفرة ومازالت باقية على حالها إلى اليوم وكانت الحكومة تتولى الإشراف على مناجم الحديد ومصانعه حوالى القرن السابع (ق . م) ذلك لأن الخامة كانت تعود بدخل وفير إلى خزانتها (٣) وكان حديد الصين يصدر إلى غرب آسيا لكننا لا نستطيع التأكد مما إذا كانت صناعته فيها فاقت زميلتها فى الهند .

وتشير بعض المراجع القديمة إلى تصدير الحديد من الصين إلى الشرق الرومانى ويقول بلينى (توفى عام ٧٩ م) أن حديد الصين كان أجود الأنواع التى عرفت فى الأسواق الرومانية . وكان يليه الحديد المستورد من بارثيا (٤) .

ويعارض هذا الرأى وارمنجتون العالم الإنجليزى قائلا : إن هذا الحديد الذى يتكلم عنه بلينى إنما جاء من مملكة شيرا (Chera) فى جنوب الهند وليس من الصين وتلك المملكة كان يقصد إليها الكثير من تجار الإغريق فى الامبراطورية الرومانية (٥) .

---

(١) I bid,

(٢) Sarton, G : Introduction to history scicefone . Vol . 1. pp. 532-533.

(٣) O. Jance : Quelques antiquités chinoises d'un caractère Hall statien in the museum of Far Eastern antiquities, Stockholm, Bulletin. No. 2. pp. 182-3. 1930.

(٤) Exomnibus autem generibus, palma Serico perro est", Pliny, Historia Naturalis, XXXIV, 14(41),145, quoted in F.Hirth, China and the Roman Orient, loc., p. 225-116, footnote 2.

(٥) Warmington, E.H. : The Commerce of the Roman Empire and India, loc. cit. pp. 157-158.

وقد ذكر ابن المتوج عندما تكلم على فنار الإسكندرية « أنه كان عليه مرآة من الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم ... » (١) .

والمتفق عليه عند علماء الآثار القديمة أن تاريخ بناء الفنار يتقدم حوالى ٣٠٠ سنة عن تاريخ إصدار الحديد من الصين الذى ذكره «بلينى» . وقد ظلت شهرة الحديد الصينى فى الأسواق الرومانية على أهميتها إلى العصر العربى بدليل أن ابن خرداذبة فى القرن التاسع الميلادى تكلم عن حديد الصين الجيد الذى كان يصدر من مرفأ لوكينى وهى كاتبجار القديمة المطلة على خليج تونج – كنج .

وبعد مضى ثلاثة قرون يذكر الادريسى – الحديد – بين أهم السلع التى تصدرها الصين إلى العالم الإسلامى عن طريق عدن (٢) . ولذلك لانستبعد أن مصانع الحديد والسلاح فى دمشق والمدن الإسلامية الأخرى فى الشام وغيرها التى اشتهرت بصناعة السلاح كانت تستورد الخامة من الصين إلى جانب ماكان يستخرج من مناجم الحديد المعروفة فى العالم الإسلامى (٣) .

فاذا انتقلنا إلى الهند . وجدناها قد عرفت الحديد منذ أقدم العصور . والهند أولى بلدان العالم فى استغلاله للصناعة . وتكاد تتفق كلمة مؤرخى المعادن على أن الهند أقدم مواطن الحديد حتى قبل غزوة اسكندر المقدونى . وقد عرف الهنود الإفادة من هذا المعدن وبفضل مهارة صناعهم توصلوا إلى صناعة الصلب الذى تفوق على ماكان يصنعه غيرهم فى بلدان الشرق أو الغرب . ولا سيما فى صناعة النصال . وكانت تصدر الصلب إلى فارس القديمة .

---

(١) ابن المتوج : إيقاظ المتغفل ونقله عنه السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . ص ٤٤ مصر (طبعة حجر) .

انظر أيضاً : Chan Ju-Ku : Cru-fan-Chi, trans. F. Hirth and W.W. Rockhill. St. Petersburg, 1911, p. 4, n.

(٢) Jaubert, P.A. : Geographie d'Edrisi, Paris. 40, t. 1. p. 51. Paris 1836.

(٣) Huzagyin, S.A. : Arabia and the Far East. pp. 200. Cairo. 1942.

وجاء فيما ذكره ستسياس (Ctesias) المؤرخ القديم خبر سيفين فريدين صنعا من حديد الهند . أخذهما من ملك الفرس وأمه [١] .

وفى ملحمة الهندوس « ريجفيدا » التى كتبت منذ ثلاثة آلاف عام يشار إلى أن الإله إندرا (Indra) استعمل الحديد فى صناعة سلاحه ودرعه [٢] .

ومما يؤيد وجود أنواع كثيرة من الحديد أنه يعرض إلى اليوم فى متحف التاريخ الطبيعى بكولومبو فى سيلان [٣] مائتى وخمسين صنفاً من الحديد عرفت فى الهند منذ القدم . وأكثرها فى المدن البائدة فى سيلان وحدها . ويعود تاريخها إلى خمسمائة عام ق . م .

فلا غرو إذا وجد الحديد الهندى طريقاً ممهداً إلى أسواق العالم القديم ولا سيما فى أهم صناعة كانت تجتذبه إذ ذاك ... ألا وهى صناعة السلاح .

وقد جاء ذكر الحديد الهندى « Ferrum Indicum » بين السلع المتنوعة الواردة من الشرق التى تجبى عليها الضرائب فى قوانين ماركوس أوريلوس وكدمودوس .

ويبدو أن العصر الذهبى لصناعة الحديد فى الهند فى العصور الوسطى الأولى كان ما بين القرنين الخامس والسادس . فى تلك الحقبة بلغ الصناع أسمى المراتب فى فنهم لأنهم وجدوا الخامة المثلى كما أجادوا الأساليب الفنية لتحويلها ولتشكيلها حسب رغباتهم . والعامود الحديدى (L'at) فى دهلى بالقرب من قطب منار خير ما يؤيد علو منزلة هؤلاء الصناع الهنود [٤] وهناك أعمدة أخرى أصغر منها فى نيودلهى وكلها لم تظهر عليها أية آثار للصدأ مما يؤكد مهارة الصناع فى الهند منذ ١٥٠٠ عام تقريباً [٥] .

---

(١) Yule's Marco Polo, note, Vol. I, p. 88.

(٢) Goodale : Chronology of Iron and Steel p. 15.

(٣) Ibid, p. 23.

(٤) هذا العامود عبارة عن قطعة صلبة من الحديد المطاوع تزن حوالى ١٧ طناً وتشتمل على ثمانين قدماً مكعباً من المعدن . وقطر العامود حوالى ٤٢ سنتيمتراً ويصل فى القمة إلى ثلاثين سنتيمتراً . ويصل ارتفاعه إلى ١٥ متراً .

(٥) N.S. Krishnan: Indian Minerals Vol. VI. No. 3. pp. 114-115.

ظلت الهند مورداً لحاجيات الشرق من الحديد إلى العصور الوسطى. فقد اتفق معظم المؤرخين على أن النصال الدمشقية كانت تصنع من حديد مناجم كونا ساموندروم فى حيدراباد . وكان ينقله التجار الفرس إلى دمشق . وكان هؤلاء يعنون بانتقاء الخامة الجيدة ويغسلونها ويحمصونها أحياناً ثم يوقدون عليها بالفحم الخشبي فى أوان من الفخار وبعد وقت طويل يتركونها لتبرد ببطء وبعد ذلك تبدأ عملية الطرق والتسقية . الخ ليصنعوا منها خير النصال . وكانت الأخلاط التى يضعونها مع الحديد خالية من الكبريت والفوسفور وتحتوى على قليل من النحاس الأحمر (١).

وما حققه البيرونى الفيلسوف الذى تبحر فى علوم الهند لحد تمين . وأبحاثه عن الفولاذ وأصنافه لقيمة حقاً . وذكره لأنواع الحديد الذى تصنع منه السيوف والخناجر الجيدة وهو يؤكد أن الصنعة فى الهند قد فاقت جميع البلاد .

ولقد اتفق معه فى ذلك الادريسى الجغرافى (١١٠٠ — ١١٧٣ م) فقد قال عن الهنود أنهم يحسنون صنعة وتركيب أخلاط الأدوية التى يسبكون بها الحديد اللين فيعود هندياً منسوباً إلى الهند . وصناعهم يتفوقون فى إجادة طبع السيوف على غيرهم من الأمم . وكذلك الحديد السندى والسرنديبي والبيلمانى كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة وإحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء . ويقول الأدريسى أنه لا يوجد شيء أمضى من الحديد لهندى وهو شيء مشهور لا يقدر أحد على إنكار فضيلته (٢) .

وأثنى كثير من الرحالة الأوربيين على الحديد الهندى والنصال الهندية وكانوا يطلقون عليها ألفندى (Alfandi) وأليندى وأونديك (Ondique) .. الخ (٣) وكان هؤلاء الرحالة ومنهم ماركو بولو المشهور يطلقون هذه التسميات على الصلب الهندى (٤).

(١) Goodale: Chronology of Iron and steel. p. 26.

(٢) الأدريسى : نزهة المشتاق ص ١٠٨ — ١٠٩

(٣) Dozy and Engleman :2nd Edition. pp. 144-145. Hint of Al-Hind. Jour. R.A.S. IX. p. 255.

(٤) ماركوبولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) رحالة بندقى رحل مع أبيه وعمه فى زيارة قوبلاى خان وقد أعجب هذا بماركو ثم كلفه بعدة مهام وتعلم عدة لغات ثم طاف ببلاد لم تطأها قدم أوربى من قبل واستغرقت أسفاره حوالى ٢٥ عاماً (١٢٧٠ — ١٢٩٥) أنظر أيضاً :

Maroc Polo: Vol. 1, p. 93. The granuls of Marco Polo: Broadway Travellers. Edited by Sir E.D. Ross. pp. 39, 48, 73.

وعلاوة على ذلك ما جاء فى قصائد العرب وملاحم الفرس ولا سيما فى شاهناما الفردوسى عن فضائل النصال الهندية التى احتلت مكانة سامية فى بلدان العالم الإسلامى فى خلال العصور الوسطى .

٢ — مراكز صناعة السيوف الاسلامية

(أ) شبه الجزيرة العربية :

تقابلنا اليمن كأهم موطن ازدهرت فيه صناعة السلاح منذ القدم فى الجزيرة العربية . ولا غرو فى ذلك فاليمن قريبة من سبل الملاحة كان يقصد مرافئها السفن المحملة بمتاجر الهند ومن سلعها الحديد الجيد الذى كانت تصنع منه السيوف والخوذات .

ويبدو أن السيوف اليمنية تضاءلت شهرتها بعد انتشار الدعوة الإسلامية فى الأقطار المجاورة . ولعل السبب يعود إلى سقوط مملكة حمير قبيل الإسلام ثم انضواء اليمن تحت أعلام الدين الجديد وازدهار صناعة السلاح فى بلاد الشرق الإسلامى التى فتحها العرب كإيران والشام .

وفى بلاد الغساسنة التى تقع شمال غربى شبه الجزيرة اشتهرت موئتة بطبع صنف ممتاز من السيوف عرف فى النصوص العربية بالسيوف المشرفية (١) ورد ذكرها فى شعر الجاهلية ، وقد قال عنها ضرار بن الأوزر :

ولو سئلت عنها جنوب لخبرت ... عشية سالت عقرباء بها الدم
عشية لا تغنى الرماح مكانها ... ولا النبل إلا المشرفى المصمم (٢)

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ١٥٨ — ١٦٠ . القاهرة عام ١٣٤٩ هـ .

والمشرفية هى السيوف المنسوبة إلى المشارف وهى من قرى العرب الدانية من الريف واحدها مشرف . ويوجد رأى آخر يقول بأن السيوف المشرفية تنسب إلى مشرف وهو سلاح من ثقيف .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٦ ص ١٩٣ . طبعة مصر .

عقرباء منزل من أرض اليمامة .

وفضلا عن ذلك فقد كان العرب فى الجاهلية يجلبون السيوف من سلاحيها بنواحى العراق والأبلة (١) .

(ب) ايران :

اشتهرت إيران منذ أقدم العصور بصناعة السيوف وكان ذلك قبل الفتح الإسلامى نقرأ عن ذلك فى فصل عقده الرحالة أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه بعنوان : « ذكر ما خص الله تعالى كل بلدة بشىء من الأمتعة دون غيرها » . قال (٢) :

« ... ولفارس فضل فى اتخاذ الآلات الطريفة المحكمة من الحديد . حتى لقد قال بعض الحكماء عندما وقف على أشياء طريفة عند بعض الملوك من آلات فارس : لقد ألان الله عز وجل لهؤلاء القوم الحديد . وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا . فهم أحذق الأمم بالأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن (٣) ... » .

ولقد توافرت لدينا الأدلة الكثيرة على ازدهار صناعة السلاح الإيرانية ولا سيما السيوف فى عدة مدن فى إيران الإسلامية . وسنذكر من أهمها :

شـــاهق :

ذكر البلخى من جغرافى القرن العاشر أن من حديد شاهق تصنع السيوف والنصال الأخرى . وكانوا يطلقون عليها النصال الشاهقية (٤) ، وقد أشار الفردوسى فى الشاهنامه إلى مضاء سيوف شاهق وجودتها فى منظوماته الخالدة .

---

(١) الأبلة بلدة على شاطىء دجلة البصرة وهى أقدم من تلك ،وقد وصفها ناصر خسرو وكانت فى القرن العاشر زاهية بها قصور وجوامع وفنادق . وقد درست ويحتمل أن تكون المحمرة قد قامت على أنقاضها .

أنظر أيضاً : Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate, p. 47.

(٢) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٢٥١ . ليدن عام ١٣٠٢ هـ .

(٣) الجوشن هو الدرع أو صدر الدرع وهو مثل الزرد. يتكون من حلقات متداخلة مثبتة على صفائح رقيقة من التنك (الصفيح السميك) .

(٤) Le Strange : Trans. Description of the Province of Fars in Persia. London. Asiatic Soc. Monographs. No. XIV, 1912, page 24.

كرمان :

ولم يفت ماركو بولو الرحالة البندقى (حوالى ١٢٥٤ – ١٣٢٤) الذى جاب أنحاء العالم الشرقى فى القرن الثالث عشر أن يذكر ملاحظاته عن صناعة السيوف فى كرمان التى كان يجيد أهلها صنعها مع السروج واللجم والمهاميز والقسى وجعبات السهام (١) .

وعلاوة على ما كان بالقرب من كرمان من مناجم الحديد . فقد كانت تستورد الصلب الهندى الجيد لاستعماله فى صناعة النصال البديعة .

وقد أشار باولوس جوفيوس (Paulus Jovius) إلى ما كان لكرمان من الصدارة فى إجادة صناعة السيوف وأسنة الرماح فى القرن السادس عشر وكان الترك يقبلون على شرائها بأثمان مرتفعة . كما أنها كانت مضرب الأمثال فى الجودة (٢) .

قم :

وذكر الرحالة أوليريوس (Olearius) فى وصف رحلته التى دون أخبارها فى منتصف القرن السابع عشر أنه تصنع فى قم أبدع النصال الإيرانية وقال له أهل البلدة أنهم يبيعون النصل الواحد منها بما يعادل ثمنه عشرين Sécus وذكر أوليريوس أيضاً أن الصناع يستوردون الصلب من بلدة ميريس التى تبعد عن أصفهان بمسير أربعة أيام . وتقع ميريس خلف جشد . وعلى مقربة من ميريس يرى جبل دماڤند حيث توجد مناجم الحديد الغنية والتى تصنع منها النصال الجيدة (٣) .

خراسان :

وقد تحدث الكونت فريرسان بوف فى كتاب رحلته التى قام بها فى القرن الثامن عشر عن النصال النفيسة التى كانت تصنع فى خراسان . تلك

(١) Komroff : Ed. The Travels of Marco Polo. p. 42.
See also : The Book of Ser Marco Polo. Vol. I. p. 92-93. Murray. 1921.

(٢) Yule: Marco Polo. History of his own times. Book XIV, Vol. I. p. 89.

(٣) Olearius : Voyage ... fait en Moskovie, Tartari, et Perse. Leiden 1719. Vol. II. page. 681.

الصناعة التى أجادها سلاحو خراسان منذ نقل إليها تيمورلنك من دمشق جماعة من أمهر السلاحين (١) . ثم قال أن نيسابور اشتهرت بصناعة السلاح الأبيض منذ القرن العاشر . كما ذاع صيت قزوين فى ميدان إنتاج النصال الجيدة التى كانت تنافس بها نصال دمشق .

وفى الوقت الذى رحل فيه الكونت فريبرلم يكن فى خراسان مناجم للحديد. إذ كانت تستمد الصلب من لاهور فى الهند .

وعلى كل حال فان شهرة إقليم خراسان وسيستان فى صناعة الألطاف المعدنية معروفة . ولاسيما فى الفترة التى تقع بين القرنين العاشر والرابع عشر، وظل إقليم خراسان فى طليعة أقاليم إيران فى صناعة السلاح إلى القرن التاسع عشر (٢).

قزوين :

وقد مدح الكونت فريبرسان بيف نصال قزوين المقدسة وفضلها على النصال الدمشقية من حيث الصنعة (٣) .

خوارزم :

واشتهرت خوارزم بصناعة السيوف والخوذ والقسى كما عرفت « شاش » إحدى مدن إقليم ما بين النهرين بسيوفها الجيدة (٤) وفى ذلك الاقليم اشتهرت ماراتمنده وميناك بالحديد الذى كان يصدر إلى خراسان وأفغانستان وبغداد (٥) شتهرت شيراز كمركز لصناعة السلاح الجيد (٦) .

---

(١) Comte de Ferrières-Saineboeuf : Mémoires historique politiques et Geogr. 1782-89. Paris. Vol. II. p. 9.

(٢) Egerton of Tatton : Indian and Oriental Armour. p. 57. London. 1896.

(٣) Ibid. p. 44. أنظر أيضاً : Le Strange : The Lands of Eastern Caliphate p. 429.

(٤) Ibid. page. 459.

(٥) الاصطخرى : مسالك البلدان ص ٣٣٦ و٣٤٣ و ٣٨١ و ٣٨٢ و ٣٨٨ والمقدسى : ص ٢٧٨ وياقوت جـ ٢ ص ٣٩٥ و ٤٢٥ .

(٦) Smith, Murdoch : Persian Art.

أصفهان :

ولا يفوتنا إغفال ذكر إصفهان الخراسانية ، تلك المدينة التى كانت حاضرة فارس القديمة قبل طهران ، والتى زاول فيها أسد الله أمير السلاحين الإيرانيين حرفته الجميلة فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر وبعده ابنه وتلامذته .

وواضح من وصف الرحالة الفرنسى جان شاردان (١٦٤٣ — ١٧١٣) — وقد زار إيران فى عصرها الذهبى — إعجابه بالسيوف الفارسية[١] وقد أدهشته براعة الطباعين الإيرانيين ولا سيما فى صناعة السيوف والقسى .

ويرى بعض مؤرخى الفن الإسلامى أن « بلخ » مقر السامانيين كانت فى يوم من الأيام من أهم مراكز صناعة السلاح حيث توارث السلاحون أسرار فنهم جيلا بعد جيل .

وقد وصلت إلينا أسماء بعض السلاحين المشهورين فى إيران . وعلى رأسهم أسد الله الأصفهانى . والحديث عن السيف فى إيران فى أروع صوره لايستكمل إلا بذكر هذا الطباع الملهم الذى لا يعرف بالدقة تاريخ ميلاده أو وفاته . لكنه عاش فى أيام حكم الشاه عباس الأكبر (١٥٨٧ — ١٦٢٨) .

وانتساب أسد الله إلى أصفهان عاصمة إيران القديمة ليس دليلا على أنه أصفهانى المولد . والمؤكد أنه أقام فيها لما كان يزاول صناعته . فطبع عدداً كبيراً من النصال البديعة التى نقش عليها اسمه . وتحتفظ اليوم دور التحف فى القاهرة واستانبول وآثينا وطهران وموسكو وباريز وفيينا وبرلين ولندن ونيويورك ببعض أسيافه النادرة . وتلك تمتاز بصفاء نصالها وبهاء فرندها وخلوها من الزخارف والجواهر النفيسة . نقش عليها اسمه واسم صاحب السيف وآية من القرآن الكريم وغالباً ما كان يكتب اسم الشاه هكذا :

---

(١) Chardin: Voyage de M. et Le Chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient . tome IV. p. 249.

أنظر أيضاً : Sir John Chardin : Travels in Persia. The Argonaut Press. London London. 1927. p. 270-271.

« شاه عباس بنده ولايت » أى عباس عبد الله المختار .

وقد أخذ الكثير من السلاحين فى إيران وغيرها بعد موت أسد الله فى نقش إسمه على نصالهم طمعاً فى الربح الوفير . ولاشك أن سيوفهم ليست فى المرتبة الفنية التى امتاز بها الصيقل الكبير . وقد اختلف أسلوب نقش أسمائهم عن أسلوبه . ومن اليسير على الخبير أن يميز بين نتاجهم ونتاج أسد الله . ولذلك لا غرو إذا شاهدنا بين مجموعات السيوف فى المتاحف الكبرى عدداً لا يستهان به من تلك السيوف المقلدة التى لا تنسب إلى أسد الله ولأن معظمها مؤرخ بتاريخ متأخر كالقرن الثامن عشر مع أن أسد الله زاول مهنته بين أخريات القرن السادس عشر

وسنذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر بعض سيوف أسد الله . فى متحف مجموعة والاس (Wallace Collection) فى لندن سيفان قبيعتاهما على شكل رءوس حيوانات وهى مطعمة بالميناء ولها حد واحد ونقش على نصالها اسم أسد الله مكفتاً بالذهب يتلوه كلمة « بدوح » . ذلك الطلسم الذى ينقش كثيراً على النصال الفارسية التى تنسب إلى ذلك العصر وعلاوة على هذين السيفين فى متحف والاس عدد من سيوف أسد الله (١) .

ومن بين الطباعين الإيرانيين المشهورين « قلب على » ابن أسد الله . وقد عاش فى أصفهان مع أبيه . ولقلب على أربعة سيوف بديعة فى مجموعة متحف والاس (٢) وعدة أسياف فى مجموعة موزر (Moser) فى المتحف التاريخى ببرن

ونذكر أيضاً الطباع محمد زمان الأصفهانى تلميذ أسد الله (٣) وله سيفان تضمهما مجموعة متحف والاس (رقما ١٧٦٢ و ١٩٠٤) .

وصادق الطباع الذى يقرأ اسمه على سيف نقش عليه اسم الشاه اسماعيل الصفوى (١٥٠٢ – ١٥٢٤) .

---

(١) أرقام هذه السيوف هى على التوالى : ١٣٩٨ و ١٤٠٢ و ١٤٠٧ و ١٤٣٩ و ١٤٤٣ و ١٥٤٠ و ١٦٢٨ و ١٧٥٨ و ١٩٩٥ و ١٩٩٦ وبعضها مزيف .

(٢) أرقامها ١٩٣٥ و ١٩٩٠ و ١٤٠٠ و ١٦٢٩) .

(٣) Egerton of Tatton : Indian Arms and Armour. p. 53.

وإبراهيم المشهدى (نسبة إلى مشهد) ابن محمد رضا . وقد وجد اسمه منقوشاً على خوذة تحمل شعار الشاه طهمسب (١٥٢٣ – ١٥٧٥) فى متحف استانبول .

وعلى القزوينى الذى عرفت نصاله فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر [١] . ومختار الأصفهانى ومحمد تقى الدين الأصفهانى والطباع فتح على الشيرازى (القرن ١٧) وله سيف من صنعته فى متحف والاس (رقم ١٨٧١) .

وأكبر بن مولا صادق الأصفهانى (أواخر القرن ١٧) وأحمد أزانى وله سيف فى متحف متروبوليتان نقش على نصله اسم ولقب السلطان أكبر إمبراطور الهند (١٥٥٦ – ١٦٠٥) وعلى أكبر أردلانى ويرى اسمه منقوشاً على نصل مدية جميلة فى متحف متروبوليتان للفنون [٢] وعلى محمد الشيرازى ومحمد رضا راقمى [٣] والأستاذ اسماعيل وزميله على أكبر المذكور عاشا فى أيام الشاه ناصر الدين .

(ج) الشام ومصر :

اشتهر كثير من مدن الشام منذ عرف التاريخ فى صناعة طرق المعادن وذلك لوجود الحديد الصالح فى بعض جبال لبنان وشمال الشام فى الفرزل ودوما والشوير ومشفرة ومن جوار دمشق ومن مشارف حوران والقلمون [٤] .

وقد اشتهر فى الجاهلية سيوف مشارف الشام فى أقصى تخوم الجنوب . كما نسبت السيوف الجيدة إلى دياف وإلى بصرى . وكلتاهما فى إقليم حوران . فقيل السيوف البصرية [٥] .

---

(١) Sarmmlung F. Sarre : Erzeugnesse. p. 81 .

(٢) Bulletin of Metropolitan Museum of Arts. March 1937.

(٣) B.W. Robinson : The sword of Islam. Apollo Annual. 1949.

(٤) عيسى اسكندر المعلوف : صناعات دمشق القديمة ص ٢٨٨ . محاضرات المجمع العلمى العربى عام ١٩٢٥ .

(٥) يقول عنها الحصين بن الحمام المرى الشاعر :

صفائح بصرى أخلصتها قيونها ومطردا من نسج داود محكما

أما دمشق فقد اشتهرت منذ العصور الرومانية بصناعة السيوف الجيدة وحافظت على شهرتها بعد الإسلام . وكان يرد إليها الفولاذ الهندى الذى يحتوى على قليل من الألومين والسلكا لتطبع منه النصال التى اشتهرت بشدة صلابتها ومرونتها وفرندها البديع الرسم . وقد عرف الجوهر الدمشقى بالحناوى أو الحنون.

وكانت تصنع السيوف أيضاً فى زحلة والشوير ودومة من لبنان . وقد حافظت دمشق على شهرتها الرفيعة فى صناعة السيوف إلى أن فتحها تيمورلنك عام ١٤٠٠ م فأمن أهلها وقبل ما قدموه من الهدايا النفيسة ثم نكث بعهده وسمح لرجاله بنهب المدينة . فعاثوا فيها وأضرموا النار فى أرجائها وبعد أيام رحل تيمور عنها وقد أجلى معه بعض الأعيان وأصحاب الفضل وكل ماهر فى فنه من النساجين والخياطين والطباعين الذين اشتهرت بهم دمشق (١) .

وقيل أنه بلغ عدد هؤلاء مائة وخمسين ألفاً نقلهم إلى سمرقند ، كما شيد الصياقلة فى خراسان مصانع السلاح التى اشتهرت فيما بعد بتحفها الرائعة (٢) .

وبرحيل الصناع الحاذقين عمل من بقى بعدهم على التقليد . وكانت صناعتهم تزداد سوءاً بتوالى الزمن . ذلك لأن السلاحين كانوا يحتفظون بأسرار صناعتهم ولا يورثونها إلا أبنائهم .

وارتكب سليم الأول عقب استيلائه على دمشق فعلة تيمور فاقتصرت مهمة الطباع الدمشقى منذ القرن السادس عشر على إنتاج السيوف والخناجر العادية . وفى قليل من الأحيان النادرة كانت تستورد نصالها من الخارج وأغرقت بها أسواق الشام والحجاز ومصر . ومع ما أصيبت به صناعة السلاح الدمشقية من أضرار فادحة . يظن أنها نجحت فى أبعاد النصال الفارسية عن أسواق الشرق الأدنى حتى أنه حوالى عام ١٥٥٠ كانت النصال الخراسانية تصل إلى الغرب عن طريق البندقية واليونان فحسب .

---

(١) نعمان قسطلى : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء . ص ١٢٢ بيروت – ١٨٧٩ .

(٢) عيسى اسكندر المعلوف : محاضرات المجمع العلمى العربى فى دمشق . ج ١ ص ٢٨٧ عام ١٩٢٥ .

وقد اشتهر فى دمشق أسرات كثيرة من الطباعين منهم : بنو السيوفى من مسلمين ومسيحيين وآل بولاد وجوهر وجوهرى ومسابكى وصيقلى وحداد ونحاس وحفار وطباع .

ونعتقد أن الشهرة الفائقة التى لحقت دمشق كمركز لصناعة السيوف البديعة كان مبالغاً فيها كثيراً . وأهم الأدلة التى تؤيد ما نذهب إليه . أنه لم يصل إلينا سيف واحد صنعه طباع دمشقى بلغ فى شهرته ما وصل إليه أسد الله الأصفهانى وغيره من صناع السيوف الإيرانيين والترك .

وكانت السيوف الجيدة ذات الجوهر البديع تصنع إلى ما قبل الفتح العثمانى لمصر خارج الشام ولا سيما فى إيران والهند (١) .

وليس معنى هذا ان دمشق لم تطبع فيها السيوف قط . بل إنما كانت تنتج أسيافاً عادية تسد بها حاجيات الشام وربما بقية أجزاء الامبراطورية المملوكية .

والصناعة التى اشتهرت بها دمشق حقاً وخلدت لها الصنعة الدمشقية هى فن تكفيت المعادن وتطبيقه بالذهب والفضة . ذلك الفن الجميل الذى امتازت به وغمرت منتجاته بلدان العالم الإسلامى بل وبعض المدن المسيحية فى الغرب المعاصر

(د) تركيا :

وقد عرف عن الترك أنهم صناع مهرة فى عمل السلاح . ولا غرو فقد استنبطوا الحديد الخام من مناجم « ألطاى » القديمة . وكان الطباعون الترك يصنعون السلاح لشعب الأبر (Avars) الذى ساد الأقاليم الشرقية فى أوربا إلى سهول المجر حتى زالت دولتهم .

وعندما استقر الترك فى أوربا تركزت فى القسطنطينية صناعة السلاح . وكانت بروسه قد اشتهرت بصقل السيوف وطبعها كما عرفت أزمير .

ويمكن القول أنه فى خلال القرنين ١٦و١٧ بلغت صناعة السلاح فى تركيا أوج قمتها وبلغ طباعوها درجة فى الإبداع يحسدون عليها (٢) .

---

(١) Mayer : Mamluk Costume. p. 44-45.

(٢) O. Sermed Mukhtar : Guide Musée militaire Vol. p. 70- 2.71.

وممن برعوا فى صناعة السيوف التركية ــ الأوسطى سنان وقيل أنه صنع سيفاً كان يطوى نصله كالنطاق (الحزام) وكان مع مرونته سريع الاعتدال من تلقاء نفسه . ومن بين أسياف سنان سيف صنعه للسلطان سليمان بن سليم الأول (حوالى عام ١٥٤٤ م) نقش على نصله :

« هذا حسام معتبر ــ حرز سلطان البشر ــ السلطان سليمان بن سليم . الله يعطيه الظفر » .

ونقش على الجانب الآخر للنصل« فى دار الفتح بقسطنطينية . سنة ٩٤٠» وفى عصر السلطان محمود (١٧٣٠ ــ ١٧٦٤) اشتهر الطباع « عجم أوغلو » ويقال أنه تدهورت بعده صناعة السيوف فى تركيا .

ولا يخفى أن مثل تلك الصناعة الهامة الدقيقة أى صناعة طبع السيوف الجيدة وصقلها لا تتوقف أهميتها فقط على جودة المعدن الذى تصنع منه . ولكن الأهم من ذلك هو دربة الصناع الفنيين الفائقة وخبرة هؤلاء ومهارتهم أجيالا متعاقبة . وبمعنى آخر استقرار هذه الصناعة بين أقوام تتولد وتربى فيهم روح الصناعة الدقيقة . ومثل هذا التفوق لا يتحقق بين الشعوب البدائية أو الأقوام الرحل بل لدى الأمم المستقرة المتحضرة حيث يتوارث ويجيد أهل كل حرفة حرفتهم ويعملون دواماً على تقدمها .

عبد الرحمن زكى

مرحلة من مراحل التطور السياسى والاجتماعى فى السودان

فى مطلع القرن التاسع عشر بلغ المجتمع السودانى فى تطوره الحضارى بوجه عام مرحلة الرعى ، ولم يجاوزها إلى مرحلة الزراعة المنظمة الدائمة إلا بعد مدة معينة . ومرد ذلك أحوال طبيعية وأخرى بشرية ، منها : قلة الماء ، وندرة التربة الصالحة للزراعة ، وعدم توفر النبات البرى الصالح للرعى . هذه العوامل أدت إلى الانتقال من مرحلة الصيد إلى الرعى ، مختلطاً بالقليل من الزراعة وما يتصل بها من الحرف البدائية . ورغم كثرة التغيرات البشرية التى طرأت على السكان منذئذ ، لم تتطور أساليب الإنتاج الاقتصادى إلا قليلا ، ولم تتسع دائرة العمل ونوعه . ولعل سبب ذلك أن المجتمع السودانى لم يتح له شىء من الدوافع الذاتية أو الخارجية الكفيلة بخلق الحركة فى المجتمعات ، وتوجيهها إلى أساليب وأهداف اقتصادية جديدة . حتى التوغل العربى فى السودان كان أثره قاصراً فى هذا المجال على تثبيت مهنة الرعى فى المجتمع ، بسبب تشابه ظروفه القائمة مع ظروف الموطن العربى الأصيل . ووسط غلبة المؤثرات العربية وظهور قيادات جديدة فيها الدم العربى منذ أوائل القرن الثالث عشر ، أصبح الهدف الأمثل فى المجتمع السودانى بوجه عام هو التقرب إلى الأرومة العربية والتمثل بالحياة العربية البدوية . فظل طابع الحياة العام فى السودان استمراراً للطابع السودانى العريق ولطابع الحياة العربية البدوية ، أى طابع الرعى وتربية الحيوان .

لذلك كان الرعى قبيل الفتح المصرى هو الحرفة الرئيسية للأكثرية الغالبة من السكان ، الذين نزلوا البادية . وهوامش الحضر . وكان أكثر هؤلاء البدو من العرب ، أو المستعربين الذين اكتسحوا اقليم دنقلة وتبعوا مجرى النهر أو

اتجهوا نحو كردفان ، مسيطرين على صحراء بيوضه ، غير تاركين للشايقية سوى مكان ضيق بين دنقلة وكورتى . وشارك بعضهم البيجاه فى مواطنهم فى التاكه وما صلح من البطانه ، ولم يتركوا لهم وطناً خالصاً عدا المرتفعات المطلة على البحر الأحمر . وخالط بعضهم الزنوج فى أطراف غابات الجزيرة وأحراشها . وأحاط البعض الآخر بالنوبة فى معتصماتهم فوق الجبال .

وكان للعوامل الطبيعية أكبر الأثر فى تحديد مواضع المراعى وقيمتها الغذائية ، وفى تخصيص بعضها للإبل والبعض الآخر للبقر ، وفى أثر نبت المرعى فى الحيوان . فرعاة الصحراء الواسعة كانوا لا يجدون المرعى والمروى دائماً فى مكان قريب من الحى . وهناك أخطار مختلفة كانت تهدد الحيوان ، والإنسان أحياناً ، بالهلاك ؛ فمراعى شرق السودان طالما تعرضت لغزو الجراد ، كما وقع عام ١٨١٣ ، ولحق حيوان الشرق بسببه كثيراً من الأذى . أما حيوان مرعى جزيرة سنار فكان يقاسى من وخم الهواء وانتشار الوباء فى أعقاب المطر كل عام فلا يعيش طويلا بعد موسمه رغم الاحتياط بنقله إلى الأراضى الرملية البعيدة عن موطن الوباء . وتحددت مواطن رعاة الإبل بين خطى عرض ١٨ و ١٣ شمالا تقريباً وذلك لأن المنطقة الواقعة شمال خط عرض ٤٠ و ١٧ شمالا تقريباً — كما لاحظ كايو — كانت لا تتلقى كمية من المطر تكفى لضمان المرعى ، بينما عاث فساداً فى جنوب خط عرض ١٣ شمالا ذباب السرت الناشر لمرض الغفر بين الإبل والخيل ، وكان يهلكها بعد أيام قليلة . ولما كثرت ضحايا هـذا المرض من إبل الرعاة العرب فى كردفان وخيلهم ، لم يجدوا حلا سوى تحديد مجال حركاتهم وكادوا يتحولون نهائياً عن رعى الإبل إلى البقر (وهم البقارة) . كذلك تعرضت ماشية التاكة وسنار لهجمات الوحوش المفترسة التى ألحقت بها خسائر جمة . وهناك متاعب ناشئة عن عوامل طبيعية . فكان من اليسير أن يفجأ « الهبوب » ، أى الأعصار ، القطيع فتفك افراده أعقالها وتشرد ، وقد يكون هذا أحياناً إلى غير عودة . والمراعى المعتمدة على المياه الجوفية كانت دون شك تتأثر بانخفاض مستوى النيل وفيضانه القليل ، وهو أمر كان يحدث فى فترات متباعدة أحياناً ، متقاربة أحياناً أخرى . وكل هذه المصاعب تخيفت من

المراعى وحددت نوع حيوان الرعى فى الأقاليم المختلفة وضاعفت من فقر البيئة بوجه عام . بل انها أثرت أحياناً فى نبات المرعى وبالتالى فى حجم الحيوان بصورة لم تكن متوقعة . لاحظ بوركارت أن حيوان التاكة كانت ممتلئة وقوية وقيل له أن ذلك راجع لرعيها فسائل جيدة من السنط ، وكذلك كانت قرب شندى لتوفر الماء والمرعى . بينما كانت الإبل فى رقعة مجاورة للتاكة — هى رقعة سواكن — ضعيفة هزيلة بسبب زيادة ملوحة التربة وأثر نسائم البحر فى اضعاف النبات الذى كانت تتغذى عليه هذه الإبل،إد سودت النسائم فروع الأشجار وأحالتها إلى ما يشبه الفحوم . وبالمثل يمكن تعليل ضعف الإبل قرب سنار — وهو أمر لاحظه كايو — إلى رعيها فى أطراف الغابات المنعزلة . ومع هذا قيل لبوركارت أن الحيوان كان يزداد امتلاءاً كلما صعد جنوباً لتوافر الماء والمرعى .

وبجانب ذلك كان للعامل البشرى الدخل الأكبر فى اختيار الحيوان وفى وضع نظم للرعى . فكان الجمل — الذى دخل السودان من أزمان بعيدة — هو أثمن الحيوانات الأليفة عند العرب والمستعربين حتى فى سنار . بينما بقى البقر هو الحيوان المفضل عند الزنوج فى الجنوب هم ومن اتصل بهم . عرف الأولون للجمل مزاياه الفريدة الملائمة للحياة فى الصحراء وما يشبهها ، فبذلوا فى تربيته ورعايته عناية كبيرة موصولة جيلا بعد جيل ، ونتج عن هذا الاهتمام التقليدى لرعى الإبل وتربيتها وتدريبها ان تكونت بيئات فنية بين رعاة الإبل وظهر لون من التخصص فى هذه البيئات ، فحذقت كل منها تربية سلالة معينة من الإبل تمتاز بخاصة من الخواص مثل القدرة على حمل الأثقال أو سرعة الركض أوسهولة التكيف للقتال . ومن الملحوظ أن تدريب الإبل فى السودان — أو الاشتهار به على الأقل — انتقل من العرب إلى البجاه . ولكن اهتمام البدو العرب بإنتاج الإبل القوية لم يفتر ، ولذلك حرصوا على تلقيح نياقهم من بكور ذاع عنها القوة أو السرعة . وكان بعضهم يسافر بنوقه شهوراً لهذا الغرض . وكانت الثمرة الطبيعية لهذا الاهتمام الفذ برعى الإبل وتربيتها أن كثرت الإبل فى جميع أنحاء البادية السودانية .

كان يلى الإبل أهمية وكثرة عند الرعاة ، البقر فالأغنام والماعز ، ثم الجاموس بقلة . ومن المرجح أن العرب أخذوا عن الوطنيين رعى البقر . ولذلك ربيت الإبل والبقر معاً سواء فى الشرق والغرب . وكاد البقارة فى كردفان يتحولون إلى رعى البقر وحده كما رأينا . على أى حال ربى الرعاة سلالة من البقر أليفة خفيفة ذات حجم متوسط وسنام من الدهن ، أشبهت ملامحها مثيلاتها فى النقوش المرسومة على لوحات القتال التى تغطى جدران بعض المعابد المصرية القديمة . فهى إذن سلالة عريقة ربوها بقصد الانتفاع بألبانها ولحومها . ولعل بعض بدو كردفان استخدموها فى ذلك الوقت للركوب وللنقل . أما الأغنام – وبخاصة فى بربر – فكان لا يكسوها صوف بل وبر رفيع كوبر الماعز ، وربيت من أجل لحومها بصفة أساسية .

وفى مناطق تربية الإبل شاعت تربية الخيل كذلك . لأن السودانيين – عرباً وفونجاً وبجاة – اعتزوا بها ، واستكثر سراتهم منها وتباروا فى اقتنائها . ومن أمثالهم السائرة ما يوصى بالاحتفال بها وترجى الثروة من تربيتها : « الخيل ظهورها عز ، وبطونها كنز » . وأظن أن هذا المثل يرجع إلى القرن الثامن عشر إن لم يكن قبله ، فقد روى عن اسماعيل الدقلاشى – أحد الأولياء – ما يشبهه فى القرن الثامن عشر مشبباً بمحبوبته هيبه :

مهرة الضنقلاوى والمكنوز ظهرها   يعافا المورود الداخل كجرها

وفى هذا التعبير الأدبى الجميل تنويه كذلك بسلالة الخيل العربية الأصل التى اشتهر بتربيتها أهل دنقلة ، والتى كان يضرب بها المثل فى الجمال الباهر وشدة الوثاق وصلابة العظام وامتلاء المناكب والحجل . والحجل كان مرغوباً بصفة خاصة فى الخيل ومن أقوالهم فيه : « غرة بلا حجل إما تقصير أجل أو موتاً بالعجل » . ويستخلص مما ذكره كايو عن الحجل أنه كان فى نظرهم دليلا على سلامة الجواد من المرض . وكل هذه الميزات التى ذكرناها جعلت دنقلة فى ذلك الوقت فى مقدمة أسواق الخيل الناشطة فى السودان ، ومنها استمد

المماليك بعد استيطانهم الأقليم عدداً وفيراً من كرام الخيل ، وكذلك فعل الشايقية والمريفات فى بربر وسنار . ولم تكن الخيل الجميلة متوفرة فى دنقلة فحسب بل كانت كثيرة كذلك عند بدو كردفان .

نظام البداوة :

ونظام الرعى نظام بسيط فى هيكله العام . يتلخص فى خروج الرعاة بالماشية إلى المرعى والمروى أينما كان ، فى صحبة الكلاب عادة لحراسة القطيع . ومتى شبع الحيوان وارتوى عاد به الرعاة إلى المخيم . ولم تكن المسألة سهلة دائماً ، بل كان الرعاة يواجهون المتاعب المختلفة الناشئة عن ظروف طبيعية مختلفة كما رأينا . ولكن المشكلة الرئيسية التى واجهت كل الرعاة كانت واحدة فى طبيعتها ؛ وهى البحث عن مرعى طيب وماء كاف لسقى الحيوان . وتلك مشكلة كانت يسيرة الحل فى موسم الفيضان حين كان الماء مبذولا فى كل حوض النهر تقريباً . أما فى الشتاء والربيع فكان الرعاة يستمدون الماء اللازم للحيوان من حفر عميقة أو من آبار حفروها فى مواضع متفرقة لتتجمع فيها مياه المطر الهابطة من المرتفعات مدة من السنة أو لحصول على بعض المياه الجوفية . وأقام بعضهم حول بعض المجموعات المتقاربة من هذه الآبار أحواضاً من الطين لسقى الماشية كان الرعاة يتوافدون عليها بقطعانهم طول اليوم . ولكن هذه الحفر والآبار قصرت عن تزويد الرعاة بالماء فى كل وقت ، وتفاوتت كميات المياه الممكن استخراجها منها . ولذلك لم يكن بوسع الرعاة الاعتماد على آبار بعينها ، بل اضطروا إلى التنقل من بئر إلى أخرى ، أى من موضع إلى آخر ، بحثاً عن الماء . وهذا ما يسمى بالظعن أو البداوة .

كان للرعاة إذن نظام بداوة ، ذكر بوركارت من وجوهه وجهان : أحدهما يومى بين الصباح والمساء ، والآخر موسمى . فخلال موسم المطر كانوا يهبطون من الجبال إلى السهول بين عطبرة والنيل لوفرة المراعى ، وفى الصيف يفرون من السهول الجافة المعرضة لأشعة الشمس المحرقة إلى الجبال المرتفعة

حيث العيون أكثر ماء والمرعى أطيب مورداً . وحركاتهم ، سواء كانت يومية أو موسمية ، كانت تتصف بكل خصائص النظم الاجتماعية . فهى حلول دائمة وفقت إليها الجماعة لمواجهة مشاكلها المتكررة ، وتميزت بالمرونة حسب مقتضيات الأحوال . وكانت الحركات الموسمية للرعاة تشغل مناطق واسعة متفرقة من البادية السودانية ، ولكل منها اتجاه دائرى يختلف عن غيره وتحدده المواضع المتغيرة للمراعى الصالحة فى الفصول المختلفة من السنة . فى الصيف كان بعض الرعاة البجاة وجيرانهم فى منطقة سواكن يتجهون شرقاً من سهول التاكة والبطانة إلى الجبال ، بينما يقوم رعاة البشارية فى منطقة عطبرة بحركة هجرة محدودة متجهين غرباً نحو النيل لقلة آبارهم أو إلى ضفاف عطبرة لإطعام مواشيهم الحشائش النابتة على حافة مجري النهر ، وتعاد ماشية بربر من جبال البشارية إلى حقول أصحابها لترعى ما تبقى فيها من أوراق الذرة وسيقانها الجافة ، وتتحرك قبائل البقارة فى كردفان نحو سهول الجنوب قرب جبال النوبا . فاذا جاء موسم المطر انحدر بعض رعاة البجاة والتاكة بقطعانهم من الجبال إلى السهول ، وأعيدت ماشية بربر وقوزرجب مع رعاتها البشارية إلى الصحراء وإلى مراعى البشارية فى الجبال ، وغادر البقارة المصيف — بعد تحوله إلى برك ومستنقعات موبوءة بالذباب — إلى أوطانهم ثم جاوزوها إلى السهول الجافة فى الشمال ، وفعل أهل سنار مثل ذلك بعد انقضاء سبتمبر واكتوبر وريفهما الريان الضاحك . ومتى حل الربيع تحول رعاة سواكن والتاكة إلى السهول .

وهناك نوع ثالث من الهجرات الجماعية اشترك فى القيام به الرعاة والحضر ، هو النجيع الذى كان يحدث فراراً من وباء الجدري الفتاك أو تخلصاً من وطأة الجدب كلما انخفض النيل . ومن أمثلته نجوع سنة الجدرى وأم لحم وأم حنيضل — وكلها وقعت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . وأسماؤها لا تحتاج إلى تعليق فى الدلالة على شدة وطأة الكارثة التى دفعت إلى كل منها ، وقد ظلت هذه الكوارث حية فى أذهان بعضهم غشرات السنين فأرخوا بها

أحداثهم . وقد أشار إليها ود ضيف الله فى طبقاته ، ونقل وصف أبيه لأولها بقوله : « فلما أصبحوا قاموا مسافرين .. وقد سدوا وجه الحلة بالرقيق والبعير والبقر والشياه . والشيخ (الولى وشرف الدين ولد برى) ركب قدام النجيع كأن وجهه قطعة قمر .. » .

هذا الطابع العام المشترك الذى وصفناه للوجوه المختلفة لنظام البداوة كان يغطى فروقاً فى الكم والسعة بين حركة وأخرى . فلم تكن كل حركات البداوة ذات مسافات واحدة أو ذات سعة واحدة أو حتى متماثلة . كان بعضها – مثل حركة البقارة – حركة ضخمة تتحرك فيها القبيلة بكل قطعانها ومخيماتها ، والبعض الآخر مثل حركات البشاريين – حركات محدودة لجماعات صغيرة من بعض العائلات . وكانت تحدد سعة كل حركة ظروفها وما يتعلق منها بالمهجر بصفة خاصة مثل اختلاف سعة المراعى ومدى طول الفصل المطير وانتظام سقوط المطر وما إلى ذلك .

من هذا الوصف يتبين أن نظام البداوة كان أبرز ظاهرة فى النظم البشرية للرعاة . جموع هائلة من صنوف الحيوان ، من الإبل والبقر والخيل والأغنام والماعز والكلاب الحارسة ، وأسر بأكملها أو قبيلة أو بعض قبيلة ، تتحرك عبر الصحراء والوديان والسهول وتصعد فى الجبال أو تنحدر منها ، وقد تشارف المدن القليلة المستوحشة ، فى اتجاه واحد أو فى مناطق متقاربة ، آمنة متباطئة حيناً بحثاً عن الماء والقوت ، أو وجلة مهرولة حيناً آخر هرباً من الوباء ، آتية فى الحالين على ما يقابلها من خضرة وماء ، ومحدثة من الثغاء والرغاء والمواء والصهيل والنباح والصراخ ما يحيل سكون الصحراء ضجة وصخباً ، ومنتقلة بخيامها وبمشاكلها اليومية المألوفة ، ومقيمة مع من تلقاه فى المهجر صلات ود وألفة قد تنتهى بعقد مصاهرات بين المهاجرين والقاعدين ، أو مثيرة نفرة وخصومة قد يؤديان إلى الشحناء وإراقة الدماء . وبين هذا وذلك تتفق الآراء أو تختلف ، وتتفرق البطون المتآخية أو يتحالف البعض مع قبائل أخرى ، فتضعف بطون وينبه شأن بطون ، وتظهر قيادات جديدة تغير تاريخ القبيلة وتفتح فيه صفحات جديدة ، ويكثر

النماء والخير ويمتلىء الحيوان بالشحم واللحم ويجرى اللبن فى الضروع الضامرة ، ويعمر السامر إلى حين ثم ينفض . . وهكذا إلى عودة .

نظم الملكية :

وإذا نزلت جماعة من الرعاة أرضاً واتخذتها موطناً بسطت عليها حقوق السيادة والملكية الجماعية . ومدت دعوى هذه الملكية إلى ما بالأرض من آبار ومراع وما يخترقها من طرق . ولم تسمح راضية لغير أبنائها أو حلفائها بالرعى فى هذه الأرض أو السقى من آبارها أو سلوك طرقها إلا بعد استئداء أتاوة معلومة . ولاتنزل عن هذه الحقوق إلا راغمة بعد قتال خاسر أو ثمناً لمعونة ضد طرف ثالث . ونتيجة لهذه الظروف وأشباهها تغيرت الحدود المتميعة لأوطان الجماعات القبلية البدوية من وقت لآخر .

وبجانب الحرص على حماية ملكية المراعى والآبار خاصة ، اهتم الرعاة بحماية ملكيتهم للحيوان . فاتبعوا نظام الوشم . وبموجبه اتخذت بعض جماعاتهم شارات خاصة مميزة كانت الإبل والماشية توشم بها للاستدلال عليها ان شردت أو سرقت .

القيمة الاقتصادية لنظم الرعى :

زود هذا النظام الرعاة بقدر كبير من حاجاتهم الأساسية من غذاء وكساء ومأوى وواسطة للنقل ومادة للتطيب والتنظيف ، ومال للمقايضة أو الاستثمار بصور أخرى ، وأداة لتقويم السلع الأخرى . واستخدم الحيوان فى العمل الزراعى فى حالات محدودة .

فيما يخص الغذاء . كانت أهم منتجات حيوان الرعى فى السودان هى الألبان واللحوم . ومن الرعاة من كان يقتصر على أولاهما أو على كليهما فى طعامه مختاراً أو مضطراً إبان الجدب أو كوارث الوباء أو حين كان الجراد يغزو البلاد . وكان اللبن بصوره المختلفة — حليباً أو رائباً أو زبداً — مرغوباً ووفيراً . وكان يضاف إلى كل طعام تقريباً . ويقال حينئذ أن الطعام ملح باللبن أى أصبح مليحاً به .

وبسبب توفر لحوم الإبل والبقر والماشية الصغيرة كان السودانيون بعامة يحبون تناول اللحوم بانتظام وبعضهم كان يرغبها كل يوم .

من ناحية أخرى نسج الرعاة أخبيتهم من صوف الغنم أو وبر الإبل والماعز ، وصنعها بعضهم من جلود الماشية . واتخذ كثير من نساء التاكة ميادع من جلود الحيوان . بينما اكتفت الفتيات فى كثير من الأقاليم بارتداء الرهط المصنوع من سيور جلدية حول أوساطهن . واستخدم السكان جلود الحيوان ووبره فى صنع أشرطة وحشايا لتغطية العنقريب ، كما اتخذوا فراء الغنم فراشاً . واستعانوا بالزبد وبدهن الإبل لتدليك الجسم ولدهن الشعر أو صبغ الوجه تجملا . ومن باب الاقتصاد استعمل البدو فى بربر الروث الجاف بدل الصابون النادر الغالى الثمن لتنظيف الأقمشة القليلة القيمة .

ولعبت الإبل والخيل دوراً هاماً فى حياة القوم بوصفها وسائط للنقل فى السلم والحرب . وكان البدو العرب فى البلاد الغربية يركبون الجياد وحدها . وبالمثل كان ثراة السودانيين فى بلاد النيل والشرق يفضلون امتطاءها فى تنقلاتهم . كما كان شجعانهم يركبونها ويفجأون بها العدو . وكانت مقاتلات الفرسان هى التى تقرر فى الأعم الأغلب مصائر معارك الشليقية وأهل بربر وسنار .

وحيوان الرعى ومنتجاته بعد ذلك سلع تجارية كانت موضوع المبادلات بين البدو وأهل الحضر ، ومثلت نسبة طيبة من التجارة الخارجية للسودان . وحل البقر فى حالات كثيرة محل النقود إذ كانت تسدد به مهور العرائس وديات القتلى ، وأصبح وسيلة لتقويم أثمان السلع الأخرى الغالية نسبياً ، ولتقدير الثروة الفردية أحياناً .

لا غرو إذن أن أصبح لحيوان الرعى مكانة عزيزة فى نفوس الرعاة فأحسنوا معاملته . كانوا يرون أن « ظلم البهائم حرام » ، وهذا القول من أمثالهم السائرة ، وتحاشوا فصل حوار الضأن أو الإبل عن أمه فى سن الرضاع . ودرسوا مزاج الإبل فعرفوا بحبها للنغم ولذلك لم يبخلوا عليها بالأجراس الصغيرة يثبتونها فى أعنتها وأرسانها ، وآنسوها بالحدو الشجى وبخاصة فى سرى الليل ، وتفننوا

فى ذلك حتى أصبح من أبواب أغانيهم الحافلة باب خاص بالحدو – أو الحداء – يعرف بغناء النعم .

الآثار الاجتماعية لنظام الرعى :

مع هذا يمكن القول أن نظام الرعى لم يحقق لكافة المشتغلين به من بدو السودان قدراً مناسباً من الرفاهية يطمئنون معه إلى حياتهم ويرضون عنها فيكتفون به عما عداه . مع اتساع الصحراء وجدبها وعدم كفاية المراعى لم ينتج نظام الرعى قوتاً كافياً لعدد من السكان يملأ رحاب السودان الفسيحة . فكان من الآثار المباشرة لنظام الرعى قلة السكان وتفرقهم إلى جماعات صغيرة العدد متركزة فى مواطن متباعدة . وفى ظل هذا الوضع قل العمران بطبيعة الحال . وكلا الأمرين لفت أنظار الرحالة المختلفين الذين زاروا البلاد .

وحتى هذا العدد الضئيل نسبياً من الرعاة كان لا يحصل دائماً على قوته بسهولة ، بل اضطر فى سبيله إلى تحمل العناء والمكابدة . فأصبحت الهجرة من الأوطان إلى أمد أو إلى غير عودة شيئاً مألوفاً ، ولم يعرف السودانيون بعامة الالتصاق الشديد برقعة محدودة من الأرض كما عرفه فلاحو مصر . كذلك أصبح التنافس على المراعى وعلى المياه أمراً عادياً ، وكثيراً ما نشأت بين القبائل المتجاورة عداوات تقليدية بسببه . فالبشاريون مثلا كانوا أعداء الهدندوة والأمرأر والعبابدة . وهؤلاء الأخيرون كانوا يكرهون أيضاً الرباطاب . والشليقية كانوا خصوم السابقين وخصوم الدناقلة وجعليي شندى على السواء . وكذلك كان بين البطاحين والشكرية فى البطانة عداوة موروثة لم تنج من نارها حتى تاجوج أجمل نساء عصرها . ووسط هذا السباق الجماعى المستمر الذى فرضه نظام الرعى فى بيئة جدبة فشل سكانها فى خلق نظام تعاونى مثمر للانتفاع معاً بالمياه وبالمراعى فى أنحاء الوطن الواسعة ، كما فشل حكامها فى بسط الأمن والنظام ، كان من المستحيل على أى فرد – مهما بلغت قوته أو ثروته – أن يقف وحيداً . فاستمر النظام القبلى بكل خصائصه قائماً فى البادية السودانية وقوياً .

وخليق بالتقدير والإعجاب أن هذه الظروف لم تغير من طبيعة البدو الرعاة

أو تسلبهم فضائلهم المعروفة ، وعلى رأسها الكرم . فلم يقبل أحد فى البادية فكرة ذبح الحيوان لبيع لحمه ، بل ظل من التقاليد الراسخة فى المجتمع البدوي الرعوى تقديم اللحم «كرامة» للضيف وللوافدين أثناء الاحتفال بالمناسبات الدينية مثل موالد الأولياء أوتنصيب الخلفاء أو إقامة الأذكار(أوالاحتفالات الشخصية كالاحتفال بالزواج أو بميلاد طفل أو تسميته أو فى مناسبات الوفاة أو بناء دار جديدة أو الاتفاق على عمل) . والأخبار التى أوردها ود ضيف الله ضمن تراجمه حافلة بصور الكرم ، ومن أبرزها ذبح الحيوان للضيف. ومن ألطف ما قرأت فى باب الكرم أن ملك تقلى كان يحارب أحد ملوك سنار بالنهار و يرسل إليه الضيافة بالليل حرصاً على التقاليد الجميلة . ولم تكن نفس المضيف تستريح إن لم يذبح لأضيافه .

المهن الأخرى للبدو :

هذه الظروف كلها — مضافاً إليها تدهور سلطة الحكومة المركزية فى سنار — أغرت البدو باتخاذ مهن أخرى كان فى مقدمتها الغزو (وقد يسمى الحرط) الذي أصبح المهنة القومية الثانية فى البادية . ومع ذلك لم تكن حرفة الغزو فى كل الأحوال مناسبة لجميع البدو أو مجزية لهم . ولذلك اتجه عدد منهم إلى مهن أخرى يرتزقون منها ؛ التحق بعضهم مثلا بخدمة الحكام أو قام بدلالة الطريق للمسافرين ، أو نقل المتاجر أو أجر إبله للغير ، أو اشتغل بالتعدين أو الصيد . حتى الزراعة — وهى المهنة الكريهة عند البدو — حظيت بإقبال غير عادى فى البادية السودانية .

حسين كامل أبو الليف

مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين
بشبه جزيرة سينا

قامت، أوائل عام ١٩٥٠، بعثة مصرية أمريكية لتصوير مخطوطات دير سانت كاترين بشبه جزيرة سينا، وكنت أحد الذين ساهموا ببعض الأعمال مع تلك البعثة. وأسجل هنا ملحوظات شخصية سريعة على ما تناولته يداى من ذلك التراث :

١ — أقدم المخطوطات العربية :

ترجع أقدم مخطوطتين شاهدتهما بالدير إلى القرنين الثالث والرابع الهجرى. والأولى نسخة من الأناجيل الأربعة : متى ومرقس ولوقا ويوحنا، مكتوبة بالخط الكوفى وتاريخها المحرم سنة ٢٨٤. وهى مجلدة تجليداً متقناً ومكتوبة بالحبر الأحمر والحبر الأسود. ويقتصر الحبر الأحمر على كتابة عناوين الأناجيل والصلوات ومواقيت قراءتها. ويلى الأناجيل فى هذه المخطوطة مقالان : أحدهما لاوسيل أبو قرة والثانى لباسليوس القديس. وتنتهى المخطوطة هكذا : «وكتب المسكين فى أشهر العجم فى أول شهر اذار، ويكون من حساب سنى العالم على ما تحسبه كنيسة بيت المقدس القيامة المجيدة من سنة ستة آلاف وثلمائة وتسعة وثمانين سنة؛ ومن سنى العرب فى شهر المحرم من سنة أربع وثمانين ومايتين سنة. رحم الله من قرأ ومن كتب، ووهب للمقتنى الفهم والحفظ للوصايا آمين».

والمخطوطة الثانية أربعة أناجيل مكتوبة كذلك بالخط الكوفى وتاريخها ذى القعدة سنة ٣٩٢ هـ. وشغلت الأناجيل النصف الأول من المخطوطة، أما النصف الثانى فرسالة عنوانها «برهان يدل على أن للخلق إله يكسر قول الدهريين الذين يزعمون أنه ليس الله» وفى نهاية المخطوطة تاريخ كتابتها واسم كاتبها،

وجاء فى ورقة ملصقة بتلك المخطوطة ومكتوبة بخط أسقف الدير أن القمر والشمس كسفتا فى الرابع عشر والثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٣٨٠هـ.

٢ — حجج شرعية :

تكون مجموعة الحجج الشرعية الجانب الأكبر من وثائق مكتبة الدير . وهى فى ذاتها دراسة طريفة للتعامل بين الناس ، وللصيغ المستخدمة فى تحرير العقود من العصر الفاطمى إلى العصر العثمانى . وهذه الحجج مكتوبة من الوجه والظهر ، فإذا ضاقت الحجة عن أن تتسع لتمليك جديد ، أضيف إليها درج آخر من الورق ... وهكذا . ويبلغ أطول هذه الحجج ٢٥ متراً تقريباً ، أما العرض فيتراوح بين ٢٠و٣٠ سم تقريباً . ومنذ العصر العثمانى ، أخذت الحجج الشرعية شكلا موحداً ، هو درج من الورق ، يبلغ متوسط عرضه ٢٥ سم ومتوسط طوله ٨٠ سم ومكتوب من وجه واحد وصادر من أحد المحاكم الشرعية المعروفة وقتذاك بالقاهرة « المحروسة » . وجرت عادة قضاة الشرع « الشريف » ، فى العهد العثمانى أن يوقعوا على الحجج بأختامهم لا بإمضاءاتهم ، الأمر الذى لم يكن ملحوظاً فيما مضى . ويتضح من هذه الحجج أن القضاء فى العهد العثمانى لم يقتصر على الأحناف بل كان القضاة من أهل المذاهب الأربعة جميعاً .

٣ — الورق والخط :

تكاد لا تضم تلك الحجج شيئاً مكتوباً على البردى ، إذ كلها على الورق . ولم يستخدم الرق إلا فى كتابة المخطوطات ، اللهم إلا وثيقة واحدة تتضمن اتفاقاً بين العرب والرهبان . وقد تعددت أحجام الورق وأنواعه أما الخطوط المستعملة فتختلف أقلامها بين الحسن والردىء وبين الرفيع والسميك .

ونشير هنا إلى استخدام الترقيم القبطى فى المخطوطات العربية ، وليس هذا بغريب إذا علمنا أن تلك المخطوطات عبارة عن أناجيل وأدعية وصلوات كنسية .

٤ — مخطوطات من لغتين :

ونرى فى كثير من المخطوطات الجمع بين النصين العربى واليونانى فى

عمودين متقابلين من صحيفة واحدة أو فى صحيفتين متقابلتين . والخط العربى المستخدم فى تلك المخطوطات هو الخط الكوفى ، ولما كانت اللغة اليونانية هى الأصل فى تلك المخطوطات وهى كما نعلم تبدأ من الجانب الأيسر للمخطوطة فقدكتبت النصوص العربية هى الأخرى من الجانب الأيسر .

٥ ــ رسوم ذات طابع إسلامى :

ويلاحظ أن الرسوم التى تزين كثيراً من المخطوطات اليونانية ذات طابع إسلامى يستطيع الباحث أن يحدد عن طريقها العصر الذى كتب فيه المخطوط . والواقع أن هذه الظاهرة تستحق العناية والدرس لأهميتها بالنسبة للعلاقات الفنية المتبادلة بين فنون الشرق الأدنى وتأثير كل منها على الآخر . ولا يبعد أن يكون مزخرفوا هذه المخطوطات من المسلمين وأن هؤلاء قاموا بهذا العمل للرهبان . أو أن تكون من صناعة مزوقين مسيحيين عملوا فى هذا الفن لحساب المسيحيين والمسلمين على السواء .

٦ ــ مخطوطات مغسولة :

من الأمور المعروفة فى العصور السابقة ، التجاء البعض إلى غسل المخطوطات وإعادة الكتابة عليها ولا يكون ذلك ميسوراً بالطبع إلا حين يكون النص القديم مكتوباً على الرق ؛ فتغسل الصحيفة من الحبر القديم لتكون معدة للكتابة عليها من جديد . وفى مجموعة سانت كاترين مخطوطات كثيرة من هذا النوع . وتبدو بين سطور بعض الصفحات كلمات من الكتابة السابقة .

٧ ــ حشو جلود الكتب بالبردى :

اكتشف الدكتور جاريت أحد أعضاء البعثة أن واحداً من المجلدات الضخمة حشيت جلدته السميكة بطبقات من ورق البردى ذى الكتابات . وأثار ذلك اهتمام الجميع ولكن لم يكن من السهل الاستمرار فى البحث دون الاضرار بجلدة المخطوطة ولعل الإشارة إلى هذه الظاهرة هنا توجه الانتباه إلى أمثالها .

توقيع الخليفة الفائز الفاطمي

توقيع السلطان قطز

توقيع السلطان بيبرس

توقيع السلطان قلاون

توقيع السلطان حسن

توقيع السلطان محمود شيخ

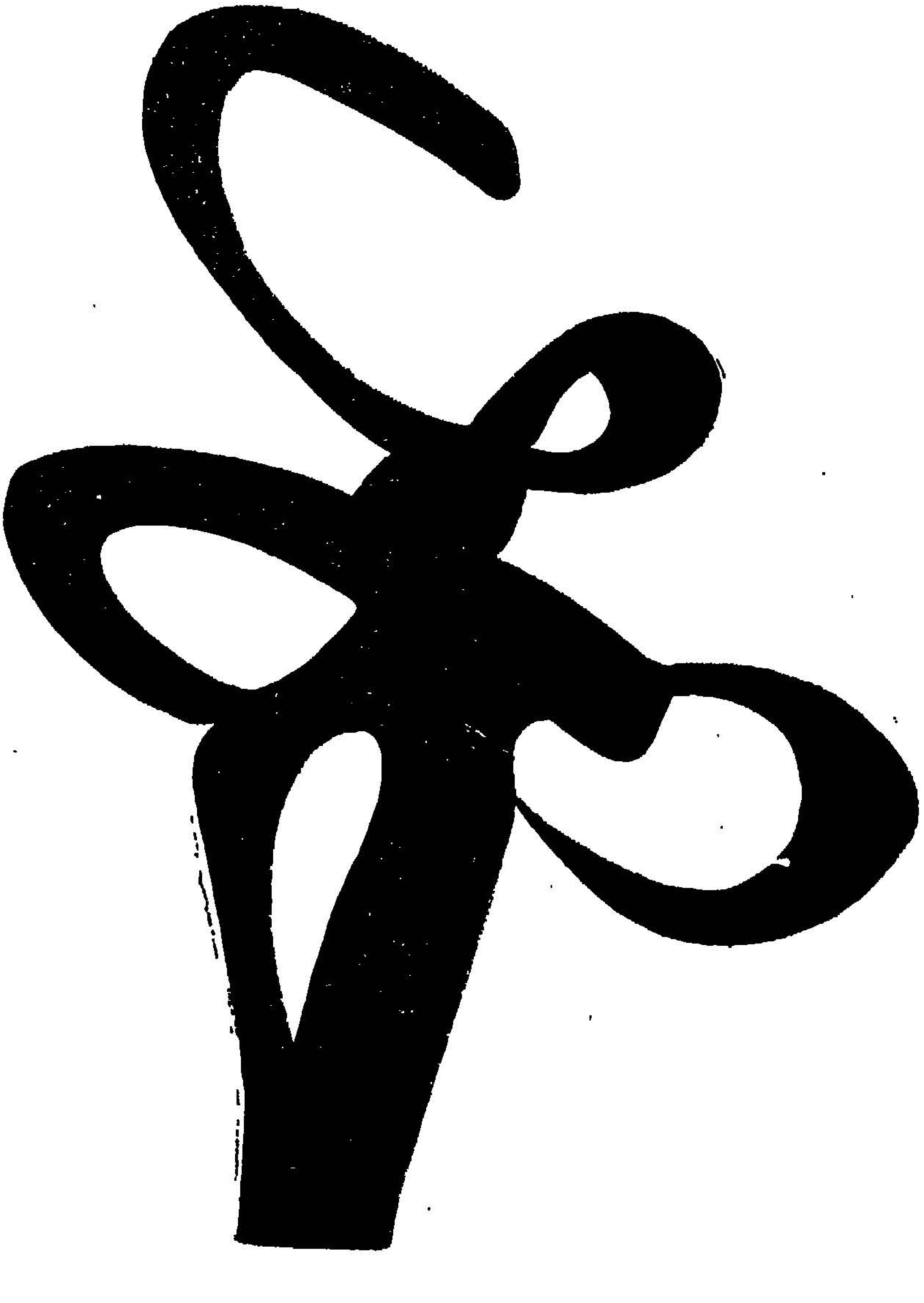

توقيع السلطان جقمق

توقيع السلطان خشقدم

توقيع السلطان قايتباي

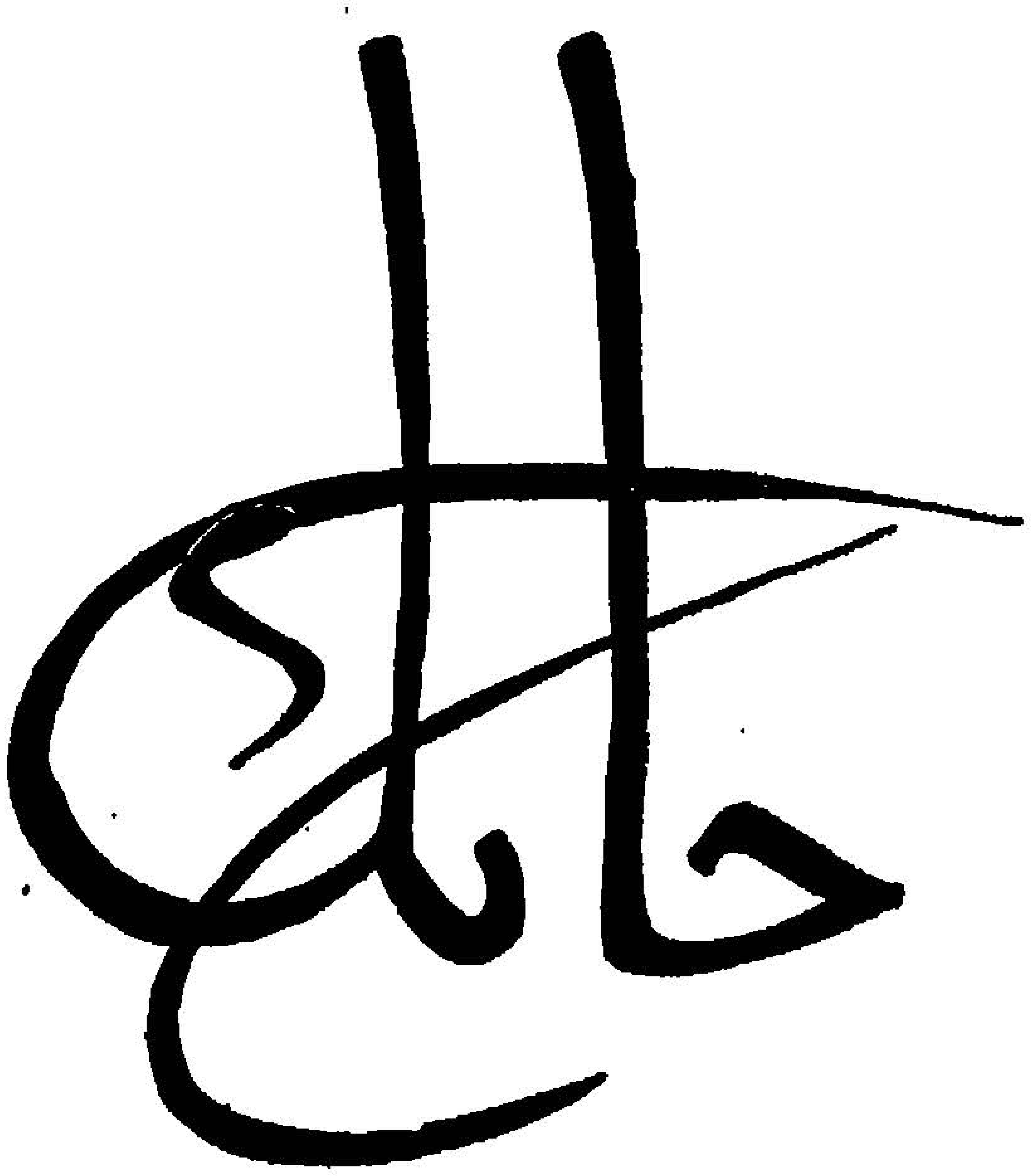

توقيع جانى بك

توقیع اقبردی

٨ — تعدد لغات المجموعة :

المخطوطات والوثائق التى تضمها مجموعة الدير مكتوبة بعدة لغات وأكثرها اليونانية ، ثم العربية والسريانية والجورجية والتركية والسلافية والقبطية والحبشية على هذا الترتيب . ويدل تعدد لغات المخطوطات على تعدد القوميات التى عاشت بالدير فى مختلف العصور .

٩ — التوقيعات السلطانية :

ومن أهم ما تضمه تلك المجموعة عدد من المنشورات الرسمية أو الديوانية يرجع أقدمها إلى العصر الفاطمى وعليها توقيعات أوعلامات الخلفاء والسلاطين . وهذه المنشورات تحتوى على أوامر إلى الحكام لرعاية شئون رهبان الدير وتأمين سلامة أرواحهم وأموالهم ورد عدوان المعتدين عنهم .

ويبدأ المنشور عادة بالبسملة يتلوها عبارة تتضمن موضوع المنشور وكل ذلك فى سطرين ويأتى بعد هذين السطرين فراغ كبير (حول ٢٠ × ٢٥سم) مخصص للعلامة السلطانية ، ويليها نص المنشور ، ثم يذيل بتاريخ الاصدار وتوقيعات رجال الديوان .

وعلى صحيفة ٤ ومايليها أمثلة من تلك التوقيعات السلطانية بحجمها الطبيعى ، منقولة عن أصولها المحفوظة بمكتبة الدير .

وعلى سبيل المثال ، أعرض هنا قراءة لأحد تلك المنشورات ، وهو من أقدم ما تضمه مجموعة الدير ويرجع إلى عصر الخليفة الفاطمى الفائز ،وتاريخه : ربيع الثانى سنة ٥٥١هـ .وطوله ٤٨٨ سم وعرضه ٢١سم ونصه كما قرأته كالآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

منشور مقدم بكتبة فتى مولانا

(الحمد لله على نعمه)

وسيدنا الإمام الفائز بنصر الله

أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى

آبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين ،

السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأئمة كاشف الغمة ، أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو الغارات طلائع الفايزى وتضمينه :

إنه لما كان من شيمنا إزالة المحدثات وتعفية آثارها والمنع من الاستمرار عليها وتأكيد أفكارها ، بدعائه من يحتوى عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة واعتمادهم بما نسبغ عليه ملابس الحنو والرحمة ، ليتساوى فى عدلنا الصغير والكبير ، ونشملهم من حسن مطرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير . وأنهى إلى حضرتنا استضرار اسطونة أسقف طور سينا بما يقصده به الولاة من الاجحاف ، ويعتمدونه من الحيف والاعتساف ويلتمسونه من جهته من رسم أحدثوه وهو عشرة دنانير . . . ؟ . . . وان ذلك قد قضى له ولمن معه من الرهبان بالاضرار ، واجحف به وبهم التمادى عليه والاصرار ، أنكرنا ذلك على معتمديه ، وذممناه من قصد قاصديه ، وخرج أمرنا بإيداع هذا المنشور ، الآمر بإزالة هذا الرسم وتعفيته والمنع من التماسه من هذا الأسقف ، والحذر من تناوله من جهته ، واعتماده بالرعاية

والملاحظة والمعونة والمرافدة ، والمبالغة
فى إعزاز جانبه وتسهيل مطالبه
والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه مغرما
أو خسارة ، واجرائه على الأوامر المرضية
والأوضاع المختارة .
فمن قراه أو قرىء عليه من كافة الامرا
الولاة بالحصون الطورية أدام الله . . . ؟
فليعمل بالممثل فيه وليتناى ما يوجبه
حكمه ويقتضيه ، وليحذر من تجافيه
وتعديه و . . . . ؟

(التاريخ)

(امضاءات رجال الديوان)

١٠ ــ العلامات المائية والدمغات العثمانية :

وأشكال العلامات المائية على الورق، ولاسيما فى وثائق العصور المتأخرة، عديدة ومتنوعة وتدعو إلى الاهتمام لأنها تحدد الجهة التى صنع بها الورق أوجهة الاستيراد ، وهذا هام بالنسبة للعلاقات التجارية فى تلك المدة .

وقد تبينت على إحدى ورقات الدمغة وهى حجة مؤرخة : الخميس ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ ﻫ ، درعاً بيضاوية تضم داخلها ثلاثة نجوم وفوق الدرع رسم تاج ويعلو التاج هلال أما أسفل الدرع فقد لمحت الحرفين VC فى هذا الموضع ، وبالبحث ظهر أنها العلامة المائية للورق المصنوع فى البندقية أواخر القرن الثامن عشر الميلادى .

وتختلف العلامة المائية بالنسبة لمصدر استيراد الورق ، وقد يختلف الورق كذلك بالنسبة لطبيعة العقد المدون عليه ؛ فقد شاهدت علامات مائية على الأوراق الخاصة بالبيع والشراء تغاير تلك التى توجد على عقود الإيجار أو أوراق الضمان أو المبادلة .

وتختلف كذلك قيمة الدمغة المحصلة عن العقود ، باختلاف القيم المذكورة في العقد ، فتوجد أوراق دمغتها أربعون قرشاً ، وهناك حجة شرعية بمبلغ يزيد عن ماية ألف قرش ، دمغتها ماية وخمسون قرشاً ، وعلى هذه الحجة علامة مستديرة جاءت بداخلها عبارة « ورقة مصرية » وتاريخ هذه الحجة ١٢٧٣ هـ. وفي ورقة أخرى قسمت العلامة المستديرة إلى ثلاث مناطق متساوية ، كتبت في كل منطقة منها كلمة : أوراق — تمغاى — مصرية . ويرجع تاريخ هذه الورقة إلى عام ١٢٦١ هـ .

١١ — أختام عند فواصل الورق :

ويلاحظ على الحجج والمستندات الرسمية التي ترجع إلى عهد الغورى ، وجود أختام مستديرة بحبر بنفسجي اللون عند فواصل الأدراج ، وتحمل هذه الأختام العبارة التالية : السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى — عز نصره .

وثمة ظاهرة جديدة في عصر الغورى ، وهي استخدام الناس للأختام الأمر الذى لم يكن شائعاً في حجج العصر المملوكى ثم صار واسع الشيوع في العصر العثمانى .

١٢ — العبارات الإسلامية والتاريخ الإسلامى :

وتضم مجموعة الدير عدداً من الرسائل الخاصة المتبادلة بين مسيحيين ، ومع ذلك فهى تبدأ بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم أو بالحمد لله وحده أو بعبارات دعائية مثل فسح الله تعالى في أجله ، إلى جانب تأريخ الخطاب بالتاريخ الهجرى. ومن أمثلة ذلك الخطاب الموجه من ميخائيل مانولى إلى وكيل الدير بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٢٦٠ هـ .

١٣ — فتاوى بإمضاء شيوخ الإسلام :

وتوجد بالدير مجموعة كبيرة من الفتاوى الصادرة عن شيوخ الإسلام وشيوخ المذاهب والموقع عليها بامضاءاتهم ونقرأ من بين تلك الامضاءات أسماء الشيخ أحمد الشيمى الحنفى ، والشيخ الشرقاوى والشيخ أحمد الحمامى والشيخ

الدمنهورى والشيخ أحمد المقدسى الحنبلى والشيخ حسن الجداوى المالكى والشيخ عبد الباسط السنديونى والشيخ محمد الحنفى الحريرى والشيخ على اللقانى والشيخ محمد الأحمدى الشافعى والشيخ أحمد الراضى المالكى والشيخ الشبراخيتى .

وبعض هذه الفتاوى خاص بمسجد الدير وخدمته ، وبعضها خاص بأوقاف الدير والنظارة عليها ، وبعضها خاص بحكم الإسلام فيمن يتعرض للرهبان بالأذى .

وثمت فتوى غير مؤرخة تتلخص فى أن عالماً مالكياً أفتى برأى فى مسألة من مسائل الطلاق والميراث . فسأل سائل : وهل يجوز الأخذ برأى المالكى فى تلك المسألة أم لا يجوز ؟ وأجاب على هذا السؤال اثنان من العلماء ، وقالا بجواز الأخذ بفتوى العالم المالكى .

١٤ — معلومات أثرية هامة :

وتحتوى الخطابات والوثائق والحجج الشرعية المحفوظة بالدير جانباً من المعلومات الهامة عن الآثار المعاصرة لتلك المستندات ، إذ يجيء اسمها بكثرة حين ذكر حدود المكان المباع أو المشترى أو عند ذكر الأوقاف وتحديد النظر عليها أو عند الإشارة إلى المكان الذى حررت فيه الحجة الشرعية . فنجد فى إحدى الحجج أن مئذنة المسجد القائم وسط الدير — وهو من العهد الفاطمى — زيد فى ارتفاعها سنة ٧٠٠ هـ وأن محاكم الشرع الشريف كانت تعقد فى القاهرة فى الجامع الطولونى وجامع الحاكم وجامع الصالح طلائع والمدرسة النجمية والمدرسة الكاملية والمدرسة المسلمية والجامع القوصونى . ومعنى هذا أن تلك المبانى كانت حتى العصر العثمانى صالحة لأن تكون أماكن عامة وان الخراب لم يكن تطرق إليها بعد .

وجاء فى تلك الوثائق أن المدرسة المسلمية — وأنشأها أحد التجار حوالى ٧٧٦ هـ — كانت مقراً لمجلس الشرع ، وأن عقد رسمياً وقع بها عام ٩٣٧ هـ . وقد تكون استمرت قائمة البناء بعد ذلك بكثير لو أن هناك حججاً أو وثائق أخرى يمكن الاستشهاد بها على ذلك . أما المدرسة الكاملية وهى دار الحديث

التى بناها السلطان الكامل الأيوبى ، ففى تلك الوثائق ما يدل على أنها كانت سليمة البناء حتى ١٠٢٦ هـ . ويجىء كثيراً اسم المدرسة الصالحية أو الصالحية النجمية ، وآخر التواريخ الدالة عليها هو ١٢١٠ هـ .

ومثل هذه المعلومات يهم الأثرى الباحث . وحبذا لو أتيحت الفرصة لقراءة أمثال هذه الحجج فى الدفترخانة المصرية ووزارة الأوقاف لإخراج المعلومات الدقيقة التى بين سطورها للحياة والنور .

١٥ — المستخرجات الرسمية :

وتوجد مجموعة صغيرة من مستخرجات رسمية من تاريخ متأخر ، منقولة عن أصولها المحفوظة بالقاهرة وكلها خاص طبعاً بشئون الدير وكان يكتب على المستخرج العبارة التالية : هذه صورة نقلت من سجل الباب العالى المحفوظ بخزينة السجلات بمحكمة مصر الكبرى . وأقدم تلك المستخرجات ،عقد يرجع تاريخه الأصلى إلى ١٦رجب سنة ١١١٦هـ ، أما تاريخ المستخرج فهو٢٥ ربيع سنة ١١٦١ هـ .

وبعد — فالذى أرجوه من وراء هذا العرض السريع لما تضمه مجموعة دير سانت كاترين من وثائق ، هو أن ألفت النظر إلى ما بها من معلومات تاريخية واجتماعية وأثرية ، وإلى ضرورة وجود نسخة منها على الميكروفيلم باحدى مكتبات القاهرة ، لأن النسخة المحفوظة منها بمكتبة جامعة الاسكندرية تكاد تكون بعيدة عن مركز النشاط والبحث العلمى للدولة وهو مدينة القاهرة .

احمد محمد عيسى

سكان فلسطين
ودراسة تاريخهم الجنسى

عناصر البحث :

١ — الظروف الجغرافية العامة ذات الأثر فى تعمير فلسطين بالسكان .
٢ — إنسان ما قبل التاريخ فى فلسطين .
٣ — عصر بداية المعدن : الهجرات السامية وأثرها فى تعمير فلسطين .
٤ — الهجرات غير السامية : الفلسطين — الحيثيون .
٥ — العصر الاغريقى الرومانى — بدء تشتت اليهود وتعريب فلسطين .
٦ — الشعب العربى الفلسطينى .
٧ — اليهود : انتشارهم فى العالم . وصفاتهم الجنسية .
٨ — خاتمة : ملاحظات عامة .

تقـديم :

سنحاول فى هذا البحث تتبع الشعوب التى رحلت إلى فلسطين منذ أقدم العصور واستيطانها وتوزيع منازلها ، ثم استعراض صلة هذه الشعوب القديمة سامية أو غير سامية بالشعبين اللذين يتنازعان هذا القطر ، مع دراسة تاريخ تعريب فلسطين . ولا بأس من تتبع اليهود فى بقاع الأرض المختلفة التى هاجر أسلافهم إليها . أو التى اختلطوا بأهلها أو اعتنق أهلها الدين اليهودى . إذ منهم تتكون هجرات اليهود الحديثة إلى فلسطين . وبالتالى تتكون جمهرة اليهود فى الأقاليم التى يتركزون فيها . فى السهل الساحلى وسهل مرج ابن عامر .

وسنستعين فى هذه الدراسة بحقائق التاريخ . التى نحصل عليها من الوثائق التاريخية أو استنتاجاً من الحفائر الأثرية . أو ما تواتر إلينا من أبناء الماضى عن طريق العهد القديم من الكتاب المقدس . هذا الكتاب الذى جمعت أسفاره

فى فلسطين نفسها ابتداء من القرن الثالث عشر ق. م تقريباً . ولم يكتمل إلا قبيل ظهور المسيح عليه السلام (١) . على أن الباحث يستعين على فهم الإشارات التاريخية الواردة فى هذه الأسفار بنتائج الحفائر التى أجريت فى فلسطين وغيرها من أجزاء الشرق الأدنى . وبأبحاث علم الأجناس والسلالات . غير أن طبيعة هذا البحث تجعلنا أكثر اعتماداً على نتائج علم الأجناس والسلالات من جهة ، والأخذ بمنهج البحث الجغرافى من جهة أخرى . وهكذا سنأخذ بأطراف علوم ثلاثة تهتم بدراسة الإنسان ونشاطه من وجهات نظر متعددة ومتكاملة لا سبيل إلى الفصل بينها . وهى التاريخ وعلم الأجناس والجغرافيا .

١ – الظروف الجغرافية العامة ذات الأثر فى تعمير فلسطين بالسكان :

لاشك أن الظروف الجغرافية العامة التى تحيط بفلسطين لعبت دوراً رئيسياً فى توجيهها الجغرافى واستقبالها للقبائل والشعوب فى الأزمنة القديمة . ولذلك يحسن بنا أن نبدأ بالإلمام بهذه الظروف الجغرافية التى تعين على فهم حركات هذه القبائل والشعوب القديمة . ولعل أهم هذه الظروف الجغرافية من وجهة نظر علم الأجناس هى الموقع الجغرافى العام . ومظاهر السطح والتضاريس . ومميزات المناخ الرئيسية .

أما عن الموقع الجغرافى العام فان فلسطين تطل على الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط لذلك لم يكن غريباً أن تتعرض للموجات البشرية إذا اضطربت فى الركن الشرقى لهذا البحر . كما أنها تقع عند القرن الجنوبى الغربى « للهلال الخصيب » بين الصحراء وبين البحر من ناحية . وبين أكبر مراكز الحضارة القديمة فى وادى النيل وحوض دجلة والفرات من ناحية أخرى. أى أنها بحكم موقعها كانت معبراً طبيعياً للشعوب المتحضرة القديمة ، بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى تعبره قوافل التجارة وركاب البريد وجيوش

---

(١) انظر فيما يختص بتاريخ أسفار العهد القديم وبنقد قيمتها كمرجع علمى المقالين التاليين :

Driver, S.R. & Peake, A.S. Art. Bible, O.T., Ency. Brit., vol. 3, p. 501 ff. and Stewart, A. Art. Bible, Dictionary of the Bible. Ed. Hastings. J. Vo. 1, 5th Impression, 1906, p. 290.

الغزاة بين المتنافستين القديمتين « مصر وبلاد النهرين » فكان مقدراً لها أن تتأثر – من الناحية الجنسية – بهذه الحركات العابرة للتجارة والمحاربين . هذا إلى أن فلسطين تقع بين البحر المتوسط والصحراء اللذين كانا المصدرين الرئيسيين لشعوبها فى التاريخ القديم . واللذين تجاذبا توجيهها الجغرافى على مر العصور فجعلاها جزءاً من العالم السامى القارى وقتاً ما . وضليعة فى العالم الاغريقى الرومانى وقتاً آخر . متجهة نحو العالم العربى أو متجهة – قسراً – نحو أوروبا فى عهد الصليبيين . ثم ها نحن نشهد اجتذابها نحو العالم العربى وتعرضها لليهود – الوافد عبر البحار – فى سهلها الساحلى مرة أخرى (١) .

ننتقل الآن إلى الإلمام بطبيعة سطح فلسطين ، إذ أنه يلقى ضوءاً على توجيهاتها الجغرافية نحو الداخل أو نحو البحر من جهة ، وعلى منافذ فلسطين نحو العالم الخارجى ومصادر الهجرات ومنازلها فى فلسطين من جهة أخرى .

يمتاز سطح فلسطين بتوازى ثلاثة مظاهر تضاريسية كبرى فى اتجاه شمالى جنوبى وهى : سهل ساحلى يزداد اتساعاً كلما اتجهنا نحو الجنوب . ثم هضبة متقطعة متوسطة الارتفاع تعتبر امتداداً جنوبياً لجبال لبنان الغربية ، يعترضها منخفض سهل مرج ابن عامر من الغرب إلى الشرق . ثم منخفض الغور ويجرى فيه نهر الأردن الذى ينحدر منخفضاً تحت سطح البحر إلى أن يصب فى البحر الميت (١٢٩١ قدماً تحت سطح البحر) ، ثم يرتفع المنخفض ثانية – وإن كان لا يزال غائراً بالنسبة للحافتين الشرقية والغربية – فى منخفض وادى العرابة حتى خليج العقبة .

تنقسم المرتفعات الوسطى إلى قسمين : هضبة السامرة أو ساماريا فى الشمال ويفصلها عن جبل الكرمل ممر مجدو ، وعن هضبة يهوذا فى الجنوب منخفض اللبان . وهضبة يهوذا أو يهوذية فى الجنوب ، وهى هضبة انكسارية

---

(١) فيما يختص بمزايا الموقع الجغرافى لفلسطين انظر بصفة خاصة :

Smith, G.A. The Historical Geography of The Holy Land, London 1948. pp. 3-20. Ghallab, M.E.S. Constant and variable Factors in the Interrelations between the Judaea Plateau and the Maritime Plain of Palestine, Bull. Soc. Roy. de Geog. d'Eg. XXIV, 1951,

مستطيلة تنتهى من الشرق والغرب بمدرجات انكسارية تتتابع فى سرعة وعنف من الشرق نحو الغور بينما تتدرج فى سهولة ويسر بمدرجات عريضة نحو الغرب، إلى تلال شفيلاه التى تعتبر مقدمات الهضبة للصاعد من السهل الساحلى . هذا إلى أنه يفصل هضبة يهوذا عن هذه التلال وادى انكسارى طولى يمتد من شمال الشمال الشرقى إلى جنوب الجنوب الغربى . هذا الوادى كان بمثابة أرض حرام بين المملكة العبرية وبين اتحاد المدن الفلسطينية فى التاريخ القديم .

وتمتاز هذه الهضبة بأنها جيرية تأثرت بعوامل التعرية والتحات فقسمتها السيول والأنهار الفصلية العميقة إلى عدة أقسام صغيرة ومنفصلة بعضها عن البعض . ولقد استطاعت فلسطين جنوب جبل الكرمل على الأقل أن تتميز ببنيتها وتضاريس سطحها العامة وتصبح وحدة جغرافية منفصلة يفصلها نهر الأردن ومنخفض البحر الميت ووادى عرابة العميق عن هضبة شبه جزيرة العرب . ويفصلها جبل الكرمل عن سهل عكا فى الشمال كما يفصل مرج ابن عامر هضبة السامرية ويهوذا عن جبال لبنان شمالا .

وعملت مظاهر السطح على تقسيم فلسطين إلى اقليمين كبيرين هما الساحل والهضبة ولكل مميزاته الطبيعية والبشرية الخاصة. ولكل توجيهه الجغرافى الخاص . ولكل — فى تاريخ فلسطين العام دوره الخاص . فالسهل الساحلى مفتوح أمام المؤثرات البحرية . والثانية منعزلة بمنأى عن هذه المؤثرات، أو على الأقل بطيئة التأثر بها . وجهة الأول على البحر . والثانية إلى الصحراء التى هى امتداد طبيعى لها . ليس هذا فحسب بل أنها أتت على الهضبة ومزقتها إلى أوطان صغيرة متعددة منعزلة — إلى حد ما — بعضها عن البعض الآخر ، أصلح لأن تكون منازل لقبائل متفرقة منها أن تكون وطناً لشعب واحد (١) .

وأخيراً فان فلسطين تقع بين اقليمى البحر الأبيض المتوسط والصحراء . عند العروض التى تتذبذب عندها الرياح وتتنازعها مؤثرات الرياح التجارية الشمالية من جهة . والرياح العكسية الاعصارية الغربية من جهة أخرى . ومن

---

(١) انظر بصفة خاصة

Ghallab, M.E.S. Op. Cit. pp. 201-225.

المعروف أن منخفضات أعاصير الرياح العكسية الغربية تمتاز بالذبذبة وعدم الانتظام ، فهى تختلف من حيث القوة ومدى الاتساع من عام إلى آخر.. فتتفاوت كمية الأمطار من وقت إلى آخر ، بل من شهر إلى آخر فى نفس الفصل الممطر . وقد لاحظ الأستاذ هنتنجتون تفاوتاً كبيراً فى كمية الأمطار الساقطة على القدس بلغ ٤٠٪ زيادة أو نقصاناً عن المتوسط . وذلك فى الربع قرن الواقع بين عامى ١٨٨٢ — ١٨٩٩ . ثم فى الفترة بين عامى ١٩٠٣ — ١٩٠٩ .. وإذا فحصنا ملخص حالة سقوط المطر فى فلسطين فى الربع قرن الأخير بين عامى ١٩٢٦—٢٧ ، ١٩٤١ — ٤٢ فاننا نجد التفاوت ظاهراً بشكل واضح.. ففى وهلما مثلا — على الساحل — بلغ التفاوت من ٧ر٣١٤م فى عام ١٩٣١/٣٢ إلى ٩ر٨١٩ مم فى عام ١٩٣٨ / ٣٩ . وفى نابلس — على الهضبة — نجد التفاوت أبلغ مدى. من ٤ر١٠٢٤م عام ١٩٢٨ / ٢٩ إلى ٣٣٩م عام ١٩٣٢ / ٣٣ . هذه الملاحظات الحديثة تميل بنا إلى الاعتقاد بأن اختلاف سقوط الأمطار من عام إلى آخر أو من عقد إلى آخر كان أقرب إلى الشذوذ عن مستوى عام ثابت منه إلى تغير كبير فى المناخ يصل إلى حد الجفاف من طرف إلى زيادة الأمطار من طرف آخر (١) .

من هذا نستطيع أن نتصور حالة شمال شبه جزيرة العرب المتاخمة لحدود فلسطين الجنوبية والشرقية ، والتى تعمرها قبائل البدو ترعى الأنعام على الكلأ الذى ينمو بعد فصول الأمطار القليلة فى الشتاء ونستطيع أن ندرك أن هذه القبائل تعتمد على أمطار قد لا تكفى لنمو الكلأ ، وأنها ذات حساسية شديدة لأدنى تغير فى كميات المطر المتساقطة . فهى قانعة مقيمة فى منازلها ما دام هناك مطر يكفى لنمو الكلأ ، ولكنها تضطرب ويتولاها القلق إذا ضعفت الأعاصير

---

(١) لا تزال نظرية تغير المناخ فى العصور التاريخية فى الشرق الأدنى موضع جدل كبير بين علماء الجغرافيا والآثار وقد عالجناها فى رسالتلم تنشر بعد وأشرنا إليها مع ذكر المراجع فى مقالين :

Ghallab, M.E.S. Constant and Variable Factors in the Inter-relations between Judaea Plateau and the Maritime Plain in Palestine. Bull. Soc. Roy. Geog. Eg. t. XVIII, 1950 pp. 201-225.

Ghallab. M.E.S. The Settlement of the Negeb. Bull. Desert Institute, Vol. 3. 1953.

وقلت الأمطار وانكمشت مساحة الكلأ فى عدة مواسم متتالية . عندئذ تصبح موارد الصحراء الطبيعية غير كافية لإطعام أهلها . فتفيض بهم ولا يجدون مفراً من الهجرة إلى بلاد الهلال الخصيب المجاورة (١) .

هكذا كانت فلسطين – وغيرها من بلاد الهلال الخصيب – معرضة لهجرات البدو النازلين على أبوابها . والذين يتسللون فرادى وجماعات تسللا سلمياً ما دامت هناك حكومة قوية فى داخل البلاد . والذين يترددون فى غزوها وقهرها إذا ظهرت عليها بوادر الضعف . وهذا ما نتصوره سبباً للهجرات السامية التى انبعثت من الصحراء من زمن إلى آخر . والتى أصابت فلسطين كما أصابت جيرانها . والتى كانت مسئولة إلى حد كبير عن تعمير فلسطين منذ بداية عصر المعدن .

٢ – إنسان ما قبل التاريخ فى فلسطين :

الآن وقد استعرضنا ظروف البيئة الجغرافية والموقع الجغرافى وهى التى كان لها أثر مباشر فى توجيه الهجرات البشرية إلى فلسطين والتى قسمت هذا القطر إلى أوطان صغيرة لمختلف القبائل والشعوب . نبدأ دراسة قصة تعمير فلسطين بالإنسان ولابد لنا هنا من البدء بأقدم العناصر البشرية أو شبه البشرية . فى الوقت الذى بدأ فيه النوع البشرى بعد حلقة التطور من الطور الشبيه بالإنسان إلى طور نوع الإنسان العاقل الذى ننتمى إليه (٢) .

أظهرت أعمال البحث عن الآثار الإنسانية القديمة . عدداً من الهياكل والعظام قرب بحيرة الجليل وفى سفح جبل الكرمل . وهذه الهياكل تنتمى إلى إنسان نياندرتال وهى لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها الأوروبية وترجع حسب عمر الطبقات التى وجدت بينها إلى عصر البلايوستوسين الأوسط . أى فى الفترة التى تقابل أواخر الفترة الغير جليدية الأخيرة . وقد وجدت هذه الهياكل مطمورة بين بريشيا لافالوازية مستيرية .

---

(١) انظر بصفة خاصة :
Toynbee, A.T. A Study of History, vol. II, pp. 16-17, London 1934.

(٢) عن تطور الإنسان وعلاقته بالعصور الجيولوجية والعصور الحجرية القديمة انظر على سبيل المثال لا الحصر
Howells, W., Mankind so Far, (1947) & Le Gros Chark, History of the Primates (1952).

أما من الناحية الجنسية فيمتاز إنسان نياندرتال الذى وجد فى مغارة السخول بأن طوله يتراوح بين ١٧٣ – ١٧٩ سم . وأنه فى هيكله العظمى وسط بين الإنسان الحديث العاقل وإنسان نياندرتال الأوروبى . وربما كان أقرب إلى الأول منه إلى الثانى . على أنه وجد فى مغارة الطابون هيكل عظمى لامرأة من جنس النياندرتال (بمعنى الكلمة) فى الطبقات السفلى . بينما وجد هيكل لشاب من نوع الإنسان العاقل ويشبه سلالة الكرومانيون الأوروبية فى الطبقات العليا . ولاشك أن وجود هذه الهياكل المختلفة التى تمثل مراحل متتابعة لتطور الإنسان ، من النوع النياندرتال إلى النوع العاقل ، يدعو إلى الدهشة ويشير إلى عراقة هذا القطر فى العمران البشرى (١) .

قبل أن ننتقل إلى عصر بداية المعدن لابد أن نشير إلى فجر العصر الحجرى الحديث وهو العصر الذى بدأ فيه استقرار الإنسان العاقل فى أوطانه المختلفة والذى بدأ فيه الإنسان ينتقل من مرحلة الجمع والالتقاط أو الصيد إلى حياة الرعى والزراعة . وقد ظهر فى فلسطين فى ذلك العصر حضارتان . تدعى الأولى بالحضارة الغاسولية فى هضبة يهوذا . وتمتاز بأنها كانت حضارة رعوية . والأخرى بالحضارة الطاحونية وفيها بدأت الزراعة فى الظهور إلا أن الحضارة الناتوفية وهى آخر الحضارات الحجرية القديمة العليا أو الحجرية الوسطى (وتقابل فى مصر حضارة مرمدة بنى سلامة وما قبل الأسرات) فإنها كانت فيما يبدو حضارة زراعية استقرارية إلى حد كبير .

---

(١) يرى كيث وماككاون أن انسان جبل الكرمل الذى يجمع بين خصائص إنسان نياندرتال والإنسان العاقل، ليس إلا مظهراً لنوع إنسانى فى مرحلة التطور نحو الإنسان العاقل بمعنى الكلمة . وأنه انفصل عن النوع النياندرتالى فى أواخر البلايوستوسين بعد ظهور إنسان نياندرتال فعلا . ولذلك احتفظ ببعض خصائصه. مثل الفك الغليظ البارز والجبهة المتقهقرة والانكفاء إلى الأمام . هذا ويرى بعض الكتاب أن إنسان الكرمل خلاسى بين إنسان نياندرتال، وإنسان كرومانيون .

انظر فيما يختص بالرأى الأول Keith, Si A. "A Report on the Galilee Skull in Turville-Petre" F. Researches in Prehistoric Galilee ; also Keith, Si A. & McCown, T.W. B.A.S.P. vol. 13, 1937, pp. 5-15 ; also "Mount Carmel Man" etc. Early Man, Phila. 1937, pp. 41-52.

وفيما يختص بالرأى الثانى Coon, C.S. The Races of Europe, New York, 1939. pp. 25-26. Also Davison, D. Men of the Dawn, London, 1944, pp. 200 ff.

وقد عثر على نحو ٢٠٠ هيكل عظمى من مستويين مختلفين يرجعان إلى العصر الحجرى الأوسط والحضارة الناتوفية المتأخرة وقد وجد أن الإنسان صاحب الحضارة الأخيرة يمتاز بقصر القامة طوله ١٥٢ — ١٦٠ سنتيمتر . ولا يزيد صاحب الحضارة الأخيرة هذه عن ١٦٢ سم كما يمتاز بالرأس الطويل الضيق (النسبة الرأسية ٧٢ — ٧٨) وأنه بصفة عامة أقرب إلى مميزات سلالة البحر الأبيض المتوسط ودقيق العظام رقيقها ومن الصعب التمييز بين هياكل ذكوره واناثه . وأنه متأثر بالسلالة شبه الزنجية القريبة من السلالة الدرافيدية(١) .

٣ — عصر بداءة المعدن : الهجرات السامية وأثرها فى تعمير فلسطين :

قبل أن نتحدث عن عصر البرونز الذى شاهد ازدهار فلسطين من الناحية الحضارية بعد هجرة القبائل السامية والايجية إليها والعصر الذى ازدادت فيه العلاقات بين الحضارات النهرية وكثر ارتياد أفرادها للمعبر السورى . ومن ثم ازداد اتصال فلسطين بمراكز الحضارات الكبرى . وازداد تأثرها بها . قبل أن نتحدث عن ذلك العصر يصح أن نعرض للعصر السابق له ، الذى يطلق عليه اسم عصر النحاس ، فى هذا العصر كان يعمر فلسطين قبائل يطلق عليها اسم الشعوب قبل السامية وللأسف ليس لدينا أدلة كافية عنهم ، اللهم إلا بعض إشارات فى العهد القديم وبعض جماجم بشرية ترجع إلى ذلك العهد .

يحدثنا العهد القديم من الكتاب المقدس عن تلك الشعوب التى سبقت بنى اسرائيل إلى فلسطين وأطلق عليها أسماء عديدة لعلها أسماء قبائل وجماعات متفرقة كانت تسكن هذا القطر مثل النغاليم والعناقيم والريفائيم (٢) . هــذه الشعوب التى كانت تسكن الكهوف وتتخذ من الجبال بيوتاً ومما يعرشون .

وقد أيدت الحفائر الحديثة رواية التوراة من أن شعوباً سابقة للساميين كانت تعمر فلسطين . إذ وجدت آثارها فى الخليل وغزة وتل تعانق واريحا

(١) انظر Keith, Sir A. (1937) op. cit. & Keith, Si A. & MacCown, F.W. B.A.S.P. (1937) op. cit.

(٢) آثرنا نقل أسماء القبائل السامية كما وردت فى النص العبرى . مع العلم بأن نهاية « ايم » فى آخر الكلمات هى علامات الجمع . وإذا شئنا تعريبها قلنا النعاليون . والعناقيون . والرفائيون .

ومجدو . ويهمنا هنا أن نستعرض الصفات الجنسية التى يمتاز بها هؤلاء القوم . ويساعدنا على تعرف هؤلاء العثور على ٢٧ جمجمة عند مدينة مجدو ترجع إلى العصر النحاسى وما بعده أو إلى ما قبل الألف الثالث السابقة للمسيح . كما وجدت خمس جماجم أخرى ترجع إلى أوائل عصر البرونز أى حوالى عام ٢٦٠٠ ق. م. وتمتاز هذه الجماجم بالرأس الطويل الصغير من طراز سلالة البحر الأبيض المتوسط والأنف البارز ذى القنطرة المتصلة بالجبهة . كما أن بروز الفك لم يكن غير شائع فى هذه الجماجم .

إلى جانب تلك الشعوب التى تنتمى إلى سلالة البحر الأبيض المتوسط وجدت فى فلسطين جماجم ترجع إلى السلالة الكبادوشية ذات الرأس العريض . تلك السلالة التى كانت فيما يبدو تكون شعب الحيثيين الذى امتدت امبراطوريته من آسيا الصغرى إلى مرتفعات لبنان وربما وصل إلى هضبة يهوذا لفترة قصيرة . ولعل هذا يفسر التقاطيع الحيثية الغليظة التى تميز بعض أفراد شعب اسرائيل كما سنرى فيما بعد .

غير أن هذه الشعوب قبل السامية ما لبثت أن اندمجت فى الشعوب السابقة الايجية التى هاجرت إلى فلسطين . وإذا كانت الصبغة السامية هى الغالبة على فلسطين فى أى عصر من عصور التاريخ العام فانه ينبغى لنا أن نتتبع هذه الهجرات وأن نشير إلى الشعوب التى حملتها إلى فلسطين .

يحسن بنا أن نقرر بادىء ذى بدء أن كلمة سامى مثل كلمة حامى أو آرى كلها تعبيرات ثقافية لغوية ، وليس لها أى دلالة جنسية ، فليس هناك جنس أو سلالة سامية . كما لا يوجد جنس حامى أو آرى . وما كانت اللغة دليلا على تميز جنس أو سلالة من أخرى (١) . ونتبين صدق هذه الملاحظة من أن الساميين يشملون — فيما يشملون — سلالات تمتاز بالرأس الطويل وأخرى بالرأس العريض ، وجماعات تمتاز بالقامة النحيلة والتقاطيع الدقيقة . وأخرى تمتاز بالقامة القصيرة المكتنزة والتقاطيع الغليظة . هذا غير احتكار اليهود لوصف

---

(١) قارن هذا بما ورد عن الساميين فى المرجع التالى :
Cook, S.A. Camb. Anc. Hist. Vol. I 1923, CL. V, pp. 226-237.

السامية فى أوروبا وأمريكا فى الوقت الحاضر . على ما بين جماعاتهم من تفاوت فى المميزات الجنسية كما سنرى فيما بعد .

وأما عن الوطن الأصلى للساميين أو إقليم تكوينهم الأصلى . فإنه لم يتحقق بعد . فالعالم رينان يرى أن وسط شبه جزيرة العرب كان وطن الساميين الأول. بينما جويبرى يقترح البادية المتاخمة لغرب العراق (١) . ونحن نجد صعوبة فى تقبل وسط شبه جزيرة العرب كمبعث للهجرات السامية . إذ أن الساميين الأول لم يعرفوا الجمل وهو وسيلة المواصلات السريعة التى تصلح لقطع مسافات طويلة فى الصحراء إلا حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ولم يكن لديهم من دواب النقل إلا الحمار . وهذه الدابة لا تقوى على قطع مسافات طويلة فى الصحراء أما عن الفرض الآخر فربما كان أقرب إلى الحقيقة . وتؤيده روايات العهد القديم عن هجرة سيدنا إبراهيم ولوط عليهما السلام من ضفاف دجلة إلى الأردن . كما يؤيده أيضاً تاريخ هجرات الكنعانيين والعموريين والآراميين وحركاتهم صوب الجانب السورى (٢) .

وربما حق لنا أن نتساءل إذا كانت القبائل السامية ليست من سلالة واحدة ولا دليل فى هذا على أنه لا يقوم ما يعترض به على وجود عدة أصول للساميين بدلا من أصل واحد . فلماذا نتقيد بنظرية الأصل الواحد للساميين إذن ؟ ومنهم ذوو الرؤوس العريضة ومنهم ذوو الرؤوس الطويلة ومنهم من استعرضت رؤوسهم من سلالة البحر المتوسط ومنهم من هو أقرب إلى السلالة الارينية . بل منهم من حمل بعض الشبه بالسلالات الشمالية .

الساميون قبائل انبعثت من صحراء العرب شمالها أو وسطها من سلالات جنسية مختلفة ولكنها تتفق فى أنها تتحدث لهجات متقاربة تنتمى إلى أسرة لغوية واحدة وهى الأسرة السامية . هذه القبائل تظهر فى رسوم قدماء المصريين

---

(١) انظر بصفة خاصة Barton, Semitic and Hamitic Origins.

(٢) من الناحية الانثروبولجية انظر Barton, Semitic and Hamitic Origins. Riply, W. The Races of Europe, London 1920, CL. XIV, pp. 373 ff. also Keane, A.H. Man, Past & Present, Chapt. XIV.

على هيئة رجال ونساء يلبسون الصوف الملون . على عكس قدماء المصريين الذين كانوا يلبسون التيل الأبيض . حاسرى الرؤوس لهم شعر أسود وأنوف شماء أو معقوفة . تسوق أنعامها من الأثان وقطعان الماعز والضأن . وإذا دققنا النظر فى بعض هذه الرسوم لرأينا بعض أدوات الصناعة البسيطة مثل منفاخ الموقد ولا عجب فقد حمل هؤلاء الناس المعدن وحضارته إلى بلاد الهلال الخصيب فى القرن الرابع عشر ق. م.

والآن نستعرض هجرات الساميين الكبرى (١) واحدة بعد أخرى . حدثت أول هجرة سامية فى الألف الرابعة قبل الميلاد . وقد حملت هذه الهجرة فيما حملت — الكنعانيين إلى المعبر السورى . وقد احتل الكنعانيون السهل الساحلى لفلسطين ولبنان كما أنهم توغلوا فى السهول الداخلية فى فلسطين وسوريا ورابطوا على حافة الصحراء شرقى سوريا وجنوبى فلسطين . أما جبال لبنان ومرتفعات يهوذا والسامرة فإنها تجتذب إليها كثيراً من الكنعانيين الذين اكتفوا باحتلال بعض المواقع الحصينة على مداخل الوديان التى تنبع من الهضبة وتنحدر إلى السهل وحافات يهوذا المتقطعة . أما مركز حضارتهم فكان السهل الساحلى وتلال شفيلاه . وقد ظل العنصر الكنعانى هو العنصر السائد فى سوريا وفلسطين خلال الألف الثالثة ق. م .

أما الهجرة الثانية للساميين فقد حدثت فى الألف الثانية ق. م. ويبدو أن هذه الفترة كانت فترة اضطراب فى القبائل والشعوب السامية وغير السامية . أما الأولى فقد أرسلت العموريين شرقاً إلى بلاد بابل وبين النهرين وغرباً إلى سوريا . وفى نفس هذه الفترة انبعثت من هضبة إيران وصحارى وسط آسيا شعوب غير سامية مثل الكاسيين الذين ربما انتموا إلى التتر والترك . وهؤلاء غزوا بلاد ميديا وعيلام وبابل . كما خرجت طلائع الحيثيين من هضبة أرمينيا

---

(١) عن الهجرات انظر :

Kroeber, A. Anthropology, New-York, 1933 pp. 451 ff.

Keane, A.H. Op. Cit. pp. 491 ff. also Myres, G.S. Dawn of History. London, 1910, ch. V ; Coon, S. Op. Cit. pp. 432-44.

وآسيا الصغرى . إلى بلاد ما بين النهرين من جهة ، ومرتفعات المعبر السورى من جهة أخرى . وهكذا ابتدأ اختلاط السلالات فى شرق البحر الأبيض المتوسط كما سنلاحظ فيما بعد .

أما الهجرة الثالثة فقد حملت عنصرين متمايزين إلى فلسطين . الآريين والعبريين الذين بدأوا يحلون محل الكنعانيين فى محلاتهم القليلة فى هضبة يهوذا . وقد كان القرن الرابع عشر ق. م. بدوره عصراً آخراً من عصور الاضطراب بين الشعوب والقبائل القديمة . يطلق عليه أحد عصور الهجرات الكبرى . شهد هجرة العبريين والأراميين من جهة ، واندفاع الحيثيين نحو الجنوب من جهة أخرى . كما شاهد طوفان القبائل الايجية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وخروج الفلسطين القدماء Philistines بقطعانهم وعرباتهم التى تجرها الثيران وسفنهم من جزر كريت وبحر ايجه إلى فلسطين من جهة ثالثة .

أما الهجرة الرابعة فقد خرجت فى القرن السابع قبل الميلاد . من شمال شبه جزيرة العرب ونستطيع أن نطلق على أصحابها اسم طلائع العرب وبدأت تلك الطلائع فى التسلل نحو شرقى فلسطين وجنوبها . وهذه شملت قبائل مؤاب وايدوم ومدين وعمون . وهذه القبائل كانت من أحلاف العبريين تعيش على أطراف الصحراء فى جنوب فلسطين وشرقى الأردن . وقد اشتد ساعد بعض هذه القبائل بسبب ظروف التجارة بين الشرق والغرب مما مكنهم من تأسيس مملكة الديدوميين ثم مملكة النبط أو الأنباط حوالى القرن الرابع قبل الميلاد فى الاقليم الذى يطلق عليه اسم اقليم النجب الآن (١) .

وأخيراً انبعثت الهجرة العربية الإسلامية فى القرن السابع الميلادى تحمل ديناً جديداً وثقافة جديدة قدر لها أن ترث التراث الثقافى حقبة طويلة من التاريخ.

بعد هذا العرض السريع للهجرات السامية التى انبعثت من شبه جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب ننتقل إلى بحث سكان فلسطين فى العصور التاريخية بشىء من التفصيل .

---

(١) انظر : Ghallab, M.S. 1951. Op. Cit.

إن معلوماتنا عن سكان فلسطين فى العصور التاريخية مستقاة من المصادر الآتية :— رسوم وكتابات قدماء المصريين وبابل وآشور من ناحية — وما ورد فى سفر التكوين من العهد القديم من ناحية أخرى . وإن كانت الأولى — ولا سيما الخاصة بآثار قدماء المصريين — قد نقلت بأمانة أشكال القبائل والشعوب القديمة والتى اتصل بها المصريون فان الثانى قد ترك لنا أثراً مكتوباً له مكانته الدينية والتاريخية التى لا يمكن إنكارها هذا إلى الآثار المادية التى تركها سكان فلسطين القدماء . وعلى هذا نستطيع أن نلقى ضوءاً على الخليط الجنسى الذى عمر فلسطين فوجاً وراء فوج فى تاريخها القديم . وقد أشرنا إلى الشعوب غير السامية التى وجدها العبريون عندما هاجروا إلى أرض الميعاد. ولا بد هنا من أن نضيف أن العبريين لم يكونوا أول شعب سامى هاجر إلى فلسطين فقد سبقهم الكنعانيون الذين احتلوا السهل الساحلى — كما قدمنا — أما الهضبة فقد احتلها الحيثيون وشعب حربى آخر يدعى بالعموريين . وهنا نقابل أول مشكلة من المشاكل الجنسية فى فلسطين القديمة : من هم العموريون ؟ بل من هم الحيثيون ؟ لقد ترك الأخيرون أثرهم فى تاريخ الشرق القديم ولكن بالرغم من هذا فقد ظل أصلهم مجهولا(١) ونستطيع أن نتصورهم شعباً حربياً شديد المراس احتل هضبة الأناضول وأرمينيا واندفع منها محتلا لمرتفعات الانصارية ولبنان ويهوذا حاملا حضارة الحديد الذى أكسبهم قوة إلى قوتهم . وقد ظلوا زمناً طويلا مسيطرين على الطرق الجبلية بين خليج الاسكندرونة وأعالى دجلة والفرات يهددون الحضارات النهرية المستقرة فى الشرق الأدنى . أما عن مميزاتهم الجنسية فنستطيع أن نقرر أنهم كانوا يتصفون بالرأس العريض والأنف الضخم المعقوف . ولعل هذه الصفات هى التى أدت بالعالم فون لوشان إلى أن يعتبرهم من أصل أرمنى . وقد دعته أيضاً — وشايعه فى ذلك بعض الكتاب — إلى أن يفترض اختلاطهم بالعبريين فى هضبة يهوذا وتوريثهم إياهم الصفات الأرمينية من التقاطيع الغليظة والرأس الكبير العريض والأنف المعقوف والقوام

(١) فيما يختص بأصل الحيثيين وتطور حضارتهم انظر على سبيل المثال :
Hogarth, D.G. The Hittites, of Asia Minor, Cam. Anc. Hist. Vol. I 1951.
Forrer, E.O. The Hittites in Palestine Pal. Exp. Quart. St. 1937 pp. 100.

الربعة الذى يميل إلى أن يكون ضخم الهيئة (وهذا هو طابع جمهرة يهود شرق أوروبا فى الوقت الحاضر) . إلا أن هذا الاستطراد المنطقى نتيجة فرضية من الفروض وليس قائماً على أساس تاريخى إذ افترض فون لوشان أن شطراً من يهود شرقى أوروبا قد اكتسب تلك الصفات الغليظة من الشرق الأدنى وأن الحيثيين من أصل أرمنى وكلاهما لا أساس له من التاريخ (١) .

هذا عن الحيثيين . أما عن العموريين فقد اختلفت الآراء فى شأنهم اختلافاً كبيراً . ففريق من الكتاب يراهم من المجموعة السامية ، وفريق آخر يفترض أنهم من السلالة الشمالية (النوردية) والواقع أن قدماء المصريين لونوا بشرتهم فى صورهم باللون الأصفر كما جعلوا لهم لحى مسترسلة وأنوفاً معقوفة . وقامات طويلة مما قد يوحى بوجود أثر نوردى فى دمائهم . وقد ذهب فون لوشان إلى أبعد من هذا وربط بينهم وبين التحنو الذين كانوا يرابطون على حدود مصر الغربية . إلا أننا أميل إلى اعتبارهم من المجموعة السامية لأنهم كانوا يتكلمون السامية . وأميل إلى اعتبارهم سلالة حربية من أبناء عمومة الكنعانيين يعيشون على ذرى مرتفعات يهوذا وتلال شفيلاه بينما يعيش الكنعانيون فى السهل الساحلى ولا نجد فى صفاتهم الجنسية ما يحول دون سابقيهم . فليست السامية جنساً من الأجناس ولا سلالة من السلالات بل هى ثقافة ومزاج فكرى امتازت بها مجموعة من البشر فى الشرق الأدنى . واستطاعت أن تصهر فى بوتقتها وتتمثل فى مختلف العناصر والسلالات التى اتصلت بها أثناء تجوالها فى شمال شبه جزيرة العرب .

نستطيع أن نقول أن الكنعانيين كانوا أهم شعب صادفه العبريون عند دخولهم فلسطين أول مرة فى القرن السادس عشر ق. م. بل نستطيع أن نذهب أكثر من ذلك ونقول أن بنى كنعان كانوا الشعب الذى تمثلته السلالة الباقية الأساسية لسكان فلسطين حتى الوقت الحاضر .

---

(١) انظر Coon ، حاشية صفحتى ٤٣٤ — ٤٣٥ ، وانظر كذلك :
Oesterly W.O.E. & Robinson, T.H. A History of Israel, Oxford. 1932, pp. 30 & 40 ff.

والكنعانيون هم المجموعة القريبة من الساميين الذين أنشأوا معظم المدن الفلسطينية فى عصر البرونز . والتى امتازت بميزات خاصة يمكن تلخيصها فى كلمة الاكروبول . إذ كانت حصوناً منيعة فوق ربى وتلال مرتفعة تشرف على طريق أو أكثر أو واد سحيق . يهرع إليه الفلاحون إذا حزبهم الأمر . كما كان الكنعانيون هم الذين قطعوا النباتات والأشجار من الهضبة ومهدوا الأرض للزراعة مستعينين بوسائل رى بدائية . وهم باختصار الذين مهدوا للعبريين سبيل الاستقرار فى فلسطين (١) .

والغريب أن قوماً هذا شأنهم وخطرهم فى تاريخ فلسطين ، قد أخرجهم سفر التكوين من حظيرة الأمم السامية ووضعهم فى زمرة أبناء حام (سفر التكوين الفصل ١٠، آية ٦ — ١٩) . وهذا أمر راجع إلى عامل العداء المستحكم بين بنى اسرائيل ومن سبقهم إلى تعمير فلسطين من كنعانيين وعموريين . هذا العداء الذى حملوه أيضاً ووجهوه إلى الفلسطين الذين احتلوا الساحل فيما بعد .

وقد عاصرت أول هجرة عبرية بقيادة إبرهيم ولوط عليهما السلام من جانب العراق الغربى وإلى نهر الأردن هجرة سامية أخرى من الشمال الشرقى هى هجرة الأراميين الذين استوطنوا الغوطة وجعلوا دمشق عاصمة لهم . الذين توغلوا إلى مرج ابن عامر وشمال السامرة وكونوا فيما بعد جانباً من مملكة بنى اسرائيل ولقد سادت لغتهم فى شمال فلسطين فى أوائل العصر المسيحى ومن الطريف أن نذكر أن السيد المسيح عليه السلام بشر بتعاليمه باللغة الأرامية وليس بالعبرية كما قد يتبادر إلى الذهن .

قاد إبرهيم ولوط عليهما السلام — فيما تروى التوراة — القبائل العبرية إلى شرقى الأردن ثم عبر بهم منخفض العرابة جنوب البحر الميت وحط رحاله جنوب هضبة يهوذا بالقرب من خبرون (الخليل) وكانت هذه القبائل العبرية التى دخلت فى شكل سلمى أرض فلسطين تعيش فى اقليم قليل السكان يجمع

---

(١) انظر :
Olmstead, A.D. A History of Palestine, 1931. Also note by Albright, Westminster Atlas, Philadelphia, 1945, p. 24.

بين مميزات البيئة الرعوية من ناحية ومقومات الحياة الاستقرارية من جهةأخرى. هضبة تغطيها الأعشاب والأحراش وغابات الزيتون والجميز وأشجار الكروم. وقد عاش إبرهيم وقومه حياة رعوية تحت نظام بطرق. ثم بالتدرج تحولوا إلى نصف رعاة ثم زراع وقد وصف العهد القديم حياة العبريين الأول فى سفر الخروج وسفر القضاة ومن الممكن أن نعتبر إبرهيم وقومه طلائع العبريين فى فلسطين. أما هجرة بنى اسرائيل فى القرن الرابع عشر ق. م. فقد جاءت عبر نهر الأردن تجاه اريحا. ولم تأت هجرة سلمية تتسلل دون أن يشعر بهد أحد كهجرة إبرهيم وقومه. بل حملة حربية بقيادة يوشع وربما صاحبتها حملة مشابهة من الجنوب بقيادة موسى عليه السلام. فهؤلاء أيضاً لم يدخلوا بلاداً عامرة بالسكان ولذا لم يلقوا مقاومة ذات قيمة. إذ أن غالبية بنى كنعان كانت تسكن السهل وتلال شفيلاه التى لم يقهرها بنواسرائيل إلا فى فترات محدودة من تاريخهم إبان حكم سليمان عليه السلام (حوالى ١٠٠٠ ق. م.).

أما عن مميزاتهم الجنسية فقد لاحظ Coon أنهم ينتمون إلى سلالة البحر المتوسط السمراء مثل غالبية العرب الشماليين. وتدل الهياكل العظمية الباقية فى آثارهم على وجود نسبة كبيرة من سلالة البحر المتوسط الكبادوشى التى تمتاز باستعراض الرؤوس، ويوجدون فى الوقت الحاضر فى جنوب شبه جزيرة الأناضول. وهذا لم يمنع كما ذكرنا من قبل أنهم اتصلوا ببعض عناصر سامية سابقة كانت بذورها قد تأثرت بالشعوب السابقة للساميين. تلك العناصر التى سبقت بنى اسرائيل إلى احتلال بعض المواقع الحصينة فى يهوذا مثل العموريين الساميين والحيثيين غير الساميين.

لعلنا نستطيع الآن أن نتصور هجرات العبريين على أنها كانت هجرات سلمية متفرقة تحت قيادة أفراد مختلفين أتت بشعوب مختلفة من الناحية الأنثولوجية وإن اتفقت فى اللغة السامية اللهم إلا إذا استثنينا حملة يوشع وان هذه الهجرات حملت قبائل العبريين بنى عمومتهم من الكنعانيين (اللغة العبرية فصيلة من اللغات الكنعانية) ولذلك لم يجدوا صعوبة فى امتصاصهم وصبغهم بالصبغة العبرية من الناحية الثقافية. فالعبريون فيما رأينا لم يعدوا كونهم جماعات سامية انفصلت

من أبناء عمومتها من القبائل السامية الأخرى السابقة للعرب . وتميزوا فى وطنهم الجديد ــ هضبة يهوذا ــ بناحية دينية فريدة فى نوعها من ذلك الحين . وهى عقيدة التوحيد . وهى إيمان بإلـه واحد هو ياهويه أو جيهوفا . هم عبيده وهو ربهم . ولعلهم كانوا يتصورون أنه كان ربهم وحدهم إذ لم يحاولوا التبشير بدينهم بين الأمم الأخرى . وبذلك تكونت لديهم عصبية دينية قومية خالصة ميزتهم عن غيرهم من القبائل السامية من ناحية وعن غيرهم من الأمم والشعوب غير السامية فى التاريخ القديم من ناحية أخرى (١) .

٤ ــ الهجرات غير السامية : عناصر الفلسطين :

فى نفس الوقت الذى دخل فيه العبريون فلسطين تقريباً من الشرق بقيادة يوشع فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . كانت شعوب شمال شرقى البحر الأبيض المتوسط تضطرب اضطراباً عنيفاً تحت هجمات القبائل المندفعة من وسط آسيا وشرق أوروبا . وكان من نتائج ذلك أن انهارت الحضارة المينوية وتشتت شعب كريت وجزر بحر ايجه تحت ضغط تلك الشعوب . ويشير رمسيس الثالث إلى حركة هذه الشعوب فى نقوش وجدت فى مدينة حابو وفى بردية هاريس الكبرى إذ ورد فيها النص التالى «كانت الجزر مضطربة غير مستقرة لم تقف فى وجه أهلها دولة (يقصد شعوب البحر) من خسيتا (كبودوشيا) وكيرى (خليج اسوس أو الاسكندرونة) وتوقميش وألاشيا ، فقد أتوا عليها جميعاً بالتخريب والتحريق ثم حطوا رحالهم فى (فلسطين)»(٢) وذلك بعد أن فشلت فى هجومها على مصر . وهناك على السهل الساحلى استقرت تلك الهجرات البحرية . وامتصت الحضارة الكنعانية واشتغلت بالزراعة . إذ أن بيئتهم الجديدة

---

(١) انظر مختصراً عن العقيدة الموسوية وتكوين الشعب اليهودى وخصائصه الفكرية والثقافية فى :
Turner, R. The Reat Cultural Traditions, vol. I.
Ancient Cities, Chap. III, pp. 123-168 & III. — pp. 359

(٢) ورد هذا النص فى : Peake & Fleurs; Horse & Sword, p. 56.

لم تشجع على الاستمرار فى النشاط البحرى لعدم وجود المرافىء الطبيعية أو مواد الأخشاب اللازمة لبناء السفن بعكس الحال فى ساحل فينقيا . كما أنهم احتفظوا بأسماء المدن الكنعانية القديمة وإن كانوا أتوا بنظام المدن المستقلة . إذ أنهم كونوا ممالك صغيرة فى مدن عكرون وجات وأشدود وعسقلون وغزة وقد شمل توسعهم فى بعض الأحيان حتى مدينة يافا وسهل شارون شمالا . أى أنهم سادوا فى وقت ما السهل الساحلى من جبل الكرمل إلى حدود مصر الشرقية .

هكذا كان الفلسطين القدماء الذين أعاروا أسماءهم للبلاد بأكملها غرباء تماماً عن الشعوب السامية ، لم تطغ عليهم الثقافة العبرية وإن تمثلوا بعض عناصر الحضارة الكنعانية الخاصة باستثمار الأرض . وقد ظلوا فى حالة عداء مستمر مع بنى اسرائيل مما حفلت بو قائعه أسفار العهد القديم ولاسيما سفرا الملوك الأول والثانى. ولما لم تكن لديهم عصبية عنصرية دينية كالتى تكونت لدى العبريين فى يهوذا فانهم كانوا على أتم استعداد لتمثل المؤثرات الحضارية التى يحملها التجار العابرون بسهلهم أو رسل الحضارات النهرية الكبرى أو الحضارات التى تفد إليهم من عرض البحر . إذ أن مدنهم كانت من أولى وأكثر مراكز الحضارة الهيللينية فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

ويؤيد أصلهم الايجى ما ورد فى سفر التكوين الفصل الحادى عشر الآية الخامسة « ويل لشعب ساحل البحر شعب كريتيم — لعنة ياهويه تحيق بك ياكنعان — أرض الفلسطين — سينزل عليك غضبى — لا يبق على ظهرك إنسان وعندئذ تتحول كريت إلى مراعى يجول فيها الراعى بقطعانه » وفى مواضع أخرى من هذا السفر تظهر أسماء كافتور أو كريت وكفيتو وقد يبدو من أول وهلة أن المسألة لا تعدو تشابه فى الأسماء أو قد يبدو هناك تعارض بين هذا الأصل الكريتى وبين نتائج دراسة الأستاذ برستد لبردية هاريس الكبرى من ناحية ، ولصورهم فى الآثار المصرية القديمة من ناحية أخرى . إذ أنهم يبدون مرتدين فوق رؤوسهم خوذات على هيئة ريش الطيور مما كان يلبسه أهل ليفيا وكاريا . ولكن لا محل لهذا الاعتراض إذ لا تناقض بين الرأيين . فربما هاجر

الفلسطينيون وهم من أهل كريت عن طريق ليفيا وكاريا فى جنوب آسيا الصغرى حيث اقتبسوا شيئاً من حضارة تلك البلاد ثم اضطروا إلى الهجرة من الأناضول تحت ضغط البريجز أو الفريجيين (١) .

٥ ــ العصر الاغريقى الرومانى وبدء تشتت اليهود واستعراب فلسطين :

بعد أن انتهينا من عرض صورة موجزة لاستيطان فلسطين فى التاريخ القديم انتهت بتكوين شعبين مختلفين بنى اسرائيل فى هضبة يهوذا والسامرة والشعب الفلسطينى فى السهول الساحلية . نعرض إلى الأحداث التى شتتت شمل اليهود كما سنعرفهم منذ الآن قسراً ثم اختياراً بعد أن خرجوا عن عزلتهم الدينية واتصلوا بحضارة الاغريق والرومان من ناحية والتى أدت إلى استعراب فلسطين وامتصاص القبائل العربية للعناصر الكنعانية من ناحية والعناصر الأصلية من ناحية أخرى .

عانى اليهود أول محنة قوية على يد بابل عندما قاوموا غزوها لهم فحاقت عليهم نقمة بختنصر سنة ٥٨٦ ق م. وانتقامه الفريد فى نوعه إذ أسر خلاصة الشعب اليهودى وقادة الرأى فيه وكرائمه . أسرهم وحملهم قسراً إلى بابل وهناك فيما بين النهرين نشأت أول مستعمرة يهودية خارج يهوذا وعندما أعاد إليهم قورش حريتهم عام ٥٣٨ق . م . وخيرهم بين البقاء والعود إلى يهوذا ، فضل معظمهم البقاء فى العراق وأنشأوا الجالية اليهودية التى تطورت بالديانة اليهودية تطوراً خاصاً فى العراق . وهذه الجالية لا تزال مقيمة فيه حتى الآن .

أما الهجرات التالية لليهود فقد كانت عن قصد واختيار عندما اضطر اليهود إلى الخروج عن عزلتهم والأخذ بأسباب الحضارة الهيللينية المستقرة فى سهل فلسطين واتصلوا بالعالم الاغريقى بعد فتوح الاسكندر المقدونى . وفى هذه الهجرات أسسوا مستعمرات يهودية فى مصر (ولا سيما فى الاسكندرية) وسوريا

(١) عن أصل الفريجيين انظر :
Hall, H.R. C.A.H. vol. II, Cambridge 1924, Ch. XII, p. 275-294 & 383 et sq. also Smith, G.A. The Historical Geography of the Holy Land, London 1889, Chap. IX.

وآسيا الصغرى كما أسسوا مستعمرات أخرى فى البلقان وفى سواحل البحر الأسود الشمالية . وقد كان لهذه الجالية اليهودية المؤسسة فى اقليم خزرستان أثر كبير فى تاريخ اليهودية إذ أنها صمدت لغزوات الهون والتتار واستطاعت أن تقنع قادة مملكة الخزر باعتناق اليهودية فدخل شعبهم فى هذا الدين جملة فى القرن الثامن الميلادى . وإلى هؤلاء الخزر ينتمى جزء كبير من اليهودية الأوروبية . هذا القسم الذى انتشر من مصب الفولجا والقرم شمالا وغرباً فى شرق أوروبا .

أما الهجرة الثالثة فقد كانت فى أعقاب امتداد الامبراطورية الرومانية ولا سيما بعد عام ٧٠ الميلادى عندما هدم الهيكل الثالث على يد الرومان ولم تقم له بعد ذلك قائمة . ولعل هدم ذلك الهيكل كان إيذاناً ورمزاً لانتهاء دولة بنى اسرائيل فى هضبة يهوذا . وفقدهم تلك البلاد كموطن قومى فيما يقرب من ألفى عام . وربما كان السبب فى خروج تلك الهجرة ازدحام يهوذا بالسكان على أثر استتباب الأمن والنظام الرومانى وتحسن مستوى الصحة العامة مما أدى إلى نقص الوفيات نتيجة لوقف الحروب والمشاحنات الداخلية بين اليهود ، أو بينهم وبين فلسطين من جهة ، ومغادرة المدن القديمة (الاوكروبول) المكتظة بالسكان والاقامة فى السفوح المكشوفة الصحية من جهة أخرى . وقد كان نتيجة هذا كله أن ازداد عدد السكان إلى حد لم يجدوا أمامهم فيه سوى الهجرة إلى الخارج . وخصوصاً بعد القضاء على ثورة المكابيين التى تعتبر آخر احتجاج عنيف للأمة اليهودية أمام ضغط الظروف الخارجة . واضطرارها إلى النزول عن مقوماتها القومية والأخذ بالمدنية غير اليهودية . ونستطيع أن نقرر أنه منذ ذلك الخروج الذى أعقب تخريب المعبد الثانى أفقد اليهود أغلبيتهم بين سكان فلسطين كما فقدوها كوطن قومى (١) .

خرج اليهود من هذه المحنة مواطنين رومانيين وهاجروا إلى إيطاليا واسبانيا وفرنسا وألمانيا الغربية قبل أن تصلها قبائل الجرمان نفسها. ويبدو لنا أن احتفاظ اليهود بقوميتهم وشخصيتهم طوال التاريخ بعد أن بادت أمم عاصرتهم واندمجت

(١) انظر :

Coon, C.S. op. Cit. pp. 435 ff. Also Haddon, A.C. & Husxley, J.S. We Europeans, London 1930, Ch. VI.

فى غيرها من الأمم ، يرجع إلى العاطفة العنصرية الدينية التى أشرنا إليها وإلى ظاهرة التشتت أو الخروج من هضبة يهوذا والانتشار فى أنحاء العالم اليونانى ثم الرومانى بل الانتشار بعد ذلك فى العالم الإسلامى . وأخيراً الانتشار فى أرجاء المدنية الغربية . لقد انتشر اليهود فى ركاب كل مدنية كبرى فى التاريخ منذ العصر اليونانى الرومانى . وقد ساعدهم على ذلك عدم تقييدهم بقومية محلية معينة بحيث تنهار معنويتهم بانهيارها وتزول قوميتهم بزوالها . وما أسرع ما غادروا السفن قبل أن تغرق وما أسرع ما تنصلوا من حضارة وتلاءموا مع أخرى . فهم يرتبطون بالعالم الاغريقى إبان قوة الحضارة الاغريقية الرومانية ثم عادوا يحتلون مركزاً ممتازاً بين الأمم الكتابية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية ثم عادوا يحتلون مركزاً ممتازاً فى حضارات الغرب الأوروبية الأمريكية .

فى الوقت الذى بدأت فلسطين تفقد فيه الصبغة اليهودية بدأت القبائل العربية أو المستعربة تتسلل إليها . ونقصد باستعراب فلسطين اصطباغ البلاد بالصبغة العربية . وليس معنى هذا أن سلالة حلت محل سلالة ، إذ لم يبذل العرب أى جهد لقهر فلسطين بالقوة إلا فى القرن السابع الميلادى والواقع أن العرب الشماليين ينتمون إلى نفس السلالة التى ينتمى إليها الكنعانيون التى تكون غالبية سكان فلسطين ولذلك لم يجد العرب صعوبة كبيرة فى استعراب بنى عمومتهم من الكنعانيين ، الذين تمثلوا السلالة الفلسطينية ، بعد أن فقدوا قوميتهم فى العصر اليونانى الرومانى .

ولعل عملية استعراب فلسطين قد بدأت منذ الغزو العبرى نفسه . فقد لاحظنا أن العبريين لم يكونوا سوى مجموعة سامية اختلفت لهجتها عن العربية وباختلاف المنازل والأوطان ازدادت الشقة اتساعاً بين اللهجتين ازدياداً جعلهما لغتين متمايزتين وان اتفقا فى الأصل وفى كثير من المميزات اللغوية . وقد كان يصحب القبائل العبرية أحلاف سامية أخرى سكنت شرقى الأردن وجنوب فلسطين فى اقليم الخليل وغزة وما عرف بعد ذلك باسم النجب (١) . ومنها

(١) النجب لفظة عبرية بمعنى الجنوب ولم ينصرف معناها إلى المثلث الجنوبى لفلسطين إلا بعد إبرام معاهدات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى وإنما انصرف معناها العبرى إلى اقليم غزة وبئر سبع والخليل فقط .

قبائل سودوم وأيدوم والاسماعيليين وقد احتفظت هذه القبائل بمرونتها وحريتها فى التحرك واتصالها المستمر بالقبائل البادية شمال شبه جزيرة العرب. واحتفاظها بالصبغة البدوية أو نصف البدوية مما ساعدها على متابعة التطور الأثنولوجى فى شمال شبه جزيرة العرب . فهى لم تعتنق مذهباً دينياً أو قومياً أو عنصرياً محدداً بحدود مكانية كما فعل العبريون فى هضبة يهوذا . فهؤلاء الأخيرون — فى رأينا — قد قطعوا كل صلة بينهم وبين أبناء عمومتهم من البدو . وذلك باتخاذهم وطناً ثابتاً واكتسابهم عصبية دينية قومية ميزتهم عن أحلافهم .

كذلك لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن هذه القبائل التى وفدت فى ركاب العبريين ولم تتأثر بعصبيتهم الدينية يمكن اعتبارها طلائع العرب فى فلسطين وسوريا وقد ظهرت جموعهم فى شكل منظم ذى أثر فى تاريخ البلاد فى القرن السابع ق. م. عندما قامت دولة الايدوميين فى العصر الاغريقى الرومانى وامتدت دولتهم شمالا حتى خط يمتد من حبرون (الخليل) شرقاً إلى عسقلون على الساحل غرباً . وقد حلت محلها دولة الانباط وهى دولة عربية كانت تكتب لغتها بحروف اغريقية وكانت مخالفة للحضارة الاغريقية . وهذه الدولة شملت جنوب هضبة يهوذا أو السهل الساحلى حتى غزة شمالا وبالرغم من أن قوات تراجان قد قضت على هذه الدولة وتهدمت عاصمتها سلع (بترا) فى أوائل القرن الثانى الميلادى . إلا أننا نستطيع أن نتصور أن أهلها عادوا جملة إلى شبه جزيرة العرب (١) . فقد كان اتجاه هجرات البدو عموماً على عكس هـــذا الاتجاه تتجه إلى أطراف الهلال الخصيب ، تتسلل فى بطء ولكنه مؤكد ثابت وتحتل المناطق شبه الصحراوية فى جنوب فلسطين وتتحول تدريجياً إلى حالة نصف بدوية ثم تستقر وتندمج فى السكان السابقين لهم فى البلاد حتى أصبحت الغلبة آخر الأمر لعنصرهم عندما أصبح اليهود أقلية عددية وعندما ضعف شأن الاغريق والرومان فى البلاد حتى إذا دخل العرب فلسطين غزاة فاتحين فى القرن السابع الميلادى كانت البلاد مهيأة لاستقبالهم بغالبية سكانها العرب أو المستعربين.

---

(١) انظر :
Huzayyin, S.A. Arabia & The Far East, Cairo 1942 pp. 6 ff. & 219 ff.

٦ — الشعب العربى الفلسطينى :

يختلف عرب فلسطين عن جيرانهم سكان سوريا بأن صفاتهم أقرب إلى صفات العرب الشماليين منهم إلى صفات السوريين أو سكان شرقى البحر الأبيض المتوسط الذى يطلق عليهم الأنثروبولوجيون اسم Levantines فهم ينتمون إلى سلالة البحر المتوسط المتوسطة القامة ذات الرأس الطويل (النسبة الرأسية ٧٨ ـ ٨ر٧١) . على أن سكان المدن ولا سيما الموانىء أكثر اختلاطاً من سكان الريف . ويميل الرأس فيهم إلى الاستعراض (النسبة الرأسية ٨ر٨١) والقامة إلى الطول . هذا إلى وجود الشعر الأشهب شائعاً بينهم ولعل أحدث اختلاط حدث بين السكان المسلمين فى فلسطين وشرقى الأردن هو هجرة السيراقوسيين المسلمين من سكان بلاد القوقاز الذين أبوا الخضوع لحكم قيصر وسمح لهم السلطان عبد الحميد بالهجرة إلى سوريا فى مطلع القرن الحالى .

هذا عن السكان المستقرين وسكان المدن . أما عن سكان البادية الذين كانوا إلى عهد قريب لا يزالون يرعون قطعان الضأن والإبل فى هضبة يهوذا وجنوبى فلسطين فإنهم يمثلون الطراز السامى الأصيل المنتمى إلى شمال شبه جزيرة العرب . وهم يمتازون بطول الرأس [١] إلا أن سكان النجب واقليم غزة يظهر عليهم بعض أثر مصرى من الطراز الجيزاوى العريض الرأس أو متوسطها والممتلىء القامة (النسبة الرأسية تتراوح بين ٧٨ و ٧ر٨١) .

ويبدو أن هذا لا يدعو إلى الدهشة فقد ظلت مرتفعات فلسطين محتفظة بالصبغة السامية لم تفقدها قط فى تاريخها الطويل اللهم إلا إذا استثنينا بعض الخصائص الحيثية فى فجر التاريخ . إذ أنها خضعت دائماً وبصفة مستمرة لظروف الهجرة العربية الدائبة من الجنوب . أما سكان السهل الساحلى فقد تأثروا بالشعوب الايجية منذ فجر التاريخ كما أنهم تأثروا بغيرهم من شعوب شرقى البحر الأبيض المتوسط . ولذلك ظهرت بينهم الرءوس المستعرضة ويرى

---

(١) انظر :

Kappers, C.V.A. Anthropology of The Near East in Ancient and Recent Times. Beirut 1932.

بعض الكتاب أنهم خليط من سلالات رئيسية ثلاث . هى سلالة البحر المتوسط والسلالة الأرمينية والسلالة الكردية (١) .

٧ — اليهود وانتشارهم فى العالم ومميزاتهم الجنسية :

أما وقد بدأت الهجرات اليهودية تفد على فلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر ثم ازدادت عدداً واستفحل خطرها منذ الانتداب البريطانى على فلسطين سنة ١٩٢٠ فاننا نرى أنه لا بد من تتبع مصادر هذه الهجرات اليهودية إذ أن دراستهم الجنسية لا يمكن فصلها عن دراسة أوطانهم التى هاجروا إليها وعاشوا بين ظهرانى أهلها .

من الخطأ محاولة ربط اليهود بسلالة معينة أو بقطر معين ، فاليهودى « مواطن عالمى » بأدق معنى هذه العبارة . وهذه الصفة وحدها هى التى حفظت لهم كيانهم ، فلم يندثروا كما حدث لغيرهم من الأمم القديمة . هذا إلى أن اليهودى — كما يقرر الأستاذان هكسلى وهادون (٢) نتاج بيئته المحلية وهذا أمر متوقع إذ لم يزد عدد بنى اسرائيل فى يهوذا عن ثلاثة أرباع المليون نسمة ثم أصبحوا فى تقدير هذين الأستاذين (٣) سبعة ملايين يعيشون فى الامبراطورية الرومانية وهم يبلغون الآن حوالى عشرين مليون نسمة . هذا رغم المذابح العديدة والاضطهادات المتكررة التى تعرضوا لها فى أكثر من قطر من أقطار أوروبا منذ عصر النهضة . ولا يمكن أن يكون هذا العدد غير نتيجة لتزاوج اليهود مع الشعوب التى عاشوا معها . ولاعتناق أفراد هذه الشعوب أو بعضهم للدين اليهودى . ويحدثنا التاريخ عن الخزر الذين دخلوا فى اليهودية جملة فى القرن السابع الميلادى هذا عدا بعض القبائل السابقة للجرمان وبعض قبائل الكلت التى اعتنقت اليهودية قبل انتشار المسيحية فى أوروبا .

---

(١) انظر :

Luschan, F., von, The Early Inhabitants of Western Asia, J.R.A.J. 911, vol. 41, London, 1913, pp. 221-244.

(٢) راجع :

Haddon, A.C. & Huxley, J. We Europeans, London 1935, pelican 1939.

(٣) نفس المرجع ص ١٥٢ .

من هذا يتبين أنه من العبث محاولة البحث عن سلالة يهودية فى الوقت الحاضر . فمثل هذه السلالة على فرض وجودها أصلا قد اندثرت منذ خروج بنى اسرائيل من هضبة يهوذا فى القرن الأول الميلادى واختلاطها بجيرانها ودخول بعض العناصر الجديدة فى تكوينها مما جعل اليهودية تنصرف عن معناها العنصرى القديم إلى معنى دينى حديث . مثلها فى ذلك مثل غيرها من الديانات الكتابية الأخرى . ينتمى إليها عناصر وسلالات متعددة . وهذا يفسر الخليط الجنسى العجيب الذى عليه اليهود فى الوقت الحاضر فيمكن أن ينتمى اليهودى إلى أى سلالة من سلالات البشر ما عدا الزنوج والهنود الأمريكيين وغيرهم من السلالات البشرية البدائية فإلى جانب السلالات القوقازية البيضاء بعناصرها الرئيسية المعروفة نجد الهنود اليهود والصينيين اليهود فى أقصى الشرق واليهود السود (الفلاشا) فى الحبشة ممن يطلق عليهم فشبرج اسم اليهود ديناً لا عنصراً .

ولهذا كان من العسير علينا قبول تقسيم فشبرج لليهود (١) إلى يهود ديناً وعنصراً ، ويهود ديناً فقط ويهود عنصراً فقط ، كما أنه من الصعب قبول منطق كون (٢) الذى حاول به أن يثبت وجود سلالة اثنولوجية يهودية . وان اختلفت فى شكل الرأس أو القامة أو لون الشعر أو غيرها من المميزات الجنسية العامة . اعتماداً على وجود بعض صفات الوجه التى جاهد فى إثبات وجودها . مثل شكل الوجه وقرب ما بين العينين وظنها كافية لأن تميزهم كمجموعة اثنولوجية أو كسلالة قائمة بذاتها . ولهذا أيضاً لا نستطيع أن نقبل تقسيم اليهود على غير أساس مذهبى كغيرهم من الجماعات الدينية . وهو التقسيم المعروف إلى اشكنازية ، وسفاردية ، وقرائين أوشرقيين . ويمكن أن ندخل فى القسم الأخير السامريين أو يهود فلسطين الأصليين .

---

(١) انظر :
Fishberg, M. The Jews. A Study of Race & Environment, London & New York, 1940, CL. V.

(٢) انظر :
Coon, C.S. Loc. Cit. pp. 442 et seq 8 pp. 640 et seq.
Jacob, J. On the Racial Characteristics of Modern Jews. J.A.J. Vol. 1 886 pp. 23-62 vol. XV. London 1886, Fishberg, M. 1910 Loc. cit ; Fishberg, M. Boas Anniversary vol. 1906 pp. 55-65 & Weissenberg, (S. Mitt. Anthrop. Gessell. Wien) vol. 42, pp. 85-102.

الاشكنازية أكبر طائفة يهودية فى العالم الآن من حيث العدد وربما كانت أهمها من حيث الثقافة والنفوذ وترجع فى نشأتها إلى يهود الراين الذين لاقوا نوعاً من الاضطهاد الدينى بعد الحروب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ م فاتجه جزء منهم شرقاً إلى بوهيميا وبولندة ثم إلى روسيا وهناك تقابلوا مع من سبقهم من اليهود البيزنطيين والخزر الداخلين فى اليهودية . وتكونت من امتزاج هذه العناصر اليهودية جميعاً المجموعة الاشكنازية التى تتكلم لهجة ألمانية قديمة تكتبها بالحروف العبرية وتسمى باللغة اليهودية Jeddish وإن كانت تحتفظ لغة للطقوس الدينية وتشمل الاشكنازية فى الوقت الحاضر يهود وسط أوروبا وشرقيها ومن هاجر منهم إلى الأمريكتين أو جنوب افريقية أو فلسطين ويمتاز أفراد هذه الطائفة بالقامة الربعة المتوسطة المليئة التى تميل إلى القصر (١٦٢ – ١٦٧ سم) فى المتوسط ، والرأس العريض . كما تتراوح النسبة الرأسية بين ٨١ فى ألمانيا إلى ٨٤ فى بوكوفينا و ٨٥ فى تركستان وبخارى وسمرقند . ولون الشعر أشهب وتبلغ نسبة السمرة بينهم ٥٥٪ بينما لا تزيد الشقرة الخالصة على ١٠٪ على أن صفة الشقرة تزداد بازدياد وجودها بين الشعوب التى يسكنون بين ظهرانيها والخلاصة أنهم يتفقون فى كثير من الصفات الألبية والسلافية الموجودة فى شرق أوروبا ووسطها .

أما الطائفة السفاردية فهى بقايا اليهود الذين طردوا مع العرب من الأندلس (١٤١٢ م) ثم هاجروا إلى هولندا وانجلترا شمالا وإلى شمال افريقيا جنوباً وإيطاليا شرقاً . وقد اعتصم عدد كبير منهم بالامبراطورية العثمانية الناشئة وقطنوا البلقان وآسيا الصغرى والشرق الأدنى وقد احتفظ هؤلاء بلهجة اسبانية تسمى اللادينو فى البلقان أو الاسبانيولية Espaniole فى غيرها . ويمتاز أفراد هذه الطائفة بالقامة النحيلة المتوسطة (١٦٢ سم) والرأس الطويل أو المتوسط (النسبة الرأسية ٧١) ونسبة الشقرة بينهم قليلة لا تعدو ٥٪ إلا أنهم يتفقون مع الاشكنازية بضيق ما بين العينين .

أما اليهود الشرقيون أو القراءون فيشملون السامريين وهى أقدم مجموعة يهودية فى العالم وربما كانت المجموعة اليهودية الوحيدة التى ظلت فى فلسطين لم تبرحها قط. وهى مجموعة ضئيلة تسير نحو الانقراض، وتمتاز بالقامة المتوسطة أو الطويلة والرأس الطويل والشعر الأصهب . وهى تتكلم العربية ومن العسير التمييز بينهم وبين عرب نابلس الذين يعيشون معهم . كما تشمل يهود مصر والعراق واليمن وشمال افريقية . وهؤلاء يمتازون بصفات سلالة البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة وأقرب إلى السفاردية منها إلى الاشكنازية .

مما تقدم يتبين أن اليهودى نتاج بيئته التى يعيش فيها ويتأثر بأهلها ويتصاهر معهم وتختلط أصوله بأصولهم . وقد بين فشبرج فى كتابه عن اليهود أنهم يختلفون فى مميزاتهم الجنسية من مكان إلى آخر تبعاً لاختلاف هذه المميزات الجنسية بين الشعوب التى يسكنون بين ظهرانيها . هذا إلى أن اليهود فى عصور الاضطهاد الطويلة التى تعرضوا لها فى أوروبا وغيرها من العالم القديم امتازوا بمميزات سيكولوجية ليس إلى قياسها بمقاييسنا الجنسية من سبيل . وربما أكسبهم ذلك سحنة خاصة يغلب عليها الحزن والأسى . يطلق عليها — مع كثير من الحذر والحيطة — اسم السحنة اليهودية . ولكن هذه السحنة وليدة الجيتو Ghetto وحارة اليهود أو قاع اليهود إلى آخر ما يطلق على أحيائهم الخاصة فى البلاد التى تفصلهم عن بقية الأهلين . وسرعان ما تزول هذه السحنة إذا تحطم جدار الجيتو أو نعموا بمزيد من الحرية الشخصية كما هى الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا .

مثل هذا الخليط من الناس الذى يتمثل فى الاشكنازى الرّبع القامة — العريض الرأس — وفى التقاطيع الغليظة والسيفاردى النحيل الدقيق التقاطيع والألمانى الأشقر ذى العيون الرمادية أو الزرقاء واليمنى المتوسط القامة الضيق الرأس القليل الشعر . كل هذه الأخلاط من الناس قد بدأت تهاجر هجرات منظمة منذ سنة ١٩٢٠ . والتاريخ وحده هو الذى سيحكم فى الأجيال القادمة على إمكان صهر هذه السلالات المختلفة المتباينة الثقافة فى سلالة متجانسة واحدة . وهو أيضاً سيحكم على علاقته بالعربى الفلسطينى والعربى فى جيران فلسطين .

٨ — ملاحظات عامة وتلخيص :

١ — ذلك ما يمكن أن يصل إليه الباحث عن تطور سكان فلسطين حتى الأمس القريب فلا يعلم إلا الله ما تكون عليه الحال فى مستقبل الأيام . ولا سيما بعد أن أجبر على الخروج من فلسطين هذا العدد الضخم الذى شرد فى الآفاق . وبعد أن فتحت أبواب البلاد على مصاريعها لعدد أضخم من شذاذ اليهود ولذلك وجدنا من العبث إيراد إحصائية بسكان فلسطين حسب الدين أو العنصر ولكننا نكتفى بالإشارة إلى خريطة توزيع السكان فى المدن والقرى والدساكر الفلسطينية التى أعدتها لجنة التحقيق الانجلوأمريكية عام ١٩٤٥ حسب الدين (١) . فهى فى الواقع تعد وثيقة لمرحلة تاريخية وصلت إليها البلاد فى ذلك الوقت . ونكتفى بالإشارة أيضاً إلى أن أغلبية اليهود كانت تسكن — كما لا تزال — فى السهل الساحلى شمالى غزة حتى حيفا . وفى سهل مرج ابن عامر أما هضاب الجليل والسامرة ويهوذا فأغلبية سكانها من العرب .

٢ — يلاحظ أن معظم البحث فى سلالات فلسطين القديمة يقوم على أساس تاريخى . وهذا أساس سليم . أما فى العصر الحديث فلم يقم باحث بأخذ مقاييس انثروبولوجية فى أى جزء من أجزاء فلسطين اللهم إلا أبحاث فابسنبرج عن يهود السامرة ثم بعض ملاحظات انثروبولوجية عامة للأستاذ كابرز عن فلسطين كجزء من اقليم الشرق الأدنى . أما الأبحاث الخاصة باليهود فكانت على أساس اقليمى قام بها الباحثون من أجزاء مختلفة من العـــالم حيث يوجد اليهود . وأهمها الدراسات التى قامت عن يهود نيويورك بوصفهم يمثلون قطاعاً يهودياً من مهاجرى شرقى أوروبا ووسطها وربما من جنوبيها وشماليها أيضاً .

٣ — من الطريف أن يلاحظ طلاب الجغرافيا أثر العوامل الجغرافية فى توجيه الهجرات البشرية إلى فلسطين . ولا نغالى إذا قلنا فى صبغ الشعوب المستوطنة فى أجزائها المختلفة بصبغة خاصة واعطائهم صفات خاصة . مختلف بعضها عن البعض الآخر فى التفكير والسلوك .

---

(١) Maps Relating to the Anglo-American Committee of Enquiry Report, Lausane, April, 1946.

فقد تتبعنا هجرات الشعوب إلى فلسطين خلال التاريخ . ونستطيع أن نلخصها الآن فى قسمين . قسم هاجر من الصحراء واستقبلته سهوب جنوب فلسطين المتوسطة الارتفاع التى تتحول بالتدريج من نبات البحر الأبيض المتوسط إلى حشائش الصحراء حتى تنتهى أخيراً فى الصحراء . وقسم هاجر من عبر البحر المتوسط واستوطن السهل الساحلى . أما المصدر الأول للهجرات فكان أبقاها أثراً وأكثرها دواماً . ولولا اصطناع الحدود السياسية التى لا يعترف بها البدوى لظل أبد الدهر يعمل على تغذية فلسطين بدم بدوى جديد. لا يلبث أن يستقر ويستوطن البلاد ويعيد لها حيويتها ويربطها بماضيها فى الصحراء منذ عهد إبرهيم ولوط واسماعيل عليهم السلام . وأما المصدر الثانى فلم يكتب له هذا الاستمرار والدوام ، ولكنه دفع إلى البلاد بعنصر هام هو عنصر الفلسطين فى التاريخ القديم ونستطيع أن نقرر أنهم العنصر البحرى الوحيد الذى قدر له أن يكون ذا شأن فى فلسطين . فلقد جاء الاغريق بعدهم وأسسوا مستعمراتهم التجارية ثم غادروا البلاد ومن بعدهم الصليبيون وأعادوا الصلة بين شرق البحر المتوسط وجنوبيه وغربيه وشماليه ولكنهم ما لبثوا أن عادوا أدراجهم وطردوا من البلاد طرداً ، بعد غزوات صلاح الدين الموفقة . والآن يفد يهود أوروبا وقصتهم معروفة . وينزلون منازل الصليبيين فى فترة من فترات العصور الوسطى . والاغريق والرومان فى التاريخ القديم وليس من العسير التكهن بمصيرهم الآن .

٤ — نستطيع أن نعتبر أن عرب فلسطين هم سكانها الأصليون . النتيجة أو الخلاصة الانثروبولوجية لجميع الهجرات التى وفدت إليها واستوطنتها وانصهر بعضها فى البعض الآخر . وانتهى إلى شعب واحد أصله كنعانى تأثر بمن آثر البقاء فى البلاد من بنى اسرائيل . أو اعتنق المسيحية فى قرونها الأولى . وأدمج فى عنصر الفلسطين . ولم يكن ذلك صعباً أو عسيراً فكلاهما من سلالة البحر المتوسط . وقد ظل ذلك العنصر القديم — العنصر الكنعانى — يتمثل الهجرات البدوية خلال العصور التاريخية حتى الأمس القريب .

٥ — قد وجدنا صعوبة فى اعتبار اليهود سلالة اثنولوجية واحدة اللهم إلا إذا سلمنا بأن الفريق العريض الرأس منهم آثر الهجرة من فلسطين إلى شرقى أوروبا ووسطها . وأن الفريق الطويل الرأس آثر الهجرة إلى جنوبيها وشماليها الغربى وفى هذا صعوبة منطقية . أما اليهود غير القوقازيين فنترك أمرهم جانباً . فإن دعاة السلالة اليهودية لم يشيروا إليها من قريب أو بعيد . . .

محمد السيد غلاب

نصوص فلسفية فى قيمة التاريخ ومنهجه (*)

١ — ديكارت (١٥٩٦م — ١٦٥٠م)

من « مقال فى المنهج » (القسم الأول) :

« أحسبنى أنفقت وقتاً كافياً فى دراسة اللغات ، بل وفى قراءات الكتب القديمة وما فيها من تواريخ وأساطير . لأن الحديث مع أبناء القرون الخوالى أشبه بالأسفار . فمن الخير أن نعرف شيئاً عن أخلاق مختلف الشعوب ، حتى نكون أسد رأياً فى الحكم على الشعب الذى ننتمى إليه ، ولئلا نظن أن ما يخالف أحوالنا مدعاة للاستهزاء ومناف للعقل ، كدأب أولئك الذين لم يروا شيئاً . لكن من ينفق وقتاً مفرطاً فى الأسفار ينته بأن يصبح غريباً فى وطنه ؛ ومن يبالغ فى استقصاء أمور العصور الماضية ، يظل عادة شديد الجهل بأمور عصره . فضلا عما تخيله الأساطير من أحداث كثيرة غير ممكنة وكأنها ممكنة ، فان أصدق التواريخ — وإن لم يغير أو يزد فى قيمة الأشياء لتصبح أحق بالقراءة ، — فإنه على الأقل يغفل دائماً تقريباً الأمور الأدنى والأقل شأناً ، فلا يبدو سائرها كما كان فى الواقع ؛ والذين يقتدون فى سيرهم بالأمثلة التى استخلصوها منها معرضون للوقوع فى التهاويل الجنونية المألوفة لدى فرسان الأقاصيص ، ولتخيل أفعال تفوق طاقتهم » .

٢ — بول فالرى (١٨٧١ — ١٩٤٥)

من خطبة له بعنوان « خطبة فى التاريخ » ألقاها فى حفلة توزيع الجوائز الرسمية بليسيه جانسون دى ساى فى ١٣ يوليو سنة ١٩٣٢ (نشرت فى مجموعة « منوعات » Variétés ج ٤ ص ١٢٧ — ص ١٤٢) :

إن المؤرخين ورجال التاريخ ، أهل الدراسة وأهل الأفعال يتأثرون — على نحو شعورى حيناً ، لاشعورى حيناً آخر — ببعض الوقائع أو الملامح دون

(*) جميع التعليقات الواردة فى الهوامش من وضع المترجم .

بعض ، ويغفلون عن أخرى لا تلتئم أو تنقض مذاهبهم ؛ ولا يبدو أن ثمت تأثيراً ما لدرجة ثقافة هذه العقول ، أو لرسوخ علمهم أو سعته ، بل ولا لإخلاصهم أو عمقهم ، على ما يمكن أن يسمى « قدرة تباين الأهواء فى التاريخ » .

فسواء استمعنا إلى زيد أو عمرو (١) من الناس ، أو إلى جوزف (٢) دى ميستر النبيل الطاهر الرقيق القسوة ، أو إلى ميشليه (٣) العظيم الحار المشبوب الإحساس ، أو تين (٤) أو توكفيل (٥) أو مسيو أولار أو مسيو ماتييه — فبقدر عدد هؤلاء الأشخاص ، يكون عدد معتقداتهم اليقينية ؛ وبقدر عدد نظراتهم يكون عدد نصوص كتاباتهم . فكل مؤرخ لعصر ملىء بالأحداث يبرز لنا رقبة مقطوعة هى موضوع تفضيله .

وأى شىء أعجب من استمرار هذه الخلافات ، على الرغم من كمية وكيفية المجهود المبذول فى استقراء طائفة معينة واحدة من آثار الماضى ، ومن أن يتهم بعضهم بعضاً ، وتزداد النفوس صلابة وخلافاً وبعداً بعضها من بعض ، عن طريق هذا المجهود نفسه الذى كان يجب أن يقودهم إلى حكم واحد ؟

---

(١) فى النص : « مدام ديجا أو مدام لوبا » والأولى هى أم النحات المشهور ديجا والثانية أرملة لوبا Le Bas الذى كان من أعضاء الميثاق الوطنى ، وهى الجمعية الثورية التى خلفت الجمعية التشريعية إبان الثورة الفرنسية فى ١٧٩٢/٩/٢٠ وأعلنت الجمهورية وحكمت على لويس السادس عشر بالإعدام الخ . وقد أشار إلى زيارة الأولى الثانية فى استهلال هذه الخطبة .

(٢) فيلسوف دينى ومن أنصار البابوية فى فرنسا ؛ ولد فى شامبرى . ومن أشهر مؤلفاته : « البابا » ، « أماسى سان بطرسبورج » . ودافع فى كليهما عن مبدأ السلطة المطلقة فى الدين والسياسة فكان من أنصار الرجعية والاستبداد (سنة ١٧٥٣ — سنة ١٨٢١) .

(٣) جول ميشيليه (سنة ١٧٩٨ — سنة ١٨٧٤) مؤرخ فرنسى شهير ، اشتهر بالدعوة إلى الحرية فى الفكر والسياسة والدين — على النقيض تماماً من جوزف ديمستر — مما سبب منعه من التدريس فى الكوليج دى فرانس . وأشهر ما كتب : « تاريخ الثورة الفرنسية » ، « تاريخ فرنسا » ؛ ويمتاز بجمال الأسلوب وحرارة العاطفة .

(٤) هيبوليت تين (سنة ١٨٢٨ — سنة ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ وناقد أدبى فرنسى ؛ تأثر مناهج العلوم الطبيعية فى دراسة الآثار التاريخية والأدبية والفنية . أشهر مؤلفاته : « فلسفة الفن » ، « تاريخ الأدب الإنجليزى » ، « أصول فرنسا المعاصرة » .

(٥) ألكسيس دى توكفيل (سنة ١٨٠٥ — ١٨٥٩) سياسى ومؤرخ فرنسى . أشهر مؤلفاته : « الدمقراطية فى أمريكا » ، « العهد القديم والثورة » ؛ وكان نبيل الأخلاق ، واسع الأفكار السياسية ، فأجمع الكل على تقديره .

وعبثاً ينمو المجهود وتتنوع المناهج ويتسع ميدان الدراسة أو يضيق ، وتدرس الأمور بنظرة عالية جداً أو ينفذ المرء إلى نسيج العصر الدقيق ، ويستقصى الوثائق المحفوظة عند الأشخاص والأوراق الباقية عند الأسر والشئون الخاصة وصحف العصر والقرارات المحلية — فهذه التوسعات المتنوعة لاتتلاقى أبداً ، ولا تنتهى عند فكرة واحدة تفضى إليها . بل ينتهى كل منها إلى طبيعة مؤلفيها وأخلاقهم ، ولا ينتج عنها أبداً غير نتيجة بينة واحدة وهى : استحالة فصل من يشاهد عن الشىء الذى يشاهده ، والتاريخ عن المؤرخ .

ومع ذلك فثمت نقطاً يترافأ عليها الجميع . ففى كل كتاب تاريخ قضايا يتفق عليها الممثلون والشهود والمؤرخون والأحزاب . وهى لفتات موفقة ، وأمور عرضية حقاً ؛ ومجموع هذه الأمور العرضية ، وهذه الشواذ الجديرة بالملاحظة ، هو الذى يؤلف القسم المؤكد من معرفة الماضى . وهذه الأعراض ذات الاتفاق ، وهذا التلاقى فى الموافقات — يحدد « الوقائع التاريخية » ، ولكنه لا يحددها تحديداً تاماً .

فالناس جميعاً متفقون على أن لويس الرابع عشر توفى فى سنة ١٧١٥ . لكن وقع فى سنة ١٧١٥ ما لانهاية له من الأمور الأخرى الملحوظة يحتاج تسجيلها كتابةً إلى ما لانهاية له من الكلمات والكتب بل والمكتبات لحفظها . فلا بد إذن من « الاختيار » ، أعنى من الاتفاق ليس فقط على « وجود » الواقعة ، بل وأيضاً على « أهميتها » . وهذا الاتفاق رئيسى جداً . والاتفاق على الوجود معناه أن الناس لا يمكن أن « يعتقدوا » إلا ما يبدو لهم أقل حظاً من الإنسانية وأنهم يعدون أمر اتفاقهم أضعف من أن يقدر على استبعاد شخصياتهم وغرائزهم ومصالحهم ونظراتهم الفردية ، — وهى مصادر الخطأ وقوى التزييف . لكن لما كنا لا نقدر على الاحتفاظ بكل شىء ، ولابد من التخلص من خضم الوقائع اللامتناهى بواسطة حكم على أهميتها النسبية فيما بعد ، فإن تقرير الأهمية يُدخل من جديد فى العمل التاريخى ما حاولنا تجنبه واستبعاده ، ولا مفر من ذلك . والأهمية هنا ذاتية خالصة ، كما يقول زملاؤكم فى قسم الفلسفة . إذ الأهمية موكول إلينا تقديرها ، مثلها مثل قيمة الشهادات (الباقية لدينا) . وللمرء الحق

فى أن يظن أن اكتشاف خواص الكينا « أهم » من أية معاهدة عقدت حوالى ذلك العهد ؛ والواقع أنه فى سنة ١٩٣٢ يمكن أن تذهب نتائج هذه الأداة الدبلوماسية (المعاهدة) هباء وتفنى فى خضم الأحداث ، بينما الحمى يمكن تعرفها دائماً والمناطق ذوات الملاريا يكثر وفود الناس عليها واستغلالها ، وأن الكينا لعله لا غنى عنها من أجل احتلال الأرض كلها والبحث عن الثروة فيها ، وهذا الأمر هو الظاهرة السائدة ، « فى نظرى » ، فى هذا القرن .

وهكذا ترون أنى أنا أيضاً أشارك فى تقرير الأهمية حسبما أراه .

على أن التاريخ يقتضى ويتضمن كثيراً من الأهواء . فمثلا نجد من بين القواعد التى يعمل بمقتضاها قاعدة يعتقد بسهولة أنها دالة بنفسها ، ويمكن استخدامها بغير أدنى تحوط ، حتى إنه قد بدا للناس أنى أتيت أمراً منكراً حينما أردت منذ مدة أن أبحث عن صياغتها الدقيقة .

فهل أجروء على أن أحدثكم عن « علم التواريخ » Chronologie ، وكان فى الماضى أقسى مواد الامتحان ؟ وهل أجروء على إقلاق فكرتكم الناشئة عن العلية ، وتذكيركم بالمغالطة القديمة : « بعقبه إذن بسببه » post hoc , ergo propter hoc ، وتلعب دوراً خطيراً فى التاريخ ؟ وهل أقول لكم إن توالى السنين له قيمة محدودة عظيمة هى نفس القيمة التى للترتيب الأبجدى ، وإن توالى الأحداث أو وقوعها معاً لا معنى له إلا فى كل حالة على حدة ، وفى النطاق الذى فيه يمكن هذه الأحداث ، « فى نظر شخص ما » ، أن يؤثر بعضها فى بعض ؟ وأخشى أن أثير الدهشة والانزعاج إذا أومأت أمامكم إلى أن رجلا من نوع « الرجل الصغير الكبير » Micromegas [٢] لو أنه تجول فى الزمان

---

(١) مغالطة منطقية فيها يفترض الإنسان أن حدثاً معلول لآخر ، لا لسبب إلا لأنه أتى بعقبه ، أى بعده . ويقول بيكن Bacon إن هذه المغالطة هى الأصل فى معظم الخرافات المتصلة بالتنجيم والمفاءلة .

(٢) ميكروميجاس : اسم بطل أقصوصة فلسفية لفولتير ، وضعها سخرية من الأديب فونتنل (سنة ١٦٥٧ — سنة ١٧٥٧) الذى ألف كتاباً عنوانه « تعدد العوالم » مزج فيه بين الحقائق العلمية والمهازل الأدبية البارعة ؛ وجعل فونتنل هذا « الرجل الصغير الكبير » ، وتهكم منه تهكماً لاذعاً .

حينما اتفق ، وانتقل فجأة من الإسكندرية القديمة فى أزهى عصورها إلى قرية فى أفريقية أو فى فرنسا الحالية ، لخيل إليه قطعاً أن عاصمة البطالمة الزاهرة (الإسكندرية) « أحدث » عهداً بمقدار ثلاثة أو أربعة آلاف سنة من تلك المجموعة من الدور والأكواخ التى يسكنها معاصرونا .

وهذه الموافقات Conventions لا مفر منها . ولهذا لا أنقد إلا إهمال أولئك الذين لا يبرزونها للعقول بوضوح ووعى . ويؤسفنى ألا يعمل فى التاريخ ما عملته العلوم الدقيقة فى نفسها حينما أعادت النظر فى أساسها وبحثت فى بديهياتها بكل عناية وأحصت مصادراتها (ومبادئها) .

ذلك أن « التاريخ » لعله فى الأصل ربة إلهام ، وأن القوم يفضلون أن يكون كذلك . هنالك لن يكون لدى ما أقوله . . . فإنى أمجد ربات الإلهام .

كما أن « الماضى » أمر عقلى خالص . فما هو إلا صور ومعتقدات . لاحظوا أننا نستخدم نوعاً من المنهج المتناقض لنكوّن مختلف الأشكال عن مختلف العصور : فمن ناحية ، نحن فى حاجة إلى الحرية فى ملكة تخيل حيوات الآخرين والشعور بها ؛ ومن ناحية أخرى ، لابد من تضييق هذه الحرية من أجل أن نحسب للوثائق حسابها ، وأن نضطر أنفسنا إلى ترتيب وتنظيم « ما كان » بواسطة قوانا وصور تفكيرنا وانتباهنا ، وهذه أمور « فى جوهرها حاضرة » . لاحظوا هذا على أنفسكم : فى كل مرة يتملككم فيها التاريخ وتفكرون تاريخياً ويلذ لكم أن تحيوا المغامرات الإنسانية فى عصر من العصور الغابرة ، يسند اهتمامكم هذا شعور بأن الأشياء كان يمكن أن تكون غير ما كانت عليه بالفعل وأن تتخذ مجرى آخر . وفى كل لحظة تتخيلون « لحظة — تالية » أخرى غير تلك التى تلت فعلا : ففى كل حاضر خيالى تضعون أنفسكم فيه ، تتصورون مستقبلا آخر غير الذى تحقق .

« لو انتصر روبسبيير ؟ — لو وصل جروشى (١) فى الوقت المناسب على

(١) Grouchy : امانويل دى جروشى : ماريشال فرنسى . حارب فى فنديه ، وكان على رأس الحملة فى إيرلنده ، وبرز فى عهد امبراطورية نابليون الأول . وفى عشيه معركة ووترلو كلف بمطاردة البروسيين بعد هزيمتهم فى ليني ، فتركهم يفرون ويلحقوا بالإنجليز وبقى هو بعيداً عن ميدان المعركة التى قررت مصير نابليون . ولد سنة ١٧٦٦ ، وتوفى سنة ١٨٤٧ .

أرض ووترلو ؟ — لو كان عند نابليون بحرية لويس السادس عشر وقائد بحرى مثل سوفرن . . . »[1] لو . . . دائماً لو .

وهذا الحرف العاطف الصغير « لو » ملىء بالمعانى . فلعل فيه يرقد سر الرابطة الباطنة بين حياتنا وبين التاريخ . إنه يبث فى دراسة الماضى قلق الانتظار ودوافعه المحركة التى تحدد لنا الحاضر . ويضفى على التاريخ قوى القصص والحكايات . ويشركنا فى هذا التوقف أمام الأمور غير اليقينية ، وهو ما يؤلف الإحساس بالحيوات الكبرى . والإحساس بمشاعر الأمم خلال المعارك التى يتقرر فيها مصيرها ، الإحساس الملازم للطامحين فى الساعة التى يرون فيها أن الساعة التالية ستكون ساعة التاج أو ساعة المقصلة ، الإحساس الذى يشعر به الفنان وهو يشرع فى إزالة الأغطية عن مرمر تمثاله أو يأمر بازالة العقود والدعائم التى لا تزال تسند البناء . . .

ولو جردنا من التاريخ عنصر الزمن الحى . لوجدنا أن مادته نفسها ، أعنى التاريخ . . . الخالص : ذلك المؤلف من وقائع فحسب ، من وقائع لا جدال فيها من ذلك النوع الذى تحدثت عنه — وجدنا هذه المادة لا معنى لها — ، لأن الوقائع ليس لها فى نفسها معنى . يقال لكم أحياناً : « هذه واقعة » ، « استسلموا للوقائع » . فهذا معناه : « آمنوا » . آمنوا ، لأن الإنسان لم يتدخل ها هنا وإنما الأشياء نفسها هى التى تتكلم . « هذه واقعة » .

أجل . لكن ماذا نعمل بـ « الواقعة » ؟ لا شىء أشبه من الواقعة بوحى فوثيا [2] ، أو بهذه الأحلام الملكية التى فسرها أمثال يوسف ودانيال — فى

---

(1) Suffren : بيير أندريه : ملاح فرنسى (سنة ١٧٢٦ — سنة ١٧٨٨) حارب الإنجليز ببسالة فى الهند منذ أن دخل البحرية الملكية سنة ١٧٤٣ ، ولكنه وقع بين أيديهم فى معركة الجزيرة الجميلة Belle-Isle سنة ١٧٤٨ ، ثم دخل فى طريقة فرسان مالطة سنة ١٧٤٩ ، واشترك فى الاستيلاء على ماهون Mahon سنة ١٧٥٦ . وحارب مع حيدرعلى فى الهند ضد الإنجليز ، ووكل إليه أمر قيادة خمس سفن سنة ١٧٨١ ، فحطم أسطول جونستون . ثم عين رئيساً لأسطول الهند سنة ١٧٨٢ وتحالف مع حيدرعلى وحارب الأميرال الإنجليزى هيوز خلال سبعة أشهر فى أربع معارك واستولى على نيجاباتام وترنكمال وظل متفوقاً حتى صلح فرساى سنة ١٧٨٣ . وتوفى سنة ١٧٨٨ خلال مبارزة.

(2) فوثيا Pythia : كاهنة أبولون فى دلف التى كانت تجلس على مقعد ذى ثلاث أرجل فوق شق فى صخرة ، وتتفوه — وهى فى حال التجلى — بعبارات متعثرة غامضة ، يتولى الكاهن تفسيرها على صورة أبيات منظومة .

الكتاب المقدس — للملوك الفزعين. فنى التاريخ، كما فى سائر المواد، ما هو واقعى وضعى هو غامض يحتمل ما لانهاية له من التأويلات.

ولهذا فان أمثال دى ميستر وأمثال ميشليه ممكنون على السواء؛ ومن هنا فانهم حينما يفكرون فى الماضى لعلهم أن يتصوروا أنفسهم أشباه الوحى والكهنة والأنبياء، فيتشكلون بأشكالهم ويستعيرون سمو لغاتهم؛ وفى نفس الوقت يضفون على «ما كان» كل العمق الحى الذى لا يثبت حقاً إلا للمستقبل.

وعلى هذا النحو يتشابه فى نفوسنا: رؤية (١) الماضى والتنبؤ بالمستقبل؛ واقتناص الماضى وتوقع المستقبل، ولا نملك إلا الترجح بين الصور، ويبدو الحاضر السرمدى شبيهاً بالاصطفاق بين فرضين متماثلين: أحدهما يفترض الماضى، والآخر يقترح المستقبل.

وأنتم أيها الشباب الأغراء الماثلون أمامى. إنكم تجعلوننى أفكر فى أزمنة لن أراها، وفى أخرى لن أراها عوض. أراكم وأرى نفسى حينما كنت فى سنكم، فتغرينى الرغبة فى التنبؤ بما سيكون.

لقد أطلت عليكم كثيراً فى الحديث عن التاريخ، وكنت على وشك أن أغفل عن ذكر الأمر الجوهرى، ألا وهو: إن أفضل منهج لتكوين فكرة عن استعمال التاريخ وقيمته، — وخير طريقة لتعلم كيفية قراءته والانتفاع به —، هو أن يتخذ المرء من تجربته الخاصة نموذجاً لمعرفة الحوادث التى وقعت، وأن يستخلص من الحاضر نموذج حب استطلاعه للماضى. فما رأيناه بأعيننا، وما عانيناه بأنفسنا وما كنا عليه وما فعلناه، — ذلكم هو الذى يجب أن يقدم لنا برنامج المسائل، المستخلص من حياتنا نحن، والذى سنطلب من التاريخ بعد ذلك تحقيقه ويجب عليه أن يحاول الإجابة عنه كلما سألناه عن الأزمنة التى لم نعشها. «كيف يمكن الحياة فى عصر ما معين؟» تلك هى المسألة فى صميم الأمر. فجميع التجريدات والأفكار التى تجدونها فى الكتب لا طائل تحتها، إذا لم تعطوا الوسيلة لاكتشافها ابتداء من الفرد.

---

(١) فى هذه الفقرة لجأ فالرى إلى ألوان من الجناس والسجع بين الكلمات لم يتيسر أداؤه فى العربية، وذلك بين pressentir ressentir, suppose propos revoir prévoir

لكن حينما يتأمل المرء نفسه تاريخياً ، — على ضوء التاريخ — ، ينساق إلى مشكلة معينة ، على حلها يتوقف مباشرةً حكمنا على قيمة التاريخ . فان التاريخ إذا لم يكن مجرد تلهية للعقل ، فما ذلك إلا لأننا نأمل أن نستخلص منه دروساً . إذ نظن أننا نستطيع أن نستنتج من معرفة الماضى بعض ما يسمح لنا بالتنبؤ بالمستقبل .

فلنرجع دعوى التاريخ هذه إلى أنفسنا ؛ وإذا كنا قد لمسنا بضع عشرات من السنين ، فلنحاول أن نقارن ما كان بما كنا نستطيع توقعه ، نقارن الحادث بالمتوقع .

كنت فى سنة الخطابة عام سنة ١٨٨٧ . (وسنة الخطابة قد أصبحت فيما بعدُ السنة الأولى (١) . وهو تغيير كبير يمكن أن نستخلص منه تأملات لاحد لها) .

إنى لأتساءل الآن ماذا كان يمكن التنبؤ به سنة ١٨٨٧ — أى منذ خمس وأربعين سنة — مما وقع فعلا منذ ذلك العام ؟

لاحظوا أننا فى خير الظروف للتجربة التاريخية . فلدينا كمية هائلة ، لعلها أكثر مما يجب ، من المعلومات : كتب ، صحف ، صور شمسية ، ذكريات شخصية ، شهود لا يزالون كثيرين . والتاريخ لا يبنى عادة بهذا القدر الوفير من المواد .

إذن ، ماذا كان يمكن توقعه ؟ إنى أكتفى بوضع المشكلة . وأشير فقط إلى بعض ملامح العهد الذى كنت فيه طالباً فى صف الخطابة .

فى ذلك العهد كان فى الشوارع مقدار من الحيوانات لا يرى إلا فى ميادين السباق ، ولم يكن ثم آلة واحدة . (لنلاحظ ها هنا أن بعض الباحثين المحصلين يرون أن استخدام الفرس فى الجر لم يشع إلا فى حوالى القرن الثالث عشر ، فأنقذ أوربا من الحمل ، وهى طريقة كانت تقتضى وجود العبيد . وهذا التشبيه يصور لكم السيارة — الأوتوموبيل — على أنه « واقعة تاريخية ») .

(١) لاحظ أن السنة الأولى فى نظام التعليم الفرنسى الثانوى هى السنة النهائية التى يحصل الطالب فى نهايتها على البكالوريا (القسم الثانى بفرعيه : فلسفة ، وعلوم ورياضة) . وسنة الخطابة (أو فصل الخطابة ، أو صف الخطابة كما يقول أهل لبنان وسورية) كانت هى سنة البكالوريا . وسميت كذلك لأنها السنة التى كان يدرس فيها الطالب علم الخطابة .

فى سنة ١٨٨٧ هذه كان الجو مخصصاً للطيور وحدها دون سواها . ولم تكن الكهرباء قد فقدت أسلاكها . والأجسام الصلبة كانت لا تزال صلبة ، والأجسام المعتمة كانت لا تزال معتمة . ونيوتن وجاليليو يحكمان فى سلام ؛ وعلم الفزياء هانىء وقواعده [١] مطلقة . والزمان يجرى بأيامه الهادئة : والساعات كلها كانت سواسية أمام الكون [٢] . وتمتع المكان باللانهاية والتجانس لا يتأثر أبداً بشىء مما يجرى فى داخل أحضانه العظيمة . والمادة تحكمها قوانين حكيمة عادلة ، ولم يخطر ببالها أبداً أنها ستعدل منها شيئاً مهما يكن ضئيلا ، — حتى فقدت فى هذه الهوة من التجزىء [٣] ، فكرة القانون نفسها . . .

ولكن هذا كله لم يعد اليوم إلا حلماً ودخاناً . لقد تغير هذا كله كما تغيرت خريطة أوربا ، وسطح الأرض السياسى ، وكما تغير مظهر الشوارع ، وزملاؤنا فى الليسيه — أولئك الذين لا يزالون أحياء ، وكنت تركتهم إما حاصلين على البكالوريا أو على وشك الظفر بها وإذا بى أجدهم اليوم أعضاء فى مجلس الشيوخ وقادة عسكريين وعمداء أو رؤساء ، أو أعضاء فى المعهد الفرنسى .

لقد كان من الممكن التنبؤ بهذه التغيرات الأخيرة ؛ ولكن التغيرات الأخرى ؟ إن أعلم العلماء وأعمق الفلاسفة وأبرع السياسيين فى سنة ١٨٨٧ — هل كان فى وسعه أن يحلم — مجرد حلم — بما نراه اليوم بعد مضى خمس وأربعين سنة بائسة ؟ إنه ليس من الممكن مجرد تصور ما هى العمليات العقلية التى ببحثها فى كل المادة التاريخية المتجمعة عن سنة ١٨٨٧ كان يمكنها أن تستنتج من معرفة الماضى — أياً كان رسوخ هذه المعرفة وإحاطتها — فكرة ، ولو تقريبية جداً ، عما عليه سنة ١٩٣٢ .

ولهذا فانى أتحاشى التنبؤ . إنى أشعر شعوراً عارماً — كما قلت فى مناسبة

---

(١) هنا إشارة إلى نسب اللاتعين فى فزياء بلانك وهيزنبرج والميكانيكا التموجية مما أدى إلى أزمة فى نظرية الجبرية فى الفزياء (راجع كتابنا « اشبنجلر » ص ٢٢ — ص ٢٤ ؛ القاهرة ط ٢ سنة ١٩٤٥) .

(٢) هنا إشارة إلى ما فعلته نظرية النسبية عند اينشتين من القول بعدة أنواع من الأزمنة تختلف باختلاف الراصد .

(٣) هنا إشارة إلى تجزىء الذرة ، وإلى عدم وجود جبرية دقيقة فى المستوى تحت الذرى .

أخرى – بأننا « ندخل المستقبل ناكصين على أعقابنا » . وهذا عندى أهم درس يعلمنا التاريخ إياه وأشده يقيناً ، لأن التاريخ هو العلم بالأشياء التى لا تتكرر أبداً . فالأشياء التى يمكن تكرارها ، والتجارب التى يمكن إعادتها ، والملاحظات التى يعلو بعضها بعضها ، كل أولئك من شأن علم الفزياء، وإلى حد ما علم الأحياء.

لكن لا تخالوا أن تأمل الماضى بما فيه من غابر لن يعود أمر لا غناء فيه . إنه يبين لنا خصوصاً إخفاق التنبؤات البالغة الدقة إخفاقاً متواصلا ؛ وعلى العكس يكشف عن الفوائد الكبرى للإعداد العام المستمر الذى يسمح للإنسان بالعمل فى وقت مبكر ضد المتوقع – دون أن يدعى خلق الأحداث أو تحديها ، لأنها دائماً مفاجآت ، أو تنطوى على نتائج تثير الدهشة والذهول . . .

٣ – شارل سينيوبوس (*)

– ١ –

التاريخ علم ما فى ذلك ريب ، لأننا نستطيع أن نطلق كلمة « علم » على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث فى نوع واحد معين من الوقائع . فهو علم الوقائع التى تتصل بالأحياء من الناس فى « مجتمع » خلال توالى الأزمنة فى « الماضى ». ويدخل فى عداد العلوم « الوصفية »، وهى تختلف عن العلوم العامة اختلافاً بيناً . فهذه العلوم (الميكانيكا ، والفزياء ، والكيمياء ، وعلم الأحياء) تعمل لاكتشاف قوانين ، أعنى متواليات ثابتة من الظواهر التى من « نوع واحد » ، ضاربة صفحاً عن الأحوال الواقعية الزمانية والمكانية ، لأن هدفها ليس تقرير الواقع ، بل التنبؤ بما سيكون فى أحوال معلومة. والعلوم الوصفية تسعى لمعرفة « وقائع » réalités جزئية ، فتبحث كيف تتوزع : إما فى المكان وحده (علم الكون ، علم الجغرافيا ، علم المعادن ، علم النبات ، علم الحيوان) ، أو فى المكان وتوالى الأزمنة معاً ؛ وإلى هذا النوع الأخير

(*) هذا البحث قسم من رسالة طويلة بعث بها شارل سنيوبوس فى صيف سنة ١٩٤١ إلى فرديناند لوت ووجدتها زوج لوت بعد وفاته ضمن أوراقه وسلمتها إلى ر. فافتييه R. Fawtier فنشرها فى « المجلة التاريخية » Revue Historique (السنة السابعة والسبعون، جـ ٢١٠، يوليو سبتمبر سنة ١٩٥٣) وتاريخ رسالة سنيوبوس ١٠ – ٢٩ يونيو سنة ١٩٤١ .

(الجيولوجيا ، علم العصور التاريخية العتيقة paléontologie) ينتسب التاريخ أيضاً . لكن له وضعاً نسيج وحده . فبينما جميع العلوم لا تعمل إلا فى نوع واحد من الظواهر ، نجد أن التاريخ يجب عليه أن يدرس فى آن واحد « نوعين » من الوقائع المختلفة كل الاختلاف : ١ — وقائع مادية تعرف بالحواس (أحوال مادية وأفعال بنى الإنسان) ٢ — ووقائع من طبيعة نفسانية (عواطف ، أفكار ، دوافع) لا يدركها إلا الشعور ، ولا سبيل إلى الإضراب عنها لأنها توحى للناس بسلوكهم وتقتاد أعمالهم الحقيقية .

ولما كانت الوقائع أموراً ماضية ، فإنها لا يمكن أن تلاحظ بطريق مباشر ، ولا يمكن إذن أن تعرف إلا بطريق « غير مباشر » وذلك بدراسة الآثار التى حفظت لنا منها . كما فى الجيولوجيا وعلم العصور القديمة . والوقائع فى التاريخ على نوعين : الموضوعات المادية التى كانت على صلة بالناس، والنقول traditions الشفوية أو المكتوبة التى مرت من خلال الوسيط النفسانى للغة ، مضافة إليه ، فى حال النص ، علامة مكتوبة من نوع نفسانى . فـ « البقايا » — كلغة الإقليم واسم المكان ، والعرف الجارى (الحقل المكشوف ، الدورة الزراعية الثلاثية) ، والطقوس الدينية — إذا عرضت كنوع من الوثائق فهى ليست إلا صورة من النقل الشفوى ، صارت عادة منقولة بالطريق النفسانى خلال الأجيال المتعاقبة .

فمنهج العمل التاريخى وقد ارتد إلى عمليات غير مباشرة ، ناقصة سطحية جداً ، هو إذن يعتوره النقص بالضرورة . ولكنه وحده القابل لأن يطبق على جميع الدراسات المتعلقة بظواهر المجتمعات الإنسانية ، لأن كمية الوقائع التى يمكن الإنسان أن يشاهدها مباشرة كمية ضئيلة جداً ، لأن الحاضر سرعان ما يستحيل ماضياً . والواقع أن جميع الأعمال التى تجرى على الوقائع الاجتماعية تتم على وثائق مكتوبة — حتى البحث الاجتماعى فى التوتم والتابو ، وعلم السكان وعلم الإحصاء . ولهذا فإن الدراسات عن سائر أنواع النشاط تتخذ شيئاً فشيئاً صورة التاريخ (تاريخ اللغات ، والأديان ، والقانون ، والصناعة الفنية ، والعلوم ، والفنون) .

وكل عمل تاريخى يقتضى عملية سابقة : ألا وهى جمع مواد المعرفة ، أى الوثائق بالمعنى الواسع . وقد بدأ التاريخ — شأنه شأن العلوم الوصفية (علم الحيوان،

والجيولوجيا) — بمجاميع شبيهة بمجاميع التاريخ الطبيعي . ويقوم بهذا العمل خصوصاً مختصون يديرون الحفائر ، ويحررون الفهارس والأثبات ، وينشرون كتب المراجع ؛ ودورهم فى هذا شبيه بدور علماء التاريخ الطبيعى الذين يهيئون مجاميع علم الحيوان أو علم النبات . وفيما عدا اكتشافات الأشياء من قبيل المصادفة والمساعى لدى من يملكون أوراق الأسرة أو المجاميع الخاصة ، نرى أن « علم الاكتشاف » فى المنهج التاريخى heuristique' يقتصر فى الواقع على استخدام كتب المراجع والأثبات bibliographies

— ب —

وينقسم العمل فى كل علم إلى نوعين من سلاسل العمليات هما : « مشاهدة » الوقائع الجزئية بعزلها عن المجموع الذى تنتسب إليه ، — ثم المقارنة بينها على نحو يسمح بفهم « العلاقات » القائمة بينها . والإنسان لا يستطيع أن يدرك بطريق مباشر إلا الوقائع التى على قياس حواسه : من موضوعات أو كائنات محسوسة ، أو علاقات مباشرة للتوالى أو علاقة العلة بالمعلول . وعلى الرغم من أنه لا يوجد حد واضح متمايز بين كلتا السلسلتين ، فالبحث فى الجملة ، عن الواقع هو من شأن العلم التحصيلى érudition ، وينقسم غالباً بين نوعين من المختصين : ناشرى الوثائق ، ومؤلفى الرسائل المفردة . أما البحث عن العلاقات فمن شأن التاريخ الذى يتخذ صورة مؤلفات عامة .

ولما كان التاريخ يعمل فى وقائع أصعب فى الرصد وبوسائل أشد نقصاً من أى علم آخر ، وكان إلى جانب هذا عارياً من كل أداة للملاحظة ، مقصوراً على قوى العقل الإنسانى وهو بطبعه مضطرب غامض متسرع ، فان المنهج يقتضى مقاومة السير التلقائى والعمل فى اتجاه معاكس لاتجاه الطبيعة ، وكل هذا بدقة وحذر .

والمسلك الذى تفرضه طبيعة مادة المعرفة فى التاريخ هو البدء من الوثيقة ، وهى الأثر المادى الوحيد عن الماضى ؛ ثم الارتفاع فى سلسلة العمليات النفسية : الكتابة ، واللغة ، والمعنى المجازى ، والمعنى الحقيقى ؛ وتمثيل الشىء فى نفس المؤلف ، حتى نصل إلى الواقعة التى عرفها . وهذا المنهج يقتضى نوعين من العمليات : « التحليل » (ويسمى هكذا مجازاً) وهو فصل كل واقعة من الوقائع الجزئية المعروضة إجمالا فى الوثيقة عن غيرها — فصلا فى الذهن ، لا فى الواقع

كما فى الكيمياء ؛ و « النقد » وقوامه تقدير قيمة المعلومات الواردة ، أعنى معرفة ما إذا كان بينها وبين الحقيقة الواقعية ذلك الاتفاق الذى نسميه « حقيقة » (طبيعتها من ميدان علم ما بعد الطبيعة) . والأمر الذى يجعل النقد ضرورياً هو أنه قد لوحظ بثلاثة مناهج مختلفة أن عدم التوافق بين العقل والإنسان والحقيقة الواقعية — وبعبارة أخرى « الخطأ » — شائع جداً . واكتشاف هذه الظاهرة ثبت يقيناً : (١) فى التاريخ بما شوهد من تناقض لا سبيل إلى دفعه بين وثيقتين ؛ (٢) وفى العمل القضائى بالتناقض بين شهود واقعة واحدة ؛ (٣) وكذلك ثبت بتجارب معامل علم النفس .

ويجب البدء بتحديد الواقعة المتضمنة فى الوثيقة ، قبل البحث فى قيمتها ؛ فالتحليل إذن يسبق منطقياً النقد . فاذا حللنا فكرة « الوثيقة الأصلية » بوصفها فكرة ذات أهمية بالغة ، تبين لنا أنها خداعة :

(١) فهى وقتية زائلة ، فان الوثيقة التى تعد أصلية طالما لم يكتشف المصدر الذى أخذت عنه تنزل عن مرتبتها إذا اكتشف هذا المصدر (فقد اكتشف مصدر هربوكراتيون[1] حينما اكتشف « دستور آثينية » لأرسطوطاليس ، وكشف عن الدوق دى بروى لما كشف عن دريه — بريزيه[2]) .

---

(١) ڤالريوس هاربوكراتيون Valerius Harpocration : نحوى اسكندرى ، قال البعض إنه كان مؤدباً لفيروس Verus صهر ماركس أورليوس (سنة ١٢١ م — سنة ١٨٠ م) ، وقال آخرون إنه كان معاصراً للامبراطور يوليان المرتد (سنة ٣٣٢ م — سنة ٣٦٣) . وقد ألف « معجماً يونانياً » بالألفاظ الواردة لدى خطباء آثينية الكبار العشرة . وقد طبعه ألدى Alde فى البندقية سنة ١٥٠٣ و سنة ١٥٢٧ ؛ وجرونوڤيوس فى ليدن سنة ١٦٩٣ ؛ وبكر فى برلين سنة ١٨٣٣ ، ودندورف سنة ١٨٥٣ . ويتضمن ألفاظاً وأعلاماً وعبارات مأخوذة خصوصاً من الخطباء ، فى ترتيب أبجدى مع ذكر شواهدها غالباً و شرح لبعض النقط المهمة . وبعض المواد مستمد من آثار غير خطابية ، وفى تفسيراته يقتبس أحياناً من الكتاب اليونانيين الكبار من هوميرس حتى العصر المتأخر. وفيه إلى جانب ذلك معلومات ثمينة فى الآثار والدين والتشريع والاجتماع الخ .

(٢) أسرة دى بروى Broglie أسرة عريقة أصلها من كييرى chieri فى مقاطعة بيمونته بشمال إيطاليا ، ثم تجنست بالجنسية الفرنسية فى القرن السابع عشر ، وكان منها كبار رجال الدولة فى فرنسا ومنها اليوم عالمان مشهوران هما لوى دى بروى وأخوه موريس . والدوق دى بروى الأول هو الابن الثالث لكونت دى بروى (سنة ١٦٣٩ — سنة ١٧٢٧) وولد سنة ١٦٧١ وتوفى سنة ١٧٤٥ وبرز فى الحروب تحت لواء لوكسمبور وكاتينا وبوفلير وڤندوم وڤيلار ، ولمع فى معارك فليريس ودينان وفيرمبور . وكان سفيراً فى لندن سنة ١٧٢٤ ، وأصبح بلقب ماريشال فرنسا سنة ١٧٣٤ . وابنه أيضاً كان دوقاً ولد سنة ١٧١٨ وتوفى سنة ١٨٠٤ : اشترك فى عدة معارك فى شمال فرنسا وضد بروسيا وأصبح بلقب ماريشال سنة ١٧٥٩ . وفى سنة ١٧٨٩ — وهى سنة قيام الثورة الفرنسية — عينه لويس السادس عشر وزيراً للحربية وقائداً للقوات المسلحة من أجل القضاء على الثورة . ولكنه اضطر إلى الفرار وكاد يذبح فى ڤردان ، وقاد جيش الأمراء سنة ١٧٩٢ وخدم روسيا سنة ١٧٩٧ حتى توفى سنة ١٨٠٤ .

(٢) ومن الصعب تحديدها بدقة لأن صفة المصدر المباشر تنتقل بتدرج متصل : من مخطوط المؤلف الأصلى مارين بالصورة الشمسية ، والنسخة الكاملة ، والنسخة الناقصة ، والمستخرج والاقتباس بين أقواس — حتى نصل إلى التلخيص البسيط.

(٣) وهى خصوصاً واسعة بغير حق ، كما فى القضاء فكرة الشاهد المقبول الشهادة ، لأنها تعترف ضمنياً بأن جميع توكيدات الوثيقة (أو الشاهد) مصدرها واحد وقيمتها واحدة . فليس لنا أن ننسب صفة « أصلية » إلى الوثيقة فى جملتها ؛ بل يجب إمكان انطباق هذه الصفة على كل خبر أو قول وارد فيها ، أعنى صفة أن الخبر أو القول واقعة شاهدها ورواها المؤلف بنفسه . وهكذا فان المعرفة المستخرجة من الوثيقة ترد إلى عملية كل علم وصفى ، أعنى « الملاحظة المباشرة » . فالتحليل ، بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الوقائع ، يكشف عن أن المؤلف ليس هو الذى شهدها بنفسه ، بل لاحظها مشاهد مجهول .

وأدع جانباً ما قلته فى « المدخل إلى الدراسات التاريخية » عن موضوع النقد الخارجى (معرفة كيفية استخدام الوثيقة) والنقد الباطن (تقرير الاحتياطات التى يلزم اتخاذها بمناسبة كل واحدة من الوقائع الواردة فى الوثيقة) — وعن النتيجة السلبية للنقد — وعن دور البرهان بواسطة قياس النظير — وعن استخدام الأسئلة (وأضيف إلى ما قلت أن « الفحص » المهيأ بواسطة مجموعة من الأسئلة المحددة الثابتة هو المنهج العام لكل أنواع البحث فى الوقائع) — وعن القاعدة التى تقتضى البحث عما قصده المؤلف قبل استنتاج أى شىء منه — وعن ضرورة الاحتفاظ بالتحليل منفصلا عن كل تفسير .

والعملية الأخيرة التى تفضى إلى تقرير الواقعة بيقين علمى ، تتم بمقارنة الأقوال المختلفة عن واقعة واحدة ، وهى أقوال تترتب على عدة ملاحظات . وتتضمنها إما عدة وثائق مختلفة أو أيضاً وثيقة واحدة فيها تأخذ صورة موجز لعدد كبير من الملاحظات . فبهذه الطريقة تنحل مشكلة اليقين المعقدة فى حال وجود وثيقة واحدة فريدة (مثل بطلميوس وأسماء الشعوب ، « وجدول المراتب »[١] .

(١) جدول المراتب Notitia Dignitatum : اسم وثيقة تتألف من قسمين : قسم خاص بأسماء الموظفين المدنيين والعسكريين فى المنطقة الشرقية ، وقسم آخر يسجل نظائرهم فى المنطقة الغربية فى الامبراطورية الرومانية . وهذا الجدول مشهور ، لأنه الوحيد الباقى لنا من نوعه . وترتيبه كالآتى : =

واليقين المشروع نحصل عليه — كما فى سائر العلوم — بالاتفاق بين كثير من الملاحظات « المستقلة » بعضها عن بعض . فهذا اليقين يقوم على أساس « مماثل » لحساب الاحتمالات . فعدد الأخطاء المختلفة الممكنة هو من الكثرة بحيث من يندر أن تتفق جملة أخطاء مصدرها مختلف اتفاقاً تاماً دقيقاً . فالأقوال إذا اتفقت ، فان اتفاقها ليس من الممكن عملياً أن يقع إلا لأنها تتفق مع الحقيقة الواقعية . ومن المفهوم طبعاً أن النتيجة يجب أن تسبقها عملية خاصة لتعرف ما إذا كانت الأقوال مستقلة فى مصادرها .

— ج —

وبعد أن يقرر التحليل والنقد الوقائع الجزئية المنفصلة ، تبدأ سلسلة من العمليات لضمها بعضها إلى بعض وفقاً « للعلاقات » التى نكتشفها فيما بينها .

والوقائع ، — تبعاً لمكانتها — تبدو على نوعين من العلاقات المختلفة كل الاختلاف :

(١) فبعضها يحدث بأن تتلاقى فى نفس المكان والزمان وقائع تنتسب إلى سلاسل مستقلة تمام الاستقلال ، وهذه هى المصادفات والاتفاقات العارضة (التى وضع نظريتها كورنو[١] Cournot).

(٢) والثانية تحدث من وقائع ندرك بينها وبينها ما يسمى فى اللغة العامة بـ « صلة العلة بالمعلول » ، وفى اللغة العلمية نقول إن الواقعة السابقة « شرط » للتالية . ولا يمكن تطبيق منهج واحد للتصنيف على هذين النوعين . فوقائع

= ثبت موجز بكبار الموظفين ، ثم كل موظف كبير وأسماء من معه من الموظفين ؛ أما بالنسبة إلى العسكريين ، فيرد أسماء كل فيلق بحسب المنطقة التى يعسكر فيها . فورد فيها أسماء العمال (المديرين فى الأقاليم الكبرى) ، ومحافظى روما والقسطنطينية ، ونوابهم vicarii ، والحكام الكبار والقواد الخ . وقد نشر هذا الجدول سيك سنة ١٨٧٦ O. Seeck : Notitia Dignitatum

(١) ا . كورنو (سنة ١٨٠١ — سنة ١٨٧٧) : فيلسوف فرنسى ، كان مفتشاً للتعليم العام ، ومن أوائل الذين قاموا بنقد الأفكار الأساسية فى العلوم . قال باستحالة الوصول إلى معرفة جواهر الأشياء . وأول مؤلفاته هو : « عرض نظرية المصادفات والاحتمالات » (سنة ١٨٤٣) ، وفى هذه النظرية يقول إن اليقين فى المعرفة يبدو بمثابة حد تتدرج بالنسبة إليه مختلف درجات الاحتمال . والمهم فى مذهب كورنو أنه شبه الاحتمال بالنسبية : فالفرض يؤخذ به فى الفزياء لأنه يسمح بربط الوقائع الملاحظة ربطاً عقلياً .

المصادفات يمكن فقط أن « ترصد » وترتب فى وضعها الزمانى والمكانى (التاريخى والجغرافى) ووفقاً للأشخاص . والوقائع التى تؤلف جزءاً من سلسلة من الأمور المتوقف بعضها على بعض يمكن أن تصنف وفقاً لنظام المقدمات والتوالى (ما يسمى باسم العلل والنتائج) . لكن هذه السلسلة لا متجانسة ، لأن جميع الوقائع الإنسانية (والاجتماعية) من نتاج نوعين من الظروف والشروط :(١) المادية ،(٢) والنفسية التى لاندرك بينها أية نسبة ، بل هى تنتسب إلى نوعين من الحقائق الواقعية لا يمكن رده إلى غيره . فبين الفعل المادى وشرطه النفسى ، المسمى مجازاً باسم «الباعث» له (فكرة ، عاطفة ، دافع) ، لا توجد رابطة ثابتة . وكذلك لا توجد أيضاً رابطة بين الحقيقة الواقعية والفكرة التى يكونها الإنسان عنها ؛ وليست الحقيقة الواقعية ، بل الفكرة ، صادقة كانت أو كاذبة ، هى شرط الفعل. فليس وجود الجحيم أو قوة السحر ، بل الاعتقاد فى وجود الجحيم وفى السحرة هو الذى أحدث ألوان التوبة والقضايا . وليست رسالة محمد الحقيقية ، ولا إيمانه برسالته ، بل إيمان المسلمين هو الذى ولد الجهاد والامبراطورية العربية . والغالبية العظمى من الأفعال الإنسانية تنشأ عن نظرات خاطئة فى الحقيقة الواقعية . (والأمر كذلك بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ، وفكرة القيمة ، والمذاهب السياسية) .

والحق أن الموضوع الحقيقى للتاريخ هو سلسلة النتائج الواقعية التى أحدثتها الأفعال ، والأفعال هى التى ترصد ؛ لكن لا يمكن فهمها إلا بمعرفة « كيفية » حدوثها ؛ بل من الصعب أيضاً رواية فعل دون بيان دواعيه . فلا يمكن أن نحكى كيف اكتشف كولمبس أمريكا إلا ببيان خطئه فى معرفة الأبعاد الحقيقية للأرض . وكل الوقائع التى تدرس بسبب نتائجها ، شأنها شأن عوارض المصادفات لا يمكن أن تصنف إلا فى إطار جغرافى وتاريخى ، وهى تؤلف مادة التاريخ العام .

وثمت وسيلة ثانية لجمع الوقائع وذلك بضم كل الكائنات الإنسانية التى يوجد بينها « نوع » من العلاقة المتحدة الطبيعية ، وتكوين جماعة منها متمايزة يطلق عليها اسم . فيستبين لنا :

(١) الجماعة القائمة على الأصلاب الحقيقية أو المزعومة أو المصنوعة ، وعلى الحياة المادية المشتركة (الأسرة ، القبيلة ، الفصيلة) ؛

(٢) الجماعة القائمة على علاقات الجوار والدفاع والمساعدة المتبادلة (القرية ، الناحية) ؛

(٣) الجماعة القائمة على علاقات التشابه فى عادات الحياة والنفسية ، واللغة ، والدين ، والعادات (الشعب بالمعنى العنصرى ويخلط بينه وبين العنصر بالمعنى الأنثروبولوجى خلطاً لا مبرر له) ؛

(٤) الجماعة القائمة على طاعة سلطة واحدة تقيمها القوة وخصوصاً التهديد باستخدام القوة ، والحرب ، والعدالة ، والشرطة .

وهذه الأنواع المختلفة للجماعات يجب أن توزع على مدى امتداد الأمكنة وتوالى الأزمنة (بالقدر المحدود الذى تسمح به الوثائق) .

والعملية الثالثة هى جمع الوقائع تبعاً لعلاقة المشابهة : وذلك بضم الوقائع التى تنتسب إلى « نوع » واحد من النشاط الإنسانى ، وكل منها يتحقق بالمزج بين فعل وواقعة نفسية — اللغة ، الاعتقادات ، الدين ، العرف ، طرائق المعيشة (فى الغذاء ، الملابس ، المسكن) ، الإنتاج ، التجارة ، القانون الخاص ، النظام السياسى . وتلك مادة التواريخ « الخاصة » . وفيها يدخل جانب من التجريد ، مما يغرى بمعالجتها كالعلوم العامة وبالبحث فيها عن « قوانين » ، إذ ترتبط بالواقع الوصفى لأنها محددة فى مكان (جماعة) وزمان . وأيسر الأنواع اللغة ، اللغة « الواقعية » ، التى « يتخاطب » بها ؛ وميزتها أولا أنها أبسط مزيج من هاتين الحقيقتين وهما : الحركات الفعلية للسان ، والعلاقة العقلية ؛ وميزة ثانية هى أنها تزودنا بمئات الآلاف (بل الملايين) من الأفعال المتشابهة كل التشابه . وهذا يسمح بتقرير أرصاد « أكثر وقوعاً » وإن لم تسمح تماماً بوضع قوانين « إحصائية » قائمة على « قانون العدد الأكبر » — وذلك فيما يتصل باستخدام لفظ أو صورة فى نظم الكلام أو هيئة صوتية . أجل! نحن لا نستطيع أن نعين بالدقة نسبة الذين يقولون « يتحدث الناس عن . . . » ، أو «من الناحية

الغالبة » ، أو « أتذكر ذلك » ، لكننا نستطيع أن نعرف أن هذه الصور أقل وقوعاً – وطبعاً فى وقت معين حقيقى ، لأنها يمكن أن تصبح أكثر وقوعاً .

وهذه التجربة على اللغة تسمح بتصور الطبيعة الحقيقية فى سائر أنواع النشاط ، للثبات المستتر تحت الأسماء الوهمية للقاعدة والقانون والثبات ، وما هو إلا كثرة الوقوع كثرة متفاوتة بل معرضة للزوال : كما يدل على ذلك حال كلمة قانون ومرسمه حينما يصبح غير صالح للاستعمال ، أعنى خارجاً عن الأحوال العادية للتفكير والعمل .

(١) وكل معرفة بواقعة ماضية تبدو – مادامت وصلت عن طريق ملاحظة غير مباشرة – على صورة جزئية منعزلة فى مدى المكان والزمان ، ولا يمكن استخدامها فى واحد من التجميعات (بأنواعها الثلاثة) إلا باتمامها على نحو يجعلها تمتد إلى مساحة جغرافية ، أو جماعة إنسانية ، أو حقبة تاريخية .

(٢) وكل واقعة إنسانية تلاحظ من الخارج تحتاج أن تتم بأحوال نفسية ضرورية للفعل .

(٣) ومعرفة العلاقات الإنسانية تند عن الملاحظة المباشرة ، إنها «تركيب» من تأليف العقل ، عقلنا نحن .

فثمت إذن ثلاثة أنواع من المعارف لا يمكن تحصيلها إلا بعملية جديدة . وهذه العملية – وهى مشتركة بين الثلاثة – هى البرهان بواسطة قياس النظير ويقوم على تشابه الأفعال و « أحوال النفس » (العواطف ، الأفكار ، العزائم) ، ومختلف العلاقات الاجتماعية بين الناس فى الماضى ونظائرها فى ظواهر الحاضر ، ونحن نعرفها بتجربتنا الشخصية عن السلوك المعتاد للناس و « أحوال نفسنا » الخاصة . وهى عملية متفاوتة القيمة جداً ، تعادل استقراءاً علمياً للوقائع البيولوجية (فالوثائق عن الشعوب المتبربرة لا تكاد تتحدث أبداً عن النساء أو الأطفال ، ورغم ذلك فنحن موقنون بأنهم أنجبوا وتناسلوا على نحو إنجاب وتناسل المعاصرين لنا) – وهى فرض تخمينى محض بمناسبة العواطف والأفكار ، بل وسلوك الأفراد . فهذا ميدان السير التى عمل فيها الخيال . ذلك أن قيمة برهان يتصل بالماضى تتوقف على قيمة أساسه مأخوذاً فى معرفة الحاضر . فيجب له إذن أن

يؤسس على علم تجريبي بنواميس السلوك الإنسانى ؛ وهذا العلم لم ينشأ ويكتمل ؛ وعلم النفس العام لا يمكن أبداً أن يقوم مقامه . والواقع أن كل مؤرخ يفكر بحسب أفكار نادرة غامضة ، وفى العادة خطأ ، اصطنعها لنفسه أو تلقاها من التقاليد الموروثة .

بل إن طريقة العقل الإنسانى فى تصور طبيعة العلاقات (بأنواعها الثلاثة) تصوراً تلقائياً تقوم على وهم : فالعلاقة ينظر إليها على أنها حالة ثابتة مستمرة ، يقيمها تماسك يعبر عنه على هيئة مجازية بأنه « رباط » بين الوقائع . وهذا الوهم شبيه بتصور المادة المتصلة (أو الجوهر) (على وفق الإدراك العام) التى أبدلت بها العلم المعاصر لتصور خلاء انتثرت فيه عناصر تفصلها أبعاد كبيرة . أما إذا فحصنا الحقيقة الواقعية فى سلسلة اللحظات المتتالية — وهذا هو الدور الخاص الذى يقوم به التاريخ — فاننا نشاهد أن واقع الوقائع الإنسانية (والاجتماعية) كلها يتألف من سلسلة « منفصلة » من الأفعال المتشابهة جداً ، ولكنها مع ذلك متمايزة الواحد من الآخر (ونضرب لهذا مثلا بالأصوات المتتالية للكلام ، والحركات المتوالية فى الحياة العادية) . والمادة الجامدة هى وحدها الثابتة ، على الأقل فى المستوى الإنسانى . ولكن الحياة كلها تقتضى حركات وتغيرات فى كل لحظة . وضعف العقل الإنسانى هو الذى يحملنا على الظن بأن هـذا « عين » ذاك وهو ليس إلا مجرد « شبيه » به . وعلى أن نتصور أنه « حالة وحيدة ثابتة ما ليس إلا سلسلة من الوقائع المتشابهة .

وثمت سبب آخر خطير لحدوث الخلط ، يرجع إلى أن اللغة لا تقدم أسماء لتمييز الأشياء بطريق مباشر اللهم إلا للأشياء الميسرة للحواس . أما الوقائع التى لا تدرك إلا بالشعور (النفسى) ، والعلاقات التى هى تركيبات للعقل — كل هذه لا يمكن أن يعبر عنها إلا بمجاز . والكثير منها قد دخل فى اللغة الجارية وصار من القدم بحيث لا تذكر أصولها ، وأصبحت بمعزل عن الإضرار والإيذاء؛ فلم يعد المرء يفكر فى المعنى المجازى لقولنا : influer sur (يؤثر على) أو « يتوقف على » dépendre de . ولكن المجازات التى لا نزال نشعر بأنها مقارنة لما كانت قائمة على تشابه سطحى جداً يقتصر عادة على لمحة وحيدة ،

يمكن أن تزيف الحقيقة الواقعية باغرائها على مد المشابهة إلى ملامح أخرى . وأشد المجازات خطورة هى تلك التى تتعلق بمجموع من العلاقات المضمنة تحت اسم موضوع مادى : حجرى ، بناء (تركيب اجتماعى) أو كائن حى (الجماعة إذا شبهت بكائن عضوى) . فعن هذا الطريق تتولد كائنات خيالية ؛ يضيف إليها المرء أفعالا وأفكاراً ودوراً . والأمر كذلك فى سلاسل الوقائع منظوراً إليها كأنها حادث (حركة الإصلاح الدينى فى أوربا الحديثة ، الثورة الفرنسية) ، أو سلسلة من الأشخاص (الملكية ، والكنيسة ، والدولة) . بل يذهب الناس إلى حد أن يقولوا : شاءت المصادفة .

وأبعد أقسام التاريخ عن إثارة الجدل والتشكيك هو توالى « نتائج » الأفعال بالمعنى الواسع للكلمة ، وهى على كل حال غالباً ما تكون مختلفة كل الاختلاف عن مقاصد فاعليها .

إن هذه النتائج هى التى تغير أحوال الحياة ، فتقضى على القديمة وتنشىء الجديدة . والمظاهر الخارجية للعواطف والأفكار التى تؤلف مادة التواريخ الخاصة هى جزء من هذه النتائج . وهذا هو مجال التفاهم بين المؤرخين . لكن لا مندوحة عن الاختلاف : (أولا) حول جميع وقائع الحياة الباطنة ، لأننا نجهل قوانينها ؛ و (ثانياً) حول كثرة وقوع الأفعال (وتبعاً لهذا الاتفاق مع القواعد وألوان العرف) وحول نصيب كل فعل فى نتيجة ما من النتائج . ذلك أن التاريخ لا يملك أية عملية لقياس كثرة وقوع ظاهرة وأهميتها ؛ والإحصاءات والمتوسطات الحسابية ليست مقاييس .

وها أنذا أدع القلم فأمسكه عن الاستمرار فى هذا الموجز الذى قد أصبح مسهباً ، وقد أخر تحريره إرسال رسالتى هذه إليك بغير موجب . ومع ذلك فان شاقك فى وسعى أن أتمه ، فيما يتصل بالبند (٣) : الاحتياطات ضد المجاز ، رد كل علاقة إلى أفعال . . . (كلمة غير مقروءة) . — الفعل المتبادل بين أنواع النشاط المختلفة ، التضامن (الارتباط Zusammenhang) . — وهم زعم القدرة على النفوذ إلى المجموع (Gesammt) عن طريق العيان المباشر ؛ فان المجموع لا يمكن أن يعرف قبل جمع الأجزاء ، وهذه لابد أن تكون قد درست من قبل .

عبد الرحمن بدوى

سيرة الأستاذ جوذر

تصنيف أبى على منصور العزيزى الجوذرى

تقديم وتحقيق الدكتورين محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة

(دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٥)

المكتبة العربية ترحب بهذا النص التاريخى الخاص بالدولة الفاطمية وأيامها فى تونس ، ولأبى على الجوذرى مصنف هذا الكتاب وأمين الأستاذ جوذر ، شكر المعنيين بالمراجع الأصلية للتاريخ الفاطمى فى هذا الدور التونسى . وللدكتورين محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة شكر الباحثين فى مطويات هذا التاريخ ، بما قاما عليه من نشر هذا الكتاب نشراً علمياً جيداً من نسختين مخطوطتين ، مع تقديمه بمقدمة تعريفية ،وتحشيته بتعليقات توضيحية ، فضلا عن فهرس أبجدى عام يستطيع القارىء الاستعانة به عند الحاجة العابرة ، مع العلم بأن القيمة الدفينة فى هذا الكتاب لا تظهر إلا بعد قراءته كله فى إمعان .

وعنوان الكتاب لا ينم فى الواقع عن محتوياته النادر وجودها فى غيره ، إذ ليست هذه المحتويات سيرة رجل شهد الدولة الفاطمية منذ أيام نشأتها الأولى على يد عبيد الله المهدى إلى أيام انتقالها إلى مصر أيام المعز ، بل هى سلسلة من الرسائل التى تبادلها الخلفاء الفاطميون والأستاذ جوذر فى بعض مسائل الحكومة الداخلية والقصر والأسطول وشئون السياسة الخارجية . وتستطيع هذه المحتويات تجاوزا أن تسمى سيرة ، من حيث أن المصنف أبى على الجوذرى رتبها ترتيباً تاريخياً لتنبىء هى عن شخصية أستاذ فاطمى وأخلاقه ومكانته ، دون أن يعلق عليها أو يشرح أسباب كتابتها إلا بقدر ضئيل ، متوخياً فى ذلك فيما يبدو شيئاً من الموضوعية اللبقة اللازمة لأمين حين يدون أخبار مخدومه عن طريق الرسائل الوثائقية الخاصة التى وصلت إليها يده .

والأستاذ جوذر صقلبي الأصل من أواسط أوربا ، جاء إلى تونس عن طريق الرق الأوربي الأبيض الذى اتجر فيه يهود العصور الوسطى مع أرباب الدول الإسلامية الغنية بشمال أفريقية ومصروالشام . واتفق مجيء جوذر إلى تونس والدعوةالفاطمية فى أول أمرها ، ودولة الأغالبة فى أواخر أيامها، على مسرح التاريخ . وسواءأكان جوذر من مماليك الأغالبة المتأخرين، أم أنه من مشتريات عبيد الله المهدى الفاطمى ، فالمعروف أن عبيد الله ترسم فيه نجابة وفطانة ، فلم يلبث أن عينه مؤدباً لابنه أبى القاسم ، ووهبه له (ص ٣٥ — ٣٦) . ولم يكن جوذر صقلبياً وحيداً بين عبيد الفاطميين ، إذ المعروف أن الفاطميين استجلبوا كثيراً من الصقالبة ، الذين ما لبثوا أن عتقوا وصاروا يملأون وظائف الدولة الفاطمية . ومنهم جوهر الكاتب الملتصق اسمه بفتح مصر ، وسرور ، وصافى ،شفيع ، وريان ، وقيصر ، وأفلح ،وكلهم معروف بنسبته إلىأصله الصقلبى .

وظل جوذر على وظيفته المسئولة مدة طويلة تأدب فيها عليه أولياء العهد فى الدولة الفاطمية ، من أبى القاسم حتى المعز . وصار كل من أولئك خليفة ، وحفظ كل منهم لجوذر مكانته عنده ، فبقى قريباً من أخبار البلاط الفاطمى قرباً جعله قادراً على أن يقف من أهل القصور الفاطمية وحرم الخلفاء الفاطميين موقف الأستاذ المؤدب المسموع الكلمة (ص ٩ — ١٠ من المقدمة) . وتولى جوذر فضلا عن هذه الأستاذية الكبيرة عدة وظائف ديوانية كبيرة كذلك ، حتى صار مثابة الوزير الأكبر فى الدولة الفاطمية الناشئة ؛ ومن هذا وذاك تتضح قيمة الوثائق الواردة فى هذا الكتاب الصغير ، ويستطيع القارىء بين سطور هذه الوثائق أن يهتدى إلى بعض أركان السياسة الفاطمية ووسائلها ، وأن يتعرف على بضع نواح مجهولة فى شخصيات الخلفاء الفاطميين الأولين (انظر مثلا خطبة الخليفة المنصور بإعلان وفاة أبيه القائم ص ٥٥ — ٦٠) .

على أن الأهمية الكبرى لهذا الكتاب تتركز فيما يستدل منه على شخصية المعز الذى تم على يديه فتح مصر (ص ٧٢ ، وما بعدها) ، ولاسيما ما ورد فى بعض الرسائل المتبادلة بين الخليفة وأستاذه من إشارات إلى أحلام بعيدة رامية

إلى التوسع الفاطمى بعد مصر إلى مكة وبغداد (ص ١١١ ، ١٣٧ ، ١٣٩) . غير أن جوذر لم يعش ليرى بعينه شيئاً من محاولات تحقيق هذه الأحـلام الإمبراطورية ، بل إنه لم ير مصر بعد فتحها ، إذ رافق ركب الخليفة المعز نحو مصر ، وفى عزمه فيما يبدو أن يستقر بالعاصمة الفاطمية الجديدة ، أى القاهرة ، ولكنه توفى فى الطريق ببرقة سنة ٩٦٩ م (ص ١٤٣ — ١٤٨) . غير أن الذى يدعو إلى الالتفات هنا أن اسم جوذر وصل إلى القاهرة ، دون أن يصل هو إليها جسمياً حتى بعد وفاته ، بل إن اسمه لا يزال باقياً بها حتى العصر الحاضر فى حى وشارع وحارة وعطفة تحمل كلها اسم الجودرية (بالدال ، نسبة إلى جوذر بعد شىء من تمصير النطق) وهى أمكنة تموج بالتجارة القاهرية الرابحة منذ العصور الوسطى . هل معنى هذا أن الأستاذ نقل أمواله إلى القاهرة وأنه اعتزم الإقامة بها على مقربة من طلعة الخليفة المعز ، برغم ما شاع وقتذاك من تقرير الخليفة تعيينه نائباً عنه بالمغرب ؟ أم هل معناه أن أتباع جوذر انتقلوا بعد وفاته إلى القاهرة ، وصار لهم شأن فى حياتها الاقتصادية أو السياسية أو الدينية ، بحيث أصبح لهم حى وعقار وأملاك ثابتة فى جزء من أهم أجزاء القـاهرة الفاطمية ؟ أم هل معناه أن الأستاذ خلف أسرة عاشت وغنيت فروعها بالقاهرة ؟

ومن الجديد فى هذا الكتاب إشارات إلى اشتغال بعض أولياء العهد فى الدولة الفاطمية بالتجارة الخاصة ، واشتغال جوذر وغيره بالأعمال التجارية ، بالإضافة إلى توليته وظائف الحكم بين الناس (٦٢ ، ٦٩) ، وهى إشارات توجد أمثالها فى عصور سابقة ولاحقة ، وهى فى مجموعها أصل لما كتبه ابن خلدون فى الأضرار والمفاسد التى تلحق بالمجتمع من اشتغال أرباب الدولة بالبيع والشراء والكسب التجارى (انظر مقدمة ابن خلدون — بولاق — ص ٢٣٤ — ٢٣٦) . ومن الجديد فى هذا الكتاب كذلك نهى الناس ومنعهم من إطلاق البكاء والنوح فى الوفيات (ص ٤٣ ، ١٠٠) ، واعتبار سلمان الفارسى من الأئمة الفاطميين (ص ٦٥) ، وتفاصيل بعض الطريق من المهدية إلى القاهرة (ص ١٤٣) ، وهذا فضلا عن صفيف زاخر من الألفاظ الاصطلاحية التى تستطيع أن تملأ فراغاً فى معجم المفردات اللازمة للبحوث التاريخية الحديثة ،

ومثال ذلك من الألفاظ المعتصمين ص ٤٣ ، خفيفة سفرية ص ٤٧ ، دنانير رباعية ص ٦٠ ، المرصدين ص ٧٠ ، التمريث ص ٨٩ ، السكاك ص ٩١ ، الفرانقين ص ٩٩ ، الزانات ١١٣ ، العدوات ١١٤ ، وغيرها . وللناشرين شكر ثان للعناية بشرح معظم هذه الألفاظ فى قائمة التعليقات فى آخر الكتاب .

محمد مصطفى زياده

ثلاثة كتب

(1) Louis Halphen : Initiation aux Etudes d'Histoire du Moyen Age. 3e. Ed., revue, augmentée et mise à Jour ; par Y. Renouard. Paris, Presses Universitaires de France, 1952. 205 pp.

(2) Pertold Spuler & Ludwig Forrer : Der Vordere Orient in islamischer Zeit. Bern, Franke Ag. Verlag, 1954.
"Institut de recherche et d'histoire des textes"

(3) Armando Sapori : Le marchand Italien au Moyen Age. Conférences et bibliographie, introduction de Lucien Febure. Paris, Armand Colin, 1952.
Storia Economica Medievale

لكتب البيليوجرافيا فضل كبير على الطلاب والباحثين سواء ؛ لأنها تتيح الفرصة لمعرفة ما أخرجته المطابع من المصادر والبحوث ؛ فضلا عما تضمه خزائن الكتب من كنوز خطية . ولهذا كانت عناية الغرب بكتب البيليوجرافيا بعد أن تشعبت الدراسات التاريخية ، وازداد نشاط الباحثين فى ميادينها المختلفة .

والكتاب الأول كتبه عملاق من عمالقة صناعة التاريخ فى فرنسا فى عصرنا هذا . وقد طبع ثلاث طبعات ، كانت الأولى سنة ١٩٤٠ . ثم كانت الثالثة سنة ١٩٥٢ ، بعد وفاة المؤلف : لوى هالفين ، فقام على إعدادها تلميذ من قدامى تلامذته هو رنوار ، عميد كلية الآداب بجامعة بردو سابقاً . وقد أوضح المؤلف فى مقدمة الطبعة الأولى لكتابه أن علم التاريخ لم يظفر فى وقت من الأوقات بما يظفر به الآن من جدل ودراسة . كما أن تقدم الدراسات التاريخية ، كغيرها من فروع العلوم الأخرى ، لم يتحقق إلا بعد أن أخذ العلم يتخلص تدريجياً من كل المؤثرات التى تحول دون اشتغال الباحث بالسعى للوصول إلى الحقيقة .

قصد هالفين من كتابه هذا أن يقدم للمقبلين على دراسة تاريخ العصور الوسطى مرشداً يعاونهم على تحقيق هدفهم . وتلمح فى الكتاب ذكاء العقلية

الفرنسية فى التصنيف ، كما تلحظ جهد المؤلف فى العرض والإيضاح موجزاً مختصراً . وهو يتدرج مع الطالب من الكتب العامة التى رسخ قدمها واستوجب على الجميع الرجوع إليها لأنها لا تمثل فكر أصحابها فحسب ، بل لأنها تمثلت أيضاً ما سبقها من بحوث ومناهج ، وعالجت المعالم الرئيسية التى تهيىء لجمهور المثقفين فضلا عن المتخصصين سبيل الإفادة منها . ثم يتدرج هالفين بعد ذلك إلى استعراض مجموعات الوثائق الكبرى وينتهى بالطالب إلى البحث فى المكتبات الكبرى وفى أقسام المخطوطات بها للظفر بالمادة التاريخية الضرورية لمن أراد معالجة مشكلة من المشاكل أو مناقشة نظرية من النظريات أو إماطة اللثام عن وجهة نظر تاريخية لم تنل حظها من البحث أو لم تسترع انتباه أحد من قبل . وكل هذه فرص متاحة للباحثين ؛ متجددة دائماً .

ويحملنا ما ضمه الكتاب من بيانات ومعلومات على إطالة التأمل والنظر فيه ، وبخاصة فى القسمين الثانى والثالث منه حيث بذل المؤلف قصارى جهده كيما يتيح لقرائه تكوين صورة واضحة المعالم عن أهم ما يحتاجون إليه من عدة هى أساس ضرورى لصناعتهم . فهو يسعى إلى توضيح كل الإمكانيات الخاصة بجمع مادة البحث ؛ ويقدم للباحثين الهيئات التى يمكن أن تعاونهم فى هذه المرحلة الدقيقة فى عملهم . من ذلك كلامه عن أحد المعاهد التى أنشأها المركز القومى للأبحاث العلمية فى فرنسا ، وهو المعهد المعروف باسم "Institut de recherche et d'histoire des textes"[1] والذى يقدم خدمة جليلة لكل باحث لأنه يسعى إلى جميع الوثائق والنصوص الأدبية القديمة والوسيطة وتصويرها بالميكروفلم ؛ سواء أكانت هذه الوثائق والنصوص فى فرنسا أو فى غيرها من البلاد .

فاذا انتهى الباحث من بحثه كان عليه أن يقدمه طعاماً سليقاً شهياً لقرائه . يمتاز بالوضوح فى عرضه والوضوح فى نتائجه . وهذه مشكلة المشاكل وهدف كل بحث تاريخى وهنا يختم المؤلف كتابه بقوله أنه يرجو أن يجد من انقطع للدراسات الوسيطة ، يجد فى هذا المجلد الصغير وسيلة لتجنب بعض الأخطار

---

(١) عنوان هذه المؤسسة : Paris (3e) 87, rue Vieille-du-Temple .

التى غالباً ما ينزلق إليها الباحث فى بدء حياته . وإنه ، كمؤلف ، يعرف كيف أن شرح الأحكام والقواعد العامة أسهل بكثير من تطبيقها .

* * *

أما كتاب الأستاذين شبولر وفورير فيتناول الكلام عن المصادر والبحوث الخاصة بشعوب الشرق الإسلامى سواء أكانوا عرباً أم فرساً أم تركاً . وقد اختص الأستاذ شبولر بالعالم الإسلامى فيما عدا تركيا التى انفرد زميله بعرض مصادرها . والخطة الأساسية فى تأليف الكتاب هى استعراض ما صدر من البحوث الخاصة بهذه الدراسات فى الشرق والغرب ، فضلاً عما أصدرته مختلف المكتبات ودور النشر من المصادر الأصلية ثم الإشارة إلى مدى أهمية تلك البحوث كلها ، والتعرض لمواضع الجدل فيها ، وللنقط التى استرعت انتباه المؤلفين فأطنبوا فى دراساتها ، وكذلك الإلماع أحياناً إلى موضوعات لم تنضج دراساتها ولم تنل حظها من البحث والتحقيق .

ولذلك كله كان الاختلاف بيّن بين هذا الكتاب وبين كتاب سوفاجيه[١] . فكتاب سوفاجيه قصد به أن يتيح للمبتدئين فى تاريخ الشرق الوسيط ما يجب أن يبدأوا بدراسته والرجوع إليه حتى يعجم عودهم ويشتد ساعدهم . أما كتاب شبولر وفورير فيرجعون إليه بعد أن يمروا بهذه المرحلة الأساسية ويدخلوا ميدان البحث والتأليف .

ولاتساع نطاق الجزء الذى انفرد به الأستاذ شبولر ، فقد اجتهد فى تقسيمه حتى ييسر للقارىء الرجوع إلى ما يشاء من المؤلفات . بدأ المؤرخ بالكتب أو المقالات الخاصة بالكتالوجات والفهارس والببليوجرافيا ، مستعرضاً أسماء مؤلفيها وموضوع كل منها وسنة طبع الكتاب أو المقال ومكان طبعه ؛ وهذه المعلومات قاعدة عامة تمسك بها المؤلفان فى كل كتاب . بعد ذلك هدى القارىء إلى أهم المصادر الخاصة بالفيلولوجيا سواء فى محيط الدراسات السامية أو الإيرانية أو التركية أو المغولية . ثم تناول بعد ذلك الدراسات الجغرافية

---

(١) J. Sauvaget : Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, Paris, 1946.

وتقويم البلدان وطرق المواصلات . وهذه كلها مداخل رئيسية لدراسة بلاد الشرق المختلفة التى عالجها الكاتب . كما عنى بعد ذلك عناية خاصة بكتب الرحلات ، ثم انتقل إلى الكلام عن مصادر التاريخ الدينى فاستعرض مصادر التاريخ الإسلامى ثم التشريع الإسلامى ، ثم تناول بعد ذلك تاريخ المسيحية فالزرادشتية وغيرها . وأتبع الأديان بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى والنظم . ثم عرج بعد ذلك على أهم ما أصدرته المطابع فى تراجم كبار شخصيات العصر ، وبعد ذلك استعرض دراسات التاريخ العسكرى والحربى ، فالدراسات الخاصة بأهم ما أصدره المؤلفون فى محيط العلوم المساعدة للتاريخ ، وبخاصة النميات .

تلى ذلك مؤلفات الأدب العربى ، فالفارسى ، فالتركى فى أواسط آسيا . ثم كتب الفلسفة والموسيقى والعلوم الطبيعية والطب وتاريخ العلوم . وأتى فى خلال هذه التقسيمات العامة تقسيمات فرعية متعددة . وقد يفلت من المؤلف ، فى خلال هذا الحشد من المصادر المتعددة الجوانب والشعاب ، زمام السيطرة على تقسيمه . من ذلك أنه وضع مقال الأستاذ فيشيل عن الكارمية فى القسم الذى خصصه للدراسات اليهودية . والكارمية لم يكونوا يهوداً ، بل على العكس من ذلك كانوا مسلمين أولا وآخراً . وفى الوقت نفسه لم يشر المؤلف فى هذا القسم إلى رحلة اليهودى بنيامين التطيلى (١) وهى من أهم المصادر عن الجاليات اليهودية فى الشرق الإسلامى إن لم يكن فى حوض البحر المتوسط كله . ولكن مثل هذه الملاحظات لم تضعف من قيمة الكتاب أو أهميته . فانك تلمس فى كل أقسام الكتاب المتشعبة جهد المؤلف واهتمامه أن يختار لقارئه أهم ما كتب فى كل موضوع تعرض له . والاختيار فى حد ذاته مشكلة عسيرة صعبة وبخاصة فى مجال هذا الكتاب المتسع الرحيب : ولذلك فاته أحياناً كتب أو مقالات كانت أيضاً جديرة بالإشارة إليها . وقد أحس الأستاذ شبولر بهذه المشكلة فصدر كلامه بالإشارة إلى أهمية كتاب بروكلمان بالنسبة للآداب الإسلامية وكتاب جراف

---

(١) رحلة بنيامين بن يونة التطيلى . نقلها إلى العربية عن الأصل العبرى عزرا حداد . بغداد سنة ١٩٤٥ و Benjamin of Tudela : The Itinerary of Benjamin of Tudiela Ed. M.N. Adler. Oxford, 1907.

بالنسبة للآداب المسيحية ، موضحاً أنهما أداة ضرورية لا غنى عنها للباحث . والواقع أن كتاب شبولر هذا يعد تكملة لكتابى الأستاذين بروكلمان وجراف لأنه تناول ما طبع منذ سنة ١٩٣٥ إلى ١٩٥٤ على وجه التقريب . وقد ذكر المؤلف أيضاً أن العلاقات العادية خلال الحرب والفترة الدقيقة التى مرت بها ألمانيا بعد انتهاء الحرب مباشرة لم تتح للمكتبات الألمانية اقتناء جميع ما أصدرته المطابع فى تلك الرقعة الرحيبة التى تناولها الكتاب ؛ وبذلك تعذر على المؤلف الوصول إلى ما صدر فيها من كتب وأبحاث .

وافتقار الكتاب إلى المصادر والأبحاث التى صدرت فى العالم العربى ، ملاحظة تنطبق أيضاً على القسم الثانى الذى اختص بالتاريخ العثمانى والجمهورية التركية من هذا الكتاب الذى نحن بصدده . قسم الأستاذ فورير هذا الجزء إلى تاريخ سلاطين آل عثمان ثم الولايات العثمانية ثم مصادر كتبت عن التاريخ الاقتصادى والاجتماعى أو اهتمت بجوانب خاصة منه كالأحوال المالية أو الصناعة أو أحوال المسيحيين وكنائسهم ورياساتهم المختلفة فى ظل الحكم العثمانى .

وقد صدر الأستاذ فورير كلامه بكتب الببليوجرافيا والمصادر التى تتناول قسمه من الكتاب ثم الإشارة بعد ذلك إلى دور الأرشيفات التركية وحدها وما صدر من المؤلفات الخاصة بها . ومع ذلك فليس يخفى أن دور الوثائق التركية ليست هى المنبع الوحيد للوثائق التركية ، فلازالت كثير من دور الوثائق فى العالم تحتفظ بوثائق تركية لم تر النور بعد ، وبخاصة دور وثائق حوض البحر المتوسط ، وأذكر على سبيل المثال أن أرشيف الدولة فى البندقية يملك مجموعة متكاملة متصلة الحلقات من الوثائق التركية تنتظر باحثاً ينهض بدراسة العلاقات العثمانية البندقية من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر م ؛ وسيجد فى هذه المجموعة ثروة ومعيناً جديرين بالبحث والفحص .

***

والثالث كتاب من الكتب الطيبة التى أنتجها علماء الغرب فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للعصور الوسطى . مؤلف الكتاب مؤرخ من كبار مؤرخى إيطاليا ، إن لم يكن من كبار مؤرخى العالم فى التاريخ الاقتصادى

الوسيط . إنه الأستاذ أرماندو سابورى أستاذ التاريخ الاقتصادى بجامعة فلورنسا ومدير جامعة لويجى بوكونى التجارية بميلانو .

وقد أتيح لى أن ألتقى بهذا العالم وأن أراه عن كثب ، فوجدت فيه مؤرخاً يعمل ليل نهار ويقوم الآن باعداد الطبعة الثالثة من الكتاب الإيطالى المشهور : Storia Economica Medievale . ثم أتيح لى أن أستعرض قائمة مطبوعاته التى أخرجها فى مجال التاريخ الاقتصـــادى فاذا بها تربى على مائة وخمسين مطبوعاً ؛ منها الكتاب الضخم ، ومنها المقال فى المجلة العلمية لمعالجة مشكلة تاريخية واقتصادية أو عرض كتاب ونقده ، وكلها تعطينا صورة واضحة المعالم عن الرجل وجهده واجتهاده . وتكشف لنا فى نهاية الأمر عن طول نفسه فى البحث والإنتاج وتجلو لنا كيف أن عمله الرسمى ووصوله إلى منصب مدير جامعة لم يحل بينه وبين تأدية رسالته وواجبه الأساسى ؛ أعنى البحث والنشر .

والكتاب مقسم إلى قسمين : القسم الأول عبارة عن أربع محاضرات ألقاها المؤلف فى باريس سنة ١٩٤٨ ، وموضوعها التاجر الإيطالى فى العصور الوسطى .

تناول سابورى فى المحاضرة الأولى تحديد هيئة التاجر الأساسية ؛ فتكلم عن نظرة التاجر الإيطالى لوطنه ثم دين ذلك التاجر ثم ثقافته . أما المحاضرة الثانية فخلصت الكلام عن هؤلاء التجار الإيطاليين فى ميدان العمل . وكانت أهم النقط التى تناولها بالبحث ، رءوس الأموال ، والتجارة العالمية ثم طرق المواصلات ، فسلع التجارة العالمية . وموضوع المحاضرة الثالثة : الإيطاليون فى العالم الوسيط . استعرض فيها الشكلين الأساسيين لأوربا الوسيطة ؛ أوربا البرية وأوربا البحرية . ثم أوجز الكلام عن الفتح العربى ، وإيطاليا والصليبيين ، وإيطاليا والتوسع الإيطالى ؛ وكلها نقط اتصلت إتصالا وثيقاً بكفاح التاجر الإيطالى ونشاطه وهو نشاط أساسه ولبه وتطوره : الإتجار ونقل السلع والمغامرة فى سبيل الكسب ، وما اكتنف ذلك من جهد وتضحيات وما ترتب عليه من إعلاء مركز إيطاليا فى جميع أسواق العالم التى وفدوا عليها أو المفتوحة أمامهم أو المغلقة التى غامروا للوصول إليها . ثم يختم الأستاذ سابورى هذه المحاضرة

بتبيان مركز الإيطاليين فى أوربا بين نهاية القرن الرابع عشر ونهاية القرن الخامس عشر للميلاد .

والمشكلة الأساسية التى لمعت فى هذه المحاضرات الثلاث هى مناقشة أراء فرنر زومبارت فى نشأة الرأسمالية[1] وما اكتنف هذه النشأة من صعاب سواء ما كان متصلا بالاقتصاد الوسيط وطبيعة المعاملات القائمة فيه أو ما كان متصلا بالدولة والدين والمواصلات وغير ذلك . ثم تبيان ما قام به الإيطاليون للتغلب عليها وبذلك وفق فى إبراز كفاح الإيطاليين إبان ميلاد هذه المرحلة من تاريخ العالم الاقتصادى . ونقض فى الوقت نفسه كثيراً من آراء زومبارت ونقدها . وغنى عن البيان أنه لم يكن من السهل على زومبارت أن يوفق إلى ما وفق إليه سابورى لعدم توفره على دراسة الوثائق الإيطالية الوسيطة وهى من المنابع الرئيسية لدراسة نشأة الرأسمالية والكشف عن غوامضها . وقد يكون من الضرورى أن يذكر أن ما وجه إلى دراسات زومبارت من نقد وبخاصة أرائه فى أصول الرأسمالية ونشأتها فى العصر الوسيط لا ينبغى أن ينسينا أن زومبارت كان من أوائل من عالجوا هذا الموضوع الشائق العسير الذى لن تكتمل دراساته إلا بعد بحوث اقتصادية تاريخية طويلة ، لا تتناول أوربا وحدها بل العالم كله كما كان معروفاً فى العصر الوسيط .

أما المحاضرة الرابعة والأخيرة فموضوعها مصادر هذه المحاضرات وهو موضوع لا يقل خطراً وشأناً بالنسبة للطالب أو الباحث عن المحاضرة فى التاريخ الاقتصادى الوسيط . وقد قال سابورى إننا نستطيع أن نجمع الوثائق الخاصة بالتاريخ الاقتصادى الإيطالى الوسيط فى الأقسام التالية ؛ نصوص تشريعية ، كتب الموثقين ، كتب التجارة والتجار ومراسلاتهم ، ثم كتب الحوليات .

ومن واجبنا أن نقارن بين هذا التقسيم وبين وثائقنا العربية فى نفس هذا الموضوع . فبالنسبة لنصوص التشريع : فاننا نملك مجموعات طيبة من هذا الطراز من الوثائق . فالفقه كان مجالا خصباً للبحث والتأليف والاجتهاد . وإذا كانت كتب التوثيق الإسلامى لم تلق العناية الكبيرة من جمهور الناشرين إلا أن

(1) Werner Sombart : Der Moderne Kapitalismus, 6 vols. Munchen, 1921-28.

الباحث لا يعدم الرجوع إلى مخطوطات عديدة تناولت بالعرض والشرح هذه الناحية الطيبة من مجالات الدراسات النظرية والعملية للتشريع الإسلامى . كما يلحظ نشاطاً كبيراً فى هذا المجال بين فقهاء القبط أيضاً . ولكن من المهم أن يذكر أنه ليس من السهل العثور على عقد شركة تجارية فى مصر فى العصر الوسيط إلا أن كتب التوثيق العربية تقدم لنا نماذج لكتابة العقود المختلفة بحيث تكون مستوفاة غير مشوهة أو منقوصة . والواقع أن مثل هذه النماذج تفتح أمامنا آفاقاً جديدة لدراسة النظم القضائية وإجراءاتها وسبل التعامل ومدى تطبيق الشريعة الإسلامية فى المجتمع المصرى أو الإسلامى عامة ، فضلا عن تناولها التداول التجارى فى أنواع عدة من السلع ومراكز إنتاجها أو وصف الكثير من العدد والآلات المعروفة فى ذلك العصر بطريقة عارضة فى أثناء كتابة العقود وغير ذلك من المعلومات التى لا سبيل إلى العثور عليها أو استكمال فهمها من المصادر المتداولة عن تلك الفترة من تاريخنا .

وإذا كانت الكتب التى خلصت للكتابة عن التجارة قليلة وأهمها رسالة الجاحظ فى « التبصر بالتجارة » وكتاب جعفر بن على الدمشقى فى « محاسن التجارة » ؛ إلا أن مراسلات التجار المصريين ودفاترهم ومدوناتهم فى العصور الوسطى تكاد تكون فى حكم المفقودة حتى اليوم . وقد تساعد كتب الحيل على تعرف لون من ألوان جهد التجار واجتهادهم وتحايلهم للتخلص من فروض الشرع وأعبائه فى بعض مجالات نشاطهم وحياتهم العملية ، إلا أن هذه الكتب أيضاً لا تغنى بأية حال من الأحوال عن النظرة الواقعية المتكاملة التى يمكن أن يخرج بها الباحث من وراء مراجعة دفتر من دفاتر التجار حيث يدون كل تاجر حركة متجره ويتضح بذلك مدى نشاطه وطاقته المالية بأرقام وأسماء كانت خير عون لسابورى وغيره فى تقدير القيم الحقيقية للتجارة الأوربية الوسيطة . وانعدام وجود مراسلات تجارنا ودفاترهم الوسيطة حتى اليوم مشكلة وعرة تواجه باحث التاريخ الاقتصادى الوسيط فى منطقة الشرق الإسلامى .

أما كتب الحوليات فهى وفيرة لدينا ، وإن كان هناك فرق واضح بين حولياتنا الشرقية وبين حوليات المدن الإيطالية أو غيرها من المدن الأوربية

التجارية فى حوض البحر المتوسط . فحوليات تلك المدن أكثر احتفالا وعناية بشئون التجارة والتجار ومن أصحابها من كان ينتسب إلى عائلات تجارية كبيرة أو من كان مشتغلا هو نفسه بالشئون التجارية . أما حولياتنا فأكثر احتفالا بشئون الملك وأحداث العصر وما اتصل بهما بوجه خاص .

وإذا تكلمنا بعد ذلك عن القسم الثانى من الكتاب ، فأول ما يستوقف النظر أنه إنتاج ببليوجرافى من الطراز الأول . يقع هذا القسم فى مائة وخمسة عشر صفحة . ويقدم للقارىء ، تفصيلا ، مجموعات من المصادر والمقالات التى ظهرت وتناولت الكلام عن النقط الاقتصادية الهامة الواردة فى هذه المحاضرات . أما بالنسبة للنقط الجانبية لموضوع محاضراته فيسجل سابورى للقارىء اسم الكتاب أو الكتب التى يفضل الرجوع إليها لتكوين ثبت كامل بمنابعها التى استنبطت منها .

ومن طريف هذه المجموعات، مجموعة من المصادر تحت عنوان Mude(١) انفردت ببعض المصادر التى يرجع إليها فى موضوع الطرق والمواصلات بين إيطاليا والعالم الوسيط(٢) . والواقع أن كلمة Mude هذه كلمة عربية الأصل . هى لفظة « مدة » العربية . انتقلت إلى إيطاليا وأصبحت اصطلاحاً متداولا ومعروفاً فى كتب التجار ومراسلاتهم أو غير ذلك من المكاتبات الرسمية . والأصل فى انتقال هذه الكلمة ، فيما أرجح ، أن التجارة البحرية فى البحر المتوسط كانت موقوتة فيه بمدة معينة(٣) . ففى العادة كان هناك موسمان للملاحة سنوياً، ويقعان فى الربيع والخريف . والموسم الملاحى يسمى مده Mude أو (Muda) ويبدو أن هذه الكلمة كانت أيضاً اصطلاحاً مرناً يطوى معانى عديدة : فهو يدل أحياناً على الأسطول التجارى أو القافلة البحرية ، وأحياناً أخرى يدل

---

(١) Armando Sapori : Le marchand Italien au Moyen-Age pp. 68-69 .

(٢) تداول كثير من مؤرخى الغرب استعمال هذه الكلمة كما وردت فى الوثائق وكثيراً ما كتبوها فى مؤلفاتهم بحروف ماثلة دلالة على غرابتها وعدم تعرفهم على أصلها .

(٣) راجع ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين (نشر عطيه) ص ١٤٧ – ٢٤٨ وخطط المقريزى (بولاق) جـ ٢ ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

على الفترة القانونية التى لا يصرح للسفن بعدها بالشحن والسفر . كما يستعمل أيضاً للدلالة على موسم العمل والنشاط التجارى الذى يتم فيه عقد الصفقات وإنجاز الإتصالات التى تتطلبها(1) .

والمهم بعد ذلك من وجهة النظر الشرقية أن عمق الصلات التجارية بين الشرق والغرب فى البحر المتوسط قد أدى إلى انتقال هذه الكلمة العربية إلى الغرب وعاشت هناك اصطلاحاً تجارياً فنياً ، لا مجرد كلمة تدل على الزمن بمعناها العربى الأصلى المحصور فى هذا المجال .

ومن هذا العرض كله : يتضح لنا أن كتاب سابورى يحملنا على تقديره ؛ تقدير مؤرخ أفنى حياته فى البحث والدرس والتأليف حتى استطاع أن يقدم لنا هذه المحاضرات الواضحة الشائقة ، ومنابعها المتعددة الجوانب والموضوعات .

صبحى لبيب

(1) F.C. Lane : Andrea Barbarigo, Merchant of Venice (Baltimore, 1944) pp. 62-64, 102, 106, 107, 108, 111, 145, 171, 190.

الوثائق الفاطمية

مصادر جديدة لدراسة تاريخ الفاطميين

انعقد بجامعة بشاور بجمهورية باكستان مؤتمر للدراسات العربية والاسلامية فى ابريل سنة ١٩٥٤ ، وحضره الدكتور محمد جمال الدين الشيال الأستاذ المساعد للتاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية واشترك فيه بهذا البحث الجديد .

بينما تعتمد الدراسات التاريخية الحديثة فى أوربا اعتماداً كبيراً على دور الوثائق وما تضمه هذه الدور من مجموعات قيمة تعتبر بحق المصدر الأول لكل مؤرخ يريد أن يقيم بحثه على أسس علمية سليمة . نجد أن طلاب التاريخ الإسلامى والباحثين فيه تعترضهم دائماً صعوبة كبرى وهى فقدان هذه الدور وندرة هذه الوثائق .

فالمؤرخ الأوربى للعصور الوسطى يجد دائماً بين يديه كميات وافرة من الوثائق التاريخية التى تتناول شئون الدولة العامة أو المحلية فى مختلف نواحيها السياسية والإدارية والمالية والقضائية والدينية (١) . أما الباحث فى تاريخ دول الشرق الأوسط الإسلامية فيجد نفسه مضطراً إلى الاعتماد دائماً على المراجع الأدبية والتاريخية ولهذا تخرج آراؤه فى الغالب عامة غير واضحة لأن هذه المراجع تعتبر ثانوية إذا قورنت بالوثائق الرسمية وهى إلى هذا تعبر فى معظم الأحوال عن آراء كاتبها وهؤلاء بدورهم يتأثرون فى العادة بالصلات التى كانت تربطهم بمن يؤرخون لهم من خلفاء أو ملوك سواء أكانت هذه الصلات صلات ود وصداقة أم صلات كره وعداء . بل أننا لو رجعنا إلى آراء أكثر من باحث

حديث فى موضوع واحد فانا نجدها مشابهة فى معظمها لأن مراجع هذا الموضوع فى الغالب واحدة محددة كما أن نصوصها – على اختلاف العصور التى كتبت فيها – يشبه بعضها البعض الآخر فطريقة المؤرخين الإسلاميين القدامى كانت تعتمد على النقل وعلى النقل الحرفى فى معظم الأحوال فاللاحق ينقل عن السابق ومن هنا كان من الواجب على الباحث المحقق أن يتتبع هذه النصوص إلى أن يصل بها إلى مصادرها الأصلية المعاصرة .

وقد بدأت بعض الأبحاث التاريخية الحديثة تلتفت إلى أهمية مراجع أخرى غير المراجع الأدبية التاريخية فعنيت أخيراً بالنقوش [٢] والآثار وأوراق البردى[٣] والنميات [٤] وقدم الباحثون فى هذه الميادين الجديدة للمؤرخين مادة قيمة جداً استطاعوا أن يستعينوا بها لتوضيح أو لإثبات أو لتصحيح أو لتخطىء كثير من المعلومات التى أتى بها المؤرخون وكتاب الحوليات أو الموسوعات العربية .

ولعل أوراق البردى هى أهم هذه المراجع الجديدة فهى تضم فعلا عدداً من الوثائق الحكومية التى ألقت كثيراً من الأضواء على بعض نظم الحكم العامة للدولة أو المحلية فى المدن والقرى والأقاليم كالجزية والخراج والقضاء والجيش والأسطول . ومع هذا فان أوراق البردى لا تعتبر – فى مجموعها – وثائق رسمية بالمعنى الصحيح لأنها تضم كذلك عدداً من الأوراق والرسائل الشعبية الخاصة التى وإن كانت تلقى هى أيضاً أضواء جديدة على كثير من نظم المجتمع فى العالم الإسلامى فانها تفتقر إلى الصفة الرسمية لأنها لم تصدر عن الحاكمين أو دواوين الحكم المختلفة . يضاف إلى هذا أن الأوراق البردية ليست إلا مجموعات مضطربة من الوثائق لم توجد فى الدور الأصلية لحفظها وإنما وجدت بطريق الصدفة فى أماكن ودفائن مختلفة ثم وزعت أيضاً دون نظام فى أنحاء العالم حيث تقاسمتها المتاحف والمجموعات الخاصة . وبعضها درس دراسة علمية والبعض الآخر لا يزال ينتظر هذه الدراسة وليس بينها من رابطة تجمعها إلا جهود المؤرخين وعنايتهم بها ودراساتهم لمحتوياتها . فى حين أن الوثائق الرسمية تودع دائماً فى دورها وأماكن حفظها لأغراض إدارية لا لأغراض تاريخية وإفادة المؤرخين منها إنما تأتى بطريق غير مباشر – كما أنه مما يزيد فى قيمتها تلاحقها وترابطها

واستمرارها مما ييسر للمؤرخين مهمة البحث العلمى الدقيق ويمكنهم من إصدار أحكام صحيحة تعتمد على إحصاءات كثيرة متتابعة لا على أمثلة فردية قليلة .

والذى يحدث عادة أن أى نظام أو ديوان من نظم ودواوين الحكم كانت تجمع فيه الوثائق الخاصة به الصادرة عنه أو الواردة إليه فاذا ألغى هذا النظام أو توقف عن العمل أو استبدل به غيره فان هذه المجموعات من الوثائق تتعرض دائماً للإهمال أو الضياع أو الاحراق أو التدمير والتخريب . وإذا كانت دول غرب أوربا فى العصور الوسطى هى هى التى ظلت تنمو وتتطور إلى أن كونت دول غرب أوربا الحديثة فان الوثائق الرسمية لهذه الدول ظلت هى أيضاً فى معظمها تتراكم وتتصل لتقدم للباحثين اليوم مادة علمية وفيرة وثيقة . وذلك على العكس من دول الشرق الأوسط الإسلامية فان نظم الحكم فيها تغيرت مع مطلع العصور الحديثة ونتيجة لاتصالها بالغرب الأوربى وتأثرها به فى نظم حكمها وحركاتها الإصلاحية تغيراً أساسياً مما أدى إلى تدمير وثائقها وضياعها (٥) . ورغم إلغاء أو زوال هذه النظم والدواوين فان كثيراً من وثائقها لا يزال موجوداً وموزعاً بعضه فى الكتب والمراجع الأدبية والتاريخية المختلفة وبعضه فى دور الكتب والمتاحف ورغم أن هذه الوثائق ذات أهمية كبيرة جداً فانها مع هذا لا يمكن أن تكون لها نفس الأهمية التى كانت لها وهى محفوظة فى دواوينها وفى أوضاعها الخاصة وترتيبها بين مثيلاتها وفى النظام الأصيل الذى كانت عليه وقت استعمالها .

ولقد كان ديوان الإنشاء (٦) من أهم الدواوين التى عرفتها الدول الإسلامية إن لم يكن أهمها جميعاً . فعنه كانت تصدر جميع المناشير والمراسيم والسجلات والرسائل والأوامر الحكومية وفيه كانت تحفظ صور من هذه الوثائق جميعاً كما كانت تحفظ فيه الرسائل الواردة من ملوك الدول الأخرى والمعاهدات التى كانت تعقد بين الدولة صاحبة الديوان وغيرها من الدول . ومن المؤسف حقاً أن هذه الدور جميعاً قد دمرت وتلاشت نتيجة لتعاقب الدول وللحروب وغارات الجيوش .

وقد لاحظت منذ وكل إلى تدريس تاريخ مصر الإسلامية فى جامعة

الاسكندرية لإحدى عشرة سنة مضت أن هذا التاريخ لا يمكن أن يكتب كتابة صحيحة إذا اعتمد الباحث فيه على المراجع التاريخية وحدها . ولاحظت أيضاً أن المراجع التاريخية والأدبية لازالت تضم بين دفتيها عدداً لا بأس به من الوثائق الرسمية لم يلتفت المؤرخون لأهميتها لقلتها ولأن نصوص الأدب والتاريخ تغطيها وتطغى عليها بل وتكاد تخفيها ولأنها فى هذا التفرق تفقد عامل الوحدة الذى يقرب بينها وبين العناصر التى تضمها كل وثيقة على حدة والتى يمكن أن تقدم للباحث لو أنها جمعت فى صعيد واحد عناصر كل موضوع مجتمعة متوائمة موضحة لما كان يكتنف هذا الموضوع من غموض .

وبدأت أرسم خطتى لجمع كل ما تستطيع أن تصل إليه يدى من وثائق تتصل بتاريخ مصر الإسلامية فوجدتها مجموعة ضخمة تحتاج فى دراستها إلى وقت طويل وجهد كبير ، ولهذا رأيت أن أبدأ بجمع الوثائق التى ترجع إلى العصر الفاطمى وحده آملا أن أعدها للنشر بعد تصنيفها ودراستها دراسة علمية تحليلية مقارنة وكتبت بياناً بهذا المشروع إلى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فدرسته فى لجنتها الإدارية ووافقت على طبع هذه المجموعة الفاطمية على نفقتها وكتبت إلى منذ سنة مضت بهذه الموافقة وانى لأرجو أن أوفق لتقديم القسم الأول من هذه الوثائق الفاطمية إلى المطبعة فى القريب العاجل إن شاء الله .

واستطعت بعد مراجعة أكبر عدد ممكن من المراجع التاريخية والأدبية — المخطوطة والمطبوعة (٧) أن أجمع مائة وعشرة وثيقة (٨) وبدأت فصنفتها إلى مجموعات متخذاً نظم الحكم وألوان الحياة أساساً لهذا التصنيف فجاءت فى النهاية ثلاثة عشرة مجموعة بيانها كالآتى :—

١ — ١٠ وثائق عن نظام الخلافة وولاية العهد .

٢ — ١٣ وثيقة عن نظام الوزارة والوزراء .

٣ — ٩ وثائق عن نظام القضاء والقضاة .

٤ — ٢ وثيقتان عن نظام الحسبة والمحتسبين .

٥ — ١ وثيقة واحدة عن الدعوة ودعاة الدعاة .

٦ ــ ٢٠ وثيقة عن النظام المالى والاقتصادى .

٧ ــ ٩ وثائق عن الحياة الاجتماعية والأعياد .

٨ ــ ٣ وثائق عن الحالة الداخلية والأمن العام .

٩ ــ ١٤ وثيقة عن النظم الإدارية ودواوين الحكم والولاة فى العاصمة والأقاليم .

١٠ــ ٢ وثيقتان عن الحياة العلمية ووظائف التدريس .

١١ــ ٧ وثائق عن الجيش وفرقه ونظمه .

١٢ــ ٦ وثائق أمانات أى سجلات بتأمين طوائف الشعب .

١٣ــ ١٤ وثيقة عن العلاقات الخارجية .

وبعد هذا التصنيف أخذت فى دراسة وثائق كل مجموعة على حدة فرتبتها ترتيباً زمنياً لتسهل دراسة كل نظام وما أصابه من تطور ثم حاولت أن أحدد فى كل وثيقة اسم الخليفة أو الوزير أو الديوان الصادرة عنه والجهة الصادرة إليها وموضوع الوثيقة ونوعها وتاريخ كتابتها واسم كاتب الإنشاء (٩) الذى كتبها والمرجع أو المراجع الواردة بها ثم قدمت لها أخيراً بدراسة تحليلية مقارنة بينت فيها الجديد الذى يمكن أن تضيفه هذه الوثيقة إلى العلم والتاريخ . وأستطيع أن أؤكد أن هذه المجموعة عند نشرها ستقدم للباحثين والمؤرخين مادة جديدة وفقرة وثيقة ستغير الكثير من المعروف المتداول عن تاريخ مصر فى العصر الفاطمى وعن نظم الحكم المختلفة فى عهد هذه الدولة المجيدة كما أنها ستكشف الغطاء عن كثير من العلاقات الخارجية التى كانت تربط بينها وبين الدول الأخرى وخاصة الشام واليمن وصقلية والخلافة العباسية .

ويكفى أن أعرض هنا وثائق المجموعة الأولى الخاصة بنظام الخلافة وولاية العهد عرضاً موجزاً لتأكيد صحة ما ذهبت إليه .

وثائق الخلافة وولاية العهد

ومجموعها عشر وثائق منها خمس وثائق ترجع إلى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله وبيانها :

١ ــ سجل باعلان وفاة الخليفة المستعلى بالله وولاية الآمر بأحكام الله الخلافة من بعده والجديد فى هذا السجل أمران :

(ا) الإشارة إلى أصل هام من أصول المذهب الاسماعيلى وهو أن الإمامة تنتقل دائماً بالوراثة من الوالد إلى الولد لأن الوالد يستودع ولده ما ورثه هو أيضاً عن والده من علوم لدنية وأسرار مكنونة فقد نص السجل على أن الخليفة المستعلى ـ عند نقلته ـ جعل لابنه الآمر عقد الخلافة من بعده وأودعه « ما حازه عن أبيه عن جده » وأطلعه « من العلوم على السر المكنون » وأفضى إليه « من الحكمة بالغامض المصون » .

(ب) بيان ما كان للوزير الأفضل شاهنشاه من مكانة ممتازة فقد كانت السلطة الحقيقية بيد هذا الوزير منذ أواخر عهد المستنصر .

٢ ــ كتاب كتب به عن الآمر بأحكام الله إلى ولاة الأقاليم عند استقراره فى الخلافة بعد وفاة أبيه المستعلى بالله .

وتعتبر هذه الوثيقة مكملة للوثيقة السابقة فالأولى إعلان بوفاة المستعلى وولاية الآمر لأولى الأمر والرعية والأجناد فى العاصمة والثانية خطاب دورى أرسلت منه صور إلى ولاة الأعمال جميعاً لإعلامهم بهذين الحدثين .

٣ ــ سجل صادر عن الآمر بأحكام الله إلى وال من ولاة الأطراف بعد قراءة عهده مهنئاً بخلافته وبه تجديد لولاية هذا الوالى فى عمله .

ولهذا السجل أهميته عند دراسة النظام الإدارى المحلى فى مصر على عهد الفاطميين فهو يدل على أنه لم يكن من الضرورى عزل ولاة الأقاليم عند وفاة الخليفة وتولى خليفة جديد بل كان من الضرورى تجديد ولايتهم وكان من الجائز أن يثبت الوالى فى عمله إذا ثبت لدى ولاة الأمور إخلاصه ووفاؤه بل أن هذا السجل يدل على أنه كان من الممكن أن يظل الوالى فى وظيفته خلال حكم ثلاثة من الخلفاء . فقد نص فيه على أن هذا الوالى كان له من الخدم المشكورة والمساعى المبرورة فى الدولتين المستنصرية والمستعلية مايدل على مناصحته وإخلاصه

والسجل بعد هذا يضيف جديداً إلى معلوماتنا عن نظام الحكم فى الأقاليم فهو يحدد أنواع الموظفين الذين يعاونون الوالى فى إدارة شؤون الحكم فى ولايته وهم :

– متولى الحكم (أى القاضى) .

– ومتولى الدعوة الهادية (أى الداعى) .

– والمستخدم فى الخطبة العلوية (أى خطيب المسجد الجامع وإمامه) .

– والموظفون المشرفون على استثمار الأموال (أى كتاب الدواوين القائمون على جميع الأموال فى الاقاليم) .

– والرجال (أى الجنود) .

٤ – الهداية الآمرية فى إبطال الدعوى النزارية :

وهذه الوثيقة تعتبر من أهم الوثائق التى وصلتنا عن العصر الفاطمى لأنها تلقى أضواء كثيرة على أول انقسام مذهبى وسياسى أصاب الدولة الفاطمية وهو الانقسام الذى حدث بعد موت الخليفة المستنصر وأدى إلى إبعاد ابنه الأكبر نزار عن الخلافة وتولية ابنه الأصغر أبى القاسم أحمد (المستعلى بالله) وانقسمت تبعاً لذلك الشيعة الاسماعيلية إلى فرقتين :

الاسماعلية النزارية التى نجح دعاتها فى اقامة ملك لهم فى ألموت ثم فى الشام وقد لعبوا دوراً خطيراً فى التاريخ الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين وأتباع هذا المذهب كثيرون حتى الآن فى الهند وزعيمهم أغا خان .

والاسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر(١٠) .

وهذه الوثيقة (١١) سجل رسمى صادر عن الخليفة الآمر لتفنيد ادعاءات الفرقة النزارية والبرهنة على صحة إمامة المستعلى ببراهين كثيرة بعضها يعتمد على الأقوال والروايات التى تروى عن المستنصر وتؤكدها روايات وأقوال أخرى روتها أخت نزار شقيقته وقت كتابة هذا السجل وبعضها يعتمد على الأحداث والسوابق التاريخية فى العصر الفاطمى والبعض الأخير يعتمد على أسس المذهب وأصوله .

٥ – رسالة إيقاع صواعق الارغام .

استمع النزارية فى الشام للهداية الآمرية وما بها من حجج وأصدروا رداً

عليها وهذه الوثيقة رد على الرد وهى فى جملتها تأكيد للبراهين السابقة الواردة فى الهداية الآمرية للدلالة على صحة إمامة المستعلى وعدم أحقية أخيه نزار .

ويلى ذلك وثائق ثلاثة ترجع إلى عهد الخليفة الحافظ وهى :

١ – بيعة كتب بها عن الخليفة الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الخليفة الآمر بأحكام الله قام بعقدها الوزير أبو الفتح يانس الفاطمى ولهذه الوثيقة أهمية خاصة لأنها تؤرخ للعهد الذى شهد الانقسام المذهبى الثانى فى تاريخ الدولة الفاطمية وتولية الحافظ بعد الآمر تعتبر خروجاً واضحاً على أصل هام من أصول المذهب فهو ابن عم للخليفة السابق وليس ابناً له وهذه سابقة أولى لم تتكرر إلا مرة واحدة بعد ذلك عندما ولى العاضد آخر خلفاء الفاطميين بعد ابن عمه الفائز وقد كان المتداول فى المراجع التاريخية إلى عهد قريب ان الآمر توفى قبل أن يعقب وترك زوجة له حاملا وأوصى للطفل إن كان ولداً ولكنها أعقبت بنتاً فتولى الحافظ الخلافة ولكن بعض النصوص التاريخية الاسماعيلية والسنية التى ظهرت للنور أخيراً تذكر أن الآمر أنجب فى حياته ولداً أسماه الطيب (١٣) ولهذا انقسم الأسماعيلية مرة أخرى فى عهد الحافظ إلى فرقتين : الطيبية ، وأتباعها انتشروا فى اليمن ، والحافظية .

٢ – سجل صادر عن الخليفة الحافظ بولاية العهد لابنه حيدرة .

وهذه الوثيقة تلقى أضواء جديدة على الثورة التى قام بها حسن بن الخليفة الحافظ والتى أشارت إليها المراجع التاريخية المعروفة فقد كان الحافظ أوصى بولاية العهد لابنه الأكبر أبو ربيع سليمان فى سنة ٥٢٨ هـ ولكنه مات بعد شهرين فأصدر الحافظ هذا السجل بولاية العهد لابنه حيدرة فشق ذلك على أخيه حسن – وكان أكبر أولاد الحافظ بعد وفاة سليمان – ولهذا قام بثورته الحربية الخطيرة ضد أبيه مما اضطر الحافظ إلى إلغاء هذا السجل وإعلان سجل آخر بولاية الحسن لعهده وتعتبر هذه الثورة الضربة الثالثة التى أصابت الدولة الفاطمية فى عصرها المتأخر فقد انقسم الجيش الفاطمى نتيجة لها إلى أحزاب وشيع (١٣) .

وهذه الوثيقة تضيف جديداً للباحثين فى تاريخ الجيش المصرى فى العصر الفاطمى فهى تنص على أنه كانت تكون لولى العهد عند إعلان توليته فرقة خاصة به تنسب إليه وتسمى « الطائفة العهدية » وهذه طائفة جديدة من طوائف الجيش الفاطمى لم تشر إليها المراجع التاريخية الأخرى ولم نجد لها ذكراً إلا فى وثيقة ثانية مماثلة بعقد ولاية العهد فى السنين الأخيرة من العصر الفاطمى بقلم القاضى الفاضل .

٣ — سجل بولاية عهد :

وهذا سجل نادر لا يشبه السجلات التى وصلتنا فى موضوعه فالسجلات الأخرى جميعاً صدرت فى عهود الخلفاء أثناء حياتهم بعقد ولاية العهد لأبنائهم أما هذا السجل فقد أصدره ولى العهد بعد وفاة أبيه الخليفة السابق .

وقد أورد القلقشندى هذا السجل خلواً من أى بيان فليس به اسم الخليفة السابق أو الخليفة اللاحق ولكننى استطعت بعد دراسة تحليلية مقارنة أن أثبت أن هذا السجل صدر فى أول عهد الخليفة الظافر بأمر الله بن الحافظ لدين الله .

بقيت بعد هذا وثيقتان :

احداهما سجل بولاية العهد أورده صاحب صبح الأعشى نقلا عن كتاب مواد البيان لعلى بن خلف ولم يذكر فيها اسم الخليفة الموصى أو ولى العهد الموصى إليه ولم أستطع أنا أيضاً تعيين هذين الاسمين ولكننى أرجح أن يكون هذا السجل قد صدر فى عهد الخليفة المستنصر فقد كان على بن خلف وزيراً من وزراء المستنصر وقتل فى عهده .

والثانية مثل الأولى سجل بولاية العهد ولا تعرف عنها غير اسم كاتبها وهو القاضى الفاضل مما يرجح أنها كتبت فى عهد الخليفة الأخير العاضد وأهم ما يشير إليه هذا السجل تعيين طائفة جديدة من طوائف الجيش لحراسة ولى العهد وخدمته والوقوف ببابه ويكون إليه اعتزازها وانتسابها وهذه الطائفة تشبه مثيلتها التى سبقت الإشارة إليها فى السجل بولاية العهد لحيدرة بن الخليفة الحافظ .

المراجـــع

Bernard Lewis : The Ottoman Archives as a Source for the (١) History of the Arab Lands. J.R.A.S., October, 1951, pp. 139-155.

(٢) نقصد بالنقوش Inscriptions هنا النصوص المثبتة أو الكتابات التاريخية المرقومة على الأبنية والعمائر والمساجد والمدارس والخانقاوات والأضرحة والتكايا وما شابهها أو على التحف الأثرية بمختلف أنواعها وكان المستشرقون أول من عنى بهذه الكتابات وأول من أدرك ما لها من أهمية بالغة لإثبات أو معارضة ما جاء به المؤرخون من حقائق بل لقد اتضح عند جمع هذه الكتابات ودراستها أنها كثيراً ما تمد المؤرخ بمادة جديدة لم تعرض لها المراجع التاريخية وفى مقدمة من عنى بهذه الكتابات التاريخية المستشرق السويسرى فان برشم Max Van Berchem الذى جمع عدداً كبيراً من النصوص المرقومة على العمائر الإسلامية وطبعها فى كتابه المعروف Corpus Inscriptionum Arabicorum (جامع الكتابات العربية) وذيل هذه النصوص بحواش تاريخية قيمة ، انظر :

Max Van Berchem : Matérieux pour un Corpus Inscriptionum Arabicorum, léreoartis (Egypte), Paris, 1903.

وقد أكمل المستشرق الفرنسى جاستون فييت Gaston Wiet العمل الذى بدأه فان برشم فأخرج الجزء الثانى من هذا السجل القيم جامعاً لبقية النصوص الخاصة بمصر انظر :

G. Wiet: Matérieux pour un Corpus Inscriptionum Arabicorum. Egypte, tome II (Mem. de l'Institut Fr. d'Archéologie Orientale, tome 52, 1930) .

وبعد وفاة برشم فى سنة ١٩٢١ واصل تلاميذه وأصدقاؤه الجهد ورسموا الخطة لإخراج سجل يجمع جميع النصوص العربية المرقومة على العمائر والتحف فى كل أجزاء العالم الإسلامى وقام على تنفيذ هذا الجهد العلمى الضخم جاستون فييت G. Wiet واتيين كومب E. Combe وسوفاجيه J. Sauvaget مستعينين بجهود عدد كبير من المشتغلين بالآثار الإسلامية وسموا هذه المجموعة (السجل التاريخى للكتابات العربية) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe وظهر الجزء الأول منه سنة ١٩٣١ ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة وظهر الجزء الأخير سنة ١٩٤٤ .

(٣) عن أوراق البردى العربية وتاريخها ومجموعاتها وأهميتها لدراسة التاريخ الإسلامى والحياة الاجتماعية ونظم الحكم والإدارة . . الخ انظر :

Adolph Grohman : Arabic Papyri in the Egyptian Library. Vols. I, II, III, IV, Cairo, 1934, 1936, 1938.

وقد ترجم المؤلف الجزئين الأول والثانى بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم بعنوان (أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٤) وانظر أيضاً :

Grohmann : From the World of Arabic Papyri (Publications of the Egyptian Society of Historical Studies, Cairo, 1952).

(٤) انظر (المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود نشر Tychsen)

(نفس المؤلف : إغاثة الأمة بكشف الغمة نشر الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال) القاهرة ١٩٤٠ و (انستاس مارى الكرملى . النقود العربية وعلم النميات – القاهرة ١٩٣٩)

Sauvaire : Matériaux Pour Servir à l'Histoire de la Numismatique et de la Matrologie Musulmane, 2 vols. (Extrait du Journal Asiatique, Paris, 1872, 1885.)

(٥) ذكر Bernard Lewis, op. cit. p. 140 أن هناك دولة واحدة من دول الشرق الأوسط الإسلامية شذت عن هذا الوضع واحتفظت بمجموعات كثيرة من وثائقها الرسمية فى دار محفوظاتها (أرشيفها) وقد كتب مقاله هذا ليبين فيه أهمية هذا الأرشيف لدراسة تاريخ الدول العربية فى العصر العثمانى .

(٦) انظر : (ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل نشر على بهجت القاهرة ١٩٠٥) وقد ترجم ماسيه Massé هذا الكتاب إلى الفرنسية بعنوان :

Henri Massé: Le Code de la Chancellerie. B. I.F.A.O. le Caire, 1914).

و (القلقشندى « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » – ١٤ جزءاً – القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٩) .

(٧) وهذه بعض المصادر التى جمعت عنها هذه الوثائق : –

السيوطى – حسن المحاضرة .

القلقشندى – صبح الأعشى .

ابن الصيرفى – الإشارة إلى من نال الوزارة وقانون ديوان الرسائل .

المقريزى – اتعاظ الحنفا نشر الشيال ومخطوطة طوب قبو سراى .

المقريزى – الخطط .

ابن القلانسى – ذيل تاريخ دمشق نشر امدروز .

الحنبلى – شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب . (مخطوط) .

ابن واصل – مفرج الكروب .

أبو شامة – الروضتين .

Al-Hidayatu' L-Amiriya. edited by Asaf Ali Fyzee, Calcutta, 1938

ابن العديم – زبدة الحلب فى تاريخ حلب الجزء الأول – نشر سامى الدهان – دمشق ١٩٥١ .

ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة .

(٨) توجد أعداد أخرى من الوثائق الفاطمية لم أدخلها فى مجموعتى لأنها سبق أن نشرت أو لأنها تعد للنشر فى كتب موحدة الفكرة ومثل الأولى بعض الرسائل التى كتبها المؤيد فى الدين داعى

الدعاة إلى بعض الوزراء والولاة والقواد انظر (سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة نشر الدكتور محمد كامل حسين القاهرة ١٩٤٩) و (الداعى أحمد حميد الدين الكرمانى – الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله نشر الدكتور محمد كامل حسين مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد ١٤ الجزء الأول مايو ١٩٥٢ ص ١ – ٢٩) و (بين أبى العلاء المصرى وداعى الدعاة الفاطمى خمس رسائل نشرتها المطبعة السلفية – القاهرة ١٣٤٩) و (أربع رسائل اسماعيلية نشرها عارف تامر – سلمية – سوريا ١٩٥٢) . ومثل الثانية مجموعة الرسائل المستنصرية ويعمل على نشرها الآن الدكتور عبد المنعم ماجد وتوجد من هذه الرسائل نسخة وحيدة مخطوطة فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن برقم ٢٧١٥٥ تحت عنوان « سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – إلى دعاة اليمن وغيرهم » انظر ما كتبه عنها :

(Hamdani : The Letters of al-Mostançir B.S.O.S. vol. VII, 1933-1935, p. 307).

(٩) هذه الوثائق جميعاً جمعت من الكتب التاريخية والأدبية – فيما عدا وثيقتين اثنتين وجدتا كما هما على الحالة التى صدرتا بها بدير سانت كاترين – وقد حرص مؤلفو هذه الكتب فى بعض الأحيان على ذكر هذه البيانات جميعاً ونصوا على كاتب هذه الوثائق وأهمل ذكر ذلك فى أحيان أخرى وقد بذلت جهداً كبيراً لتحقيق هذه البيانات فى الوثائق التى تفقدتها. وفيما يتعلق بكاتب الوثيقة ذكر (ابن الصيرفى – قانون ديوان الرسائل ص ١١٣ – ١١٤ (ان النظام فى الدولة العباسية كان يقتضى أن يثبت كاتب الإنشاء اسمه فى نهاية كل وثيقة أما فى الدولة الفاطمية فكان كاتب الإنشاء يكتفى بكتابة عنوان الوثيقة بخطه دون ذكر اسمه ليستدل من هذا الخط على كاتبها فاذا لم تكن الوثيقة من هذا النوع الذى يعنون كتب تاريخها بخطه لنفس الغرض قال ابن الصيرفى : « ويلزمه – أى كاتب الإنشاء – أن يكون المعنون الكتب لأن على كتبه العنوان بخطه شهادة عليه أنه قد وقف على الكتاب بما كتب فيه وقد كان الرسم جارياً بالعراق – وفيه الكتاب الأفاضل – أن يكتب الكتاب ويقولون فى آخره وكتب فلان بن فلان ويذكرون اسم متولى ديوان الرسائل فاكتفى ها هنا بكون العنوان بخطه عن ذكر اسمه فى آخر الكتاب وأما ما لا عنوان له كالمناشير وغيرها فمن الواجب أن يكون تاريخه بخطه ليقوم مقام العنوان مما يعنون من الشهادة عليه بارتضائه وإحماده » .

(١٠) H.A.R. Giob : Articles : Nizar and Musta-'li (in Enc. Islam).

وأنظر أيضاً :

S.M. Stern : The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (al-Hidaya al-Amiriya) — its Date and its Purpose (J.A.A.S. parts 1 & 2, 1950 pp. 20-31.

(١١) نشر هذه الوثيقة لأول مرة ناصف على فيظى فى المجلد السابع من مطبوعات جمعية الأبحاث الإسلامية .

Al-Hidayatu-L-Amiriya. edited by Asaf. A.A., Fyzee (Islamic Research Association Series. No. 7. Oxford University Press, 1938.

(١٢) لاستيفاء المعلومات عن الطيب بن الآمر انظر :—

— ابن ميسر — تاريخ مصر ص ٧٢ .

— مؤلف مجهول — البستان الجامع نشر كلود كاهن .

C. Cahen : Une Chronique Syrienne du VII/XIII Siècle, "Le Bustan Al-Jami'". Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, 1938, p. 121-122.

— ما ذكره ابن أبي طي في (تاريخ ابن الفرات ج ٢ ص ١٧ ب) .

— المقريزي — اتعاظ الحنفا مخطوطة طوب قبو سراي ١٣٤ ا و ١٣٦ ا .

Stern: The Succession of the Fatimid Imam Al-Amir, The Claims of the Iatre Fatimids to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism. (Oriens, vol. 4, no. 2, 1951, pp. 193-255).

(١٣) انظر :

— المقريزي : الخطط — ج ٣ — ص ٢٧ — ٢٩ .

— المقريزي الحنفا — نشر الدكتور الشيال — ص ٣١٩ — ٣٢٣ .

ونفس المرجع — مخطوطة سراي — ص ١٣٣ ا — ١٣٤ ب .

— ابن ميسر : تاريخ مصر — ص ٧٧ — ٧٨ .

جمال الدين الشيال